حكايات مع الأدباء

صفحات من حياة
نازك الملائكة

حياة شرارة



Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

صفحات من حياة
نازك الملائكة

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

حياة شرارة

صفحات من حياة
نازك الملائكة

حكايات مع الأدباء

RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

POET'S TALES

NAZIK AL MALAEKA

BY

HAYAT SHRARA

First Published in the United Kingdom in 1994
Copyright © Riad El-Rayyes Books Ltd
56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
UNITED KINGDOM

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1-85513-282-6

All rights reserved. No part of this publication
may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any
means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise,
without prior permission in writing of the publishers

الطبعة الاولى: كانون الثاني/يناير ١٩٩٤

الاهداء

الى ابنتي زينب التي كانت خير عون لي
في جمع مادة هذا الكتاب.

ح. ش.

محتويات الكتاب

مقدمة: الرهان على واحد بالألف ١١
الطفولة ٢١
الأهل ٣٧
دار الأجداد ٤٩
في المغاني الفسيحة ٥٩
بين اللهو والجد ٦٥
فرحة الشعر الأولى ٧٣
الغناء والعزلة والفلسفة ٧٩
نازك وأخواتها ووالدتها ٨٧
سير الزمن والتضلع بالثقافة ٩٧
هكذا تنطوي أيام ١٠٩
الديوانان الأولان والشعر الحر ١١٧
الرحلة الدراسية الأولى ١٢٧
الفجيعة الكبرى ١٣٩
الحياة تواصل سبيلها ١٤٩
الغربة الثانية ١٥٥
العودة الى الوطن ١٦٩
مع أفراح الابداع وهمومه ١٧٧
السفر وتدفّق الشعر ١٨٩

حكايات مع الأدباء

لقاء الشاعرة بموسيقار العرب ١٩٩
ويستمر إيقاع الزمن اليومي ٢٠٩
عند عتبة السبعين ٢١٧

مقدمة: الرهان على واحد بالألف

منذ أن سجلت ذكرياتي عن نازك الملائكة في مقال عنوانه (تلك أيام خلت) ظلت تخامر ذهني فكرة الكتابة عن سيرة حياتها بشكل تفصيلي بحيث أستطيع أن أعطي صورة شخصية حية لها تنبض بالحركة. غير أن المشاغل الأدبية اليومية وغير الأدبية جرفتني في تيارها ولم تفسح لي المجال لأعمل فكري في هذه الدراسة وأشرع في البحث عن السبل المؤدية الى الحصول على مئات التفاصيل الصغيرة اليومية التي لابد منها لكل من يريد أن يكتب عن سيرة حياة شاعر أو كاتب. كنت أدرك أن هذا العمل صعب، فالكتابة هنا لا يمكن أن تقتصر على الكتب الموجودة فوق رفوف المكتبات كما هي الحال في كتابة الدراسات والأبحاث ـ بل تحتاج الى دراسة ميدانية أيضاً والاتصال بعشرات الأشخاص ابتداء من الشاعرة وأخوتها الى أقاربها وأصدقائها ومعارفها، وكل هذا يحتاج الى وقت ونشاط في الزيارات والاتصالات والذهاب الى مناطق متباعدة في أرجاء بغداد الواسعة ومعرفة عناوين أولئك الناس والتفكير بمدى تقبلهم لمثل هذه الزيارات. لم تغب عن ذهني مثل هذه التعقيدات في العمل وأنا أقدم عليه. كنت أدرك انه ينطوي على شيء من المغامرة واكتشاف ما يسرني وما يسوءني، ما يشحذ عزيمتي أو يثبطها. غير أنني لم أكن أميل الى التخلي عن هذه الفكرة. كنت أعتقد أنني أستطيع أن أنجح في هذا العمل، لأنني مطلعة منذ صغري على حياة نازك الملائكة وعائلتها والبيت الذي عاشت فيه. فقد كانت الزيارات مستمرة بين عائلتينا، وكنت أصغي لنازك عندما تقرأ الشعر، وأسعد عندما أسمعها تغني وتعزف على العود في آن واحد وأجلس صامتة مثل الآخرين عندما تُسمعنا الموسيقى الكلاسيكية. كنت معجبة بشخصيتها، بهدوئها، بتواضعها، بشاعريتها، بتوجيهها لنا، باهتمام الناس بها، كل ذلك كان حبيباً الى نفسي. وارتسمت لها في ذهني صورة شاعرية شفافة ظلت تلازمني حتى الآن.

وذات يوم شعرت أن فكرة الكتابة عن نازك اختمرت في ذهني وأخذت

تلحّ عليّ فجأة وتطالبني أن أضعها في حيّز التنفيذ. لاشك أن أول ما تبادر الى بالي هو الاتصال بشاعرتنا للحصول منها على المعلومات اللازمة للكتابة عنها، إضافة الى رؤيتها والتعرف على أحوالها بعد هذا الانقطاع الطويل والاستفسار منها عن أمور كثيرة. ولكن كيف يتأتى لي ذلك وقد تقطعت جميع الصلات القديمة التي كانت تربط عائلة شرارة بالملائكة ولم يبق منها ما يمكن أن يوصلني اليها. أخذت أسأل عمن يعرف نازك ويستطيع أن يزودني بعنوانها أو رقم تلفونها، ولكن لم يسعفني أحد في الوصول الى بغيتي. وذات مرة عرفت أن الدكتورة خديجة الحديثي على صلة وثيقة بها، فقد كانت تدرّس معها في جامعة الكويت لمدة سبع سنوات وانعقدت بينهما أواصر الصداقة. تنفست الصعداء وشعرت أنني مسكت ببداية الخيط الذي سيقودني اليها.

كانت الدكتورة خديجة الحديثي تدرّس في قسم اللغة العربية في كلية الآداب، وغالباً ما كنت أراها في مكتبة الدراسات العليا، غير أنني لم أعد أراها الآن لأنني انتقلت للعمل في كلية اللغات، وقلما صرت أصادفها كما كان شأني سابقاً، استطعت الحصول على رقم تلفونها من أستاذة تعمل معها في الكلية واتصلت بها في البيت. أدركت أنها ستستغرب من مكالمتي لها ولو أنها لم تفصح عن ذلك واستقبلتني بلطف ومودة، وبادرت في شرح ما أريده منها وهو الحصول على رقم هاتف نازك الملائكة.

قالت لي الدكتورة خديجة عندما عرفت أنني أريد زيارة نازك، انك تحاولين المحال، فالأمل في رؤيتها لا يتعدى الواحد بالألف لا غير. لقد كنا جيرانها في الكويت وتربطنا بها وبزوجها علاقة متينة، فنزورها بلا مواعيد محددة مسبقاً على غير عادتها في استقبال الناس، ومع ذلك لم أستطع أن أظفر برؤيتها منذ أن عادت الى العراق قبل سنتين. قلت لها:

ـ سمعت انها مريضة، أحقاً هذا؟

ـ انها منطوية على نفسها، ولا تقبل أية مواعيد أو لقاءات مع أي كان.

ـ ومع ذلك أريد رقم هاتفها.

ـ كما تشائين، هذا هو.

سجلت رقم الهاتف وشكرتها وقلت لها سأفكر في أمر الاتصال بها لأنني لم أكن أتصور الحال على هذه الشاكلة. غير أنني شعرت بالغبطة والارتياح لحصولي أخيراً على رقم الهاتف. صار بوسعي أن أقوم بالخطوة الأولى، وهي

الخطوة الصعبة ولكنها هي التي تفتح أمامي السبيل للبدء في جمع المعلومات والجزئيات اليومية عن نشأتها وطفولتها ومراحل حياتها التالية.

فكرت في هذا الرفض القاطع الذي سمعت عنه والذي ينتظر كل من يحاول الاتصال بنازك، وكيف يمكن أن يكون وقعه عليَّ إذا حصل. فأنا شديدة الحساسية حيال هذه المواقف، فكيف إذا صدرت عن نازك الملائكة التي أحمل لها في ذهني صورة صافية رقيقة. ربما تتحطم عندئذ تلك الصورة وتخلف في مشاعري جرحاً لا ينسى، وينتهي حينئذ مشروعي كله الى الفشل، ويترك إضافة الى ذلك خدشاً في ذكريات جميلة عزيزة عليَّ.

وفي ذات مساء تبددت تلك الحيرة والقلق وتملكني فجأة شعور بالثقة واليقين لا أعرف له سبباً، يطمئن نفسي ويهمس لي بأن التغلب على هذا المحال ممكن، بل حبّب إليّ معاني المغامرة التي ينطوي عليها. بدا لي أن هاجساً من هواجس الغيب ظهر عندي بغتة وشحذ همتي، فأدركت ان الساعة قد حانت. وما إن مضت برهة حتى انقلب تفكيري الى الطرف المعاكس. فماذا لو كانت نازك مريضة فعلاً في الوقت الحالي وأنا أضغط على أزرار الهاتف؟ ومن أين جاء هذا اليقين عن وضع لا أعرف عنه شيئاً، بينما الجميع يجدون حولها ما يشبه سور الصين المنيع. كنت أدرك أن للإنسان هاجساً داخلياً لا يخطىء، وكان هذا الهاجس يقول لي إنني سأفلح في مسعاي. ولكن كيف يسعني أن أعتمد على مجرد إحساس داخلي لا يقوم على أي أساس ملموس؟ فربما يزين لي الأمر على خلاف ما هو عليه. ومجدداً هتف صوت في أعماقي، نعم، ممكن... ولكن بشرط! وتساءلت:

ـ أي شرط؟

ـ إذا رفعت هي سماعة الهاتف وتكلمت معها مباشرة، وإلا انتهى كل شيء.

ـ حقاً! إذا كلمتها فسوف تسترسل في الحديث معي، كيف غاب عن بالي ذلك! ولكن كيف أضمن هذا، وماذا لو ردّ أحد غيرها لا يعرفني، ويرفض أن أكلمها؟ لاشك أنها لن تجيب هي نفسها على التلفون. لابد من وجود شخص آخر، ثمة وسيط سيقف بيننا ويقرر أن أتحدث معها أو لا.

انتابني شيء من اليأس حيال هذه الفكرة، لأنها تغلق في وجهي النافذة التي فتحتها بحصولي على رقم الهاتف. لو كنت أعرف عنوان احدى أخواتها لاستوضحت منها أموراً كثيرة ولعرفت على ضوء ذلك كيف أتصرف، ولكن السبل كلها مغلقة دونهم. إذن لا مفر من المجازفة والاتصال مباشرة والتفكير لن

يجدي نفعاً، وما عليَّ إلا أن أضغط على أزرار الهاتف وأتصرف حسب ما أسمعه من رد.

مرت الأيام وفي مساء ٢٢ آب/أغسطس ١٩٨٩ كنت مشغولة بالأعمال المنزلية وفجأة تملكني شعور بأن الساعة قد أزفت للاتصال بها. شعرت أنني أقبل على عمل أرغب في كتمانه في اللحظة الراهنة، ولا أريد أن يعرف أحد في البيت شيئاً عن هذه المكالمة. كان الكتمان حاجة نفسية ضرورية لم أعهده لدي من قبل، وكأنني أقدم على عمل فيه تقرير مصير لقضية مهمة أثيرة عندي ولا أريد أن يطلع عليها كائن من كان قبل أن تتضح جوانبها. كنت أخشى في حقيقة الأمر ـ رغم الثقة الكبيرة التي أحسها ـ أن تنتهي المكالمة بالفشل، وتترك فيّ شعوراً مؤلماً. أغلقت باب المدخل دوني، حيث يوجد جهاز الهاتف وأخذت أضغط على الأرقام. وها أنا أسمع رنين الهاتف في بيتها، وكنت أنتظر الجواب بهدوء ودون قلق.

أجاب صوت مصري اللهجة، فحدست انه الخادم، وكان عليَّ أن أتأكد بأن رقم الهاتف صحيح ولم أتصل مصادفة ببيت آخر. وسألت:

ـ أهذا بيت نازك الملائكة؟

ـ نعم.

ـ أيمكنني أن أتكلم معها؟

ـ لحظة. سأنادي الدكتور.

إذن سأتكلم مع زوجها الدكتور عبدالهادي محبوبة. انتظرت بضع ثوانٍ وسمعت (هلو).

ـ مساء الخير، أنا فلانة، هل يمكنني التحدث مع السيدة نازك؟

ـ إنني لا أسمعك جيداً، هاتفنا به شيء من الخلل.

قرّبت مؤخرة السماعة من شفتي تماماً وكررت ما قلته بصوت مرتفع.

ـ هل أنت احدى قريباتها أو تريدين زيارتها شخصياً؟

ـ لا، لست قريبتها وإنما تربطني بها علاقة قديمة وأريد إجراء لقاء معها.

ـ لا يمكن... إنها ترفض ذلك بشكل قاطع. إن حالتها الصحية لا تساعد على ذلك ولا داعي للالحاح، فهي لا ترى أحداً سوى أفراد عائلتها.

ـ ولكن لي معرفة قديمة بها و...

ـ قلت لك إنها لا تقابل أحداً أبداً.

ـ طيب، أريد فقط أن تخبرها باسمي، أممكن هذا؟

ـ ما اسمك؟

ـ حياة شرارة.

ـ طيب، انتظري.

أخذت أنتظر، وطال الانتظار بعض الشيء وارتحت لهذا التأخير. شعرت بأنني نجحت في مسعاي وإلا لعاد بسرعة وأخبرني أنها لا تستطيع أن ترد عليَّ وأنهى المكالمة وعلت وجهي ابتسامة فيها توقع وانتظار بعد أن كاد يتملكني اليأس من اللهجة القاطعة في رفضها التي كلمني بها زوجها. وفجأة سمعت صوتها على الهاتف، وكدت لا أصدق نفسي وأردت أن أتأكد فسألت:

ـ هل السيدة نازك تتكلم؟

ـ نعم.

ـ أخبروني انك منطوية، ولا تحبين أن تكلمي أحداً.

ـ لماذا يتكلمون عليّ هكذا؟ أنا لست منطوية، وأحب الحياة والناس، أريد رقم هاتفك لأسجله عندي قبل أن أنسى وسأراك في موعد أحدده لك.

ـ هذا هو... أتدرين انك أوحيت لي مقالاً عن الأيام الخوالي عندما شاهدتك لحظة على شاشة التلفزيون؟

أجابت بفرح ـ أحقاً؟ ولكنني لم أطلع عليه.

ـ سأجلبه معي عندما أزورك.

ـ شكراً لك، كيف حالكم؟

ـ بخير، هل يمكن أن تعطيني رقم تلفون احسان؟

ـ طبعاً.

كتبت الرقم وشكرتها وودعتها.

دخلت غرفة الجلوس والسرور والابتسامة يلوحان على وجهي، فبادرتني ابنتي زينب بالقول:

ـ أتدرين بأية فرحة صحت السيدة نازك؟

ـ صحت؟

ـ أي، صحت، بحيث تعجبت ماذا حدث لك.

كانت فرحة حديث طال انتظاري له وخوفي منه. جلست مرتاحة، لقد

استطعت أن أتكلم معها أخيراً. حقاً كانت المكالمة قصيرة ولكنها تحمل المشاعر الودية والطيبة التي عرفتها فيها، والآن أستطيع أن أستطلع عن حالها بشكل تفصيلي من اختها احسان. إنها أقرب أخواتها اليها روحياً وأدبياً منذ صغرهما، فهي كاتبة ومترجمة ونازك تطلعها غالباً على ما تنظم وتكتب ويهمها أن تعرف رأيها في كل شيء. وإحسان بدورها تجل نازك وتعتبرها مثلها الأعلى في الحياة.

وأخذت أفكر مجدداً وأنا أضغط على أزرار الهاتف أية مفاجأة ستكون لإحسان أن تسمع صوتي بعد انقطاع بين عائلتينا دام ما يقارب الأربعين عاماً! وكيف صارت حالها الآن، أما زالت كما عهدتها بشوشة ودودة للغاية. وقطع تفكيري صوت رجالي رد عليّ وكنت أجهل كل شيء عنها سوى انها متزوجة. عرفت ان ابنها ملهم هو الذي يتكلم معي. عرّفته بشخصي ونادى لي أمه. ذكرت لها اسمي مرة أخرى، وجاءت نبرات صوتها تهزها فرحة المفاجأة من هذه المكالمة التي لا يمكن أن تخطر لها على بال، وهتفت بحبور: (الصغيرة حياة! كيف حالك!) ضحكت وأنا أسمع عبارتها، فما زلت في ذهنها تلك الصبية الصغيرة التي كانوا يتكلمون معها بتحبب وملاطفة، سرني حدوث هذا الشرخ المباغت في صرح الأعوام المتشامخ ولو للحظة عابرة من الزمن. ودار بيننا حديث طويل، فيه دفء الصداقة القديمة ومرحها وعذوبتها، وكأن السنين لم تفرقنا قط ولم تثقل كاهلنا الأحداث.

أخبرتها عن نيتي في كتابة سيرة حياة نازك وما أحتاج اليه من معلومات وتفاصيل عن أجوائهم البيتية والعائلية. أعربت لي عن سرورها بهذا المشروع وقالت لا أحد يستطيع أن يكتب مثلك سيرتها لأنك تعرفين طبيعة حياتنا وروابطنا منذ طفولتك، ولأنك ستكونين موضع ثقة أقاربنا، فهم يعرفونك ولن يترددوا في إعطائك المعلومات اللازمة. طلبت أن أراها، واتفقنا على موعد قريب.

زارتني في احدى أماسي أيلول ١٩٨٩. كنت أنتظرها بشوق ولهفة وأحاول أن أشكل ملامح الصورة الجديدة لاحسان. أمازالت تحمل طابعها القديم أم تغيرت تماماً. وماذا فعلت هذه العقود الأربعة من الأعوام بأفراد أسرة الملائكة. في حوالى الخامسة عصراً وقفت سيارة من نوع برازيلي، بيضاء اللون عند باب بيتنا، ونزلت احسان وخفّت لمعانقتي يغمرها الفرح والبهجة.

كان لقاء جميلاً دافيء الحديث. فما زالت احسان على مرحها وحبها للنقاش والجدال والاصرار على آرائها، وما زالت ملامحها نفسها مع بدانة

في الجسم بدل النحافة المفرطة التي كانت تتميز بها سابقاً، ومازال حبها لنازك قوي العاطفة جارفاً. دار الحديث وانهالت الأسئلة عن أفراد عائلتينا وتبادلنا الأخبار عن كل فرد منا ومصيره وحياته وفي نهاية اللقاء وبعد أن ارتوى شيء من ظمأ الاستطلاع الذي أحسسنا به، اتفقنا على بدء العمل.

قمت بزيارتها مرات عديدة، وكانت تستقبلني هي وزوجها وابنها ملهم ببالغ الترحاب والود. وضعت يدي في يدها المحبة المرشدة وأوصلتني الى جميع أخوتها وأخوالها وصديقاتها وأقاربها الآخرين. قمت بزيارتهم في بيوتهم أو قاموا هم بزيارتي، واستغرقت هذه اللقاءات مني شهوراً. وكانت ابنتي زينب ترافقني وتساعدني في نقل ما أحتاج اليه من مذكرات احسان، التي أفدت منها في تدوين تواريخ كثير من الأحداث والأخبار، وفي تسجيل بعض الأحاديث في جهاز المسجل. وقد أسدى لي خالها السيد منير الملائكة مساعدة كبرى بتقديمه وصفاً دقيقاً لدار أجدادهم في العاقولية ـ والذي عاشت فيه نازك ردحاً من الزمن ـ بحيث ارتسمت في ذهني صورة واضحة عنه. قدّم وصفاً مسهباً شفهياً في البداية ثم كتبه لي تحريرياً في دفتر، وأطلعني على كل ما يملك من كتب عن العائلة. كان الجميع ودودين وحرص معظمهم على تزويدي بكل ما يستطيعون من معلومات ولم يدخروا وسعاً من أجل مساعدتي في عملي.

التقيت بهم جميعاً عدا نازك التي كان يهمني أن أراها هي بالذات لأن الكتاب يدور حولها ولأنني لم أرها منذ عقود أيضاً. حاولت احسان مساعدتي في عقد هذا اللقاء. كانت تقول لي مادمت ستكتبين عن نازك فينبغي أن تقابليها، لأن في ذهنك صورة بعيدة رومانتيكية عنها، وكنت أشاركها الرأي. غير أن اللقاء ظل يتعثر لدرجة يئست منه. وذات يوم وكنت قد رجعت تواً من انكلترا، وقد تأخرت فيها قليلاً رغماً عني بسبب الغاء رحلات الطائرات العراقية الى بغداد بعد دخول الجيش العراقي الى الكويت، واضطررت أن أعود عن طريق عمان. وذات يوم خابرتني احسان وقالت لاشك انك مشغولة ومتعبة بعد السفر، فهل تستطيعين زيارة نازك معي يوم الجمعة، فقد أخذت موافقتها، ويمكن أن يوصلنا ابني ملهم اليها في منطقة العامرية. أجبتها طبعاً أستطيع، لقد مرت سنة على انتظاري هذا اللقاء، أمعقول أن أجعل الأعمال اليومية تقف حائلاً دونه!

وفي صباح يوم الجمعة المصادف ١٩٩٠/٩/٧ استقلينا السيارة وتوجهنا الى العامرية. استقبلتني بترحاب وبدا عليها السرور لرؤيتي وانطلقت بالحديث عن ذكرياتها وكتابتها الشعر. بقينا أكثر من ساعتين نتحدث معاً، وعندما عدنا قالت

احسان لم أرها تتحدث على سجيتها بهذا الشكل ولهذه المدة الطويلة، وهذا يعني أنها كانت مرتاحة للقائك، سجلت عصر ذلك اليوم ما دار بيننا من حديث، وكان هذا اليوم من التواريخ المهمة عندي، فقد استطعت أن أعرف ماذا فعلت يد الزمن بنازك، غير أن هذا اللقاء لم يفتح أمامي المجال للافادة من أية معلومات عن حياتها وما دوّنته في يومياتها من تفاصيل عن نشاطها الأدبي والفكري.

جمعت مادة غزيرة خلال تلك المدة، ومع ذلك ظلت فترات من حياتها شبه مجهولة لي ولاسيما فترة الستينات التي لا أملك حولها سوى معلومات قليلة مبتسرة لا تتفق مع طبيعة الكتاب الذي أضعه عنها. وقد واجهتني مشكلة كبيرة أخرى لم ألتفت اليها عندما شرعت في عملي، وهي حساسية وضع المرأة في مجتمعنا وكثرة القيود التي تثقل كاهلها. ان تناول الحياة الخصوصية للمرأة بكل تفاصيلها أمر لا يتقبله الفرد ولا المجتمع عندنا. فما أكثر الأمور العادية التي تعتبر عيباً وينبغي أن لا يأتي المرء على ذكرها. لقد تضخم حجمها أمام ناظري لدرجة خيل إلي أن وجودنا نفسه في الدنيا نوع من العيب. صارت كلمة عيب تدق رأسي كالمطرقة وتكاد تأتي على كل جهودي وتحطمها. عيب أن تحب، أن تغني، أن تمرض، أن تُطلّق، أن تظهر عواطفها... أن... أن... ووجدت الأصفاد الاجتماعية ترن بكل ثقلها في مسمعي وأنا أنقل خطواتي بينها بحذر وخوف. وضقت ذرعاً بهذه الحال واعترتني الحيرة واليأس لدرجة فكرت أن أصرف النظر عن كتابي نهائياً وأتحرر من احتمال الكتابة سهواً عما يعتبر عيباً. غير أن المادة المجتمعة أمامي في أكثر من ملف كانت تتطلع إليّ بعتاب وتدعوني أن أواصل العمل. وكنت بدوري أحس بالألم وأدرك أنني إذا تركتها فسيكون ذلك الى الأبد، وسأطويها الى غير رجعة ويذهب كل شيء أدراج الرياح.

غير أنني أخذت أقنع نفسي وأحدثها بأن الفترة الأولى من حياتها عندما كانت طفلة فصبية فيافعة تخلو من المحاذير لأنها تدور في الأساس حول طبيعة حياة الأسرة وتفكيرها واهتماماتها ونشأة نازك فيها ودور والديها في تثقيفها وتوجيهها. فلاضير أن أكتب عن هذه المرحلة على الأقل إذا لم أستطع أن آتي على جميع المراحل. وقادتني الخطوة الأولى الى غيرها حتى ولد الكتاب على شكله الحالي.

ولا بد لي أن أشير هنا الى أن المادة التي جمعتها هي التي أملت عليّ طبيعة منهج هذا الكتاب والجوانب التي تناولتها أو أهملتها ولم أتعرض لها. فقد كتبت عن جدتها ووالد جدتها ولم أكتب عن جدها من أبيها وهو شاعر

أيضاً. وكذلك كانت الحال بالنسبة لأخوتها، فقد أكثرت الكتابة عن سها وسعاد ولم يأت ذكر عصام ولبنى إلا لِماماً. ومرجع ذلك أن الأخيرين لم أحصل منهما على معلومات تذكر. وزودني أخوال نازك بكتب وجرائد عن جدهم محمد حسن كبة وأمهم هداية أفدت منها بالكتابة عنهما. وكذلك لم أستطع أيضاً الحصول على أية معلومات عن زوج نازك ولم أستطع حتى أن أقابله ولم تكن لي معرفة سابقة به. كانت المعلومات شحيحة أيضاً عن أخيها نزار الذي يشغل منزلة علمية كبيرة كان ينبغي أن أتحدث عنها بتفصيل أكبر.

ولما كان الأمر على هذه الحال، فقد قررت أن أكتب صفحات متناثرة من حياة نازك وليست سيرة كاملة لها ـ كما أزمعت في البداية ـ كي أقدر أن أتلافى الفجوات الموجودة في المعلومات التي جمعتها وأن ألزم الصمت عندما ترفع تقاليدنا العائلية والاجتماعية إصبعها بمهابة وحزم وتقول: هصْ. وهكذا واصلت الكتابة حتى النهاية. وحاولت من خلال الكتابة عن أسرة نازك أن أعطي صورة للحياة المعاشية والاجتماعية التي تختلف اختلافاً جذرياً عن حياتنا اليوم لكي يكوّن القارىء فكرة عن الظروف الحياتية في تلك الحقب التي نشأت فيها نازك.

يعود الفضل الأكبر في وضع هذا الكتاب الى احسان الملائكة. فلولا مساعدتها لي لما استطعت أن أقوم بكتابته وانجازه وتوثيق كثير من التواريخ في حياة نازك بدقة كبيرة أحياناً لحد ذكر اليوم في بعض الأحداث. وقد استقيت كل ذلك من مذكراتها التي وضعتها مشكورة بين يدي، هذا إضافة الى المعلومات الوافرة التي أمدتني بها.

وفي الختام أود أن أعرب عن امتناني لكل الذين قدموا لي يد العون في عملي هذا مهما كبرت أو صغرت، ابتداء من احسان الملائكة وزوجها علي الشعلان وابنها ملهم واخوتها سعاد ولبنى وسها وعصام الى أخوالها السادة منير الملائكة وأنور الملائكة والدكتور جميل الملائكة وخالتها نظيمة كبة، والى صديقتي القاصة ديزي الأمير وقريبتها وديعة محمد سعيد، والى الدكتور حسين محفوظ، والدكتور عبدالرضا علي الذي أرسل لي من الموصل نسخة من (لمحات من سيرة حياتي وثقافتي) والتي طبعتها نازك على الآلة الكاتبة وزودت بها بعض الدارسين لنتاجها بنسخة منها. اليهم جميعاً أتقدم بالشكر والتقدير على جهودهم.

وأرجو أن يكون هذا الكتاب قد أضاف شيئاً جديداً عن سيرة نازك يساعد المتبعين لشعرها وحياتها في دراستها وتقويمها.

ح. ش
بغداد ١٩ نيسان/أبريل ١٩٩٢

الطفولة

اتصفت نازك بهدوئها ووداعتها، ولم تكن تزعج والديها بالبكاء، وظل الهدوء صفة ملازمة لها عندما كبرت. لم تكن تميل الى الصخب والضجيج، وشعرت بدلال خصوصي في عائلتها، حتى بعد ولادة أخيها نزار أو أختها الصغرى سها، فقد ظلت لها مكانتها المتميزة في الأسرة.

رزق أبواها بابنة ثانية عام ١٩٢٥، فلم يرتح الأهل لمجيئها فكانوا يتمنون أن يرزق والدها بمولود ذكر تقرّ به عينه. غير أن أباها لم يعر اهتماماً لعدم ارتياحهم وسماها احسان ليعبر عن رضاه بهذه المنّة التي مَنّ الله بها عليه، مخالفاً جميع الأعراف السائدة بين الأقرباء والناس بخصوص ولادة الأنثى. وما ان مضى عامان حتى جاءت البنت الثالثة (ثالثة الأثافي) كما يقال في هذه الحال. وقوبل النبأ بحزن كبير وصل الى درجة أن بعض الأقارب من النساء أخذن يبكين وخشين أن يصاب أبواها بصدمة لدى سماع هذا الخبر. ووصل الأمر أن العمة حياة ـ عمة أم نازك ـ التي جاءت للعناية بأم نازك ومداراتها أعربت عن احتجاجها بأن قفلت راجعة من حيث أتت لدى سماعها بمجيء البنت الثالثة. أما صادق الملائكة فأعلن عن فرحته بها وسماها سعاد، لأنها بشرى بالسعادة ودللها وظلت أثيرة عنده حتى كانوا يسمونها محبوبة أبيها. وتذكر نازك في مذكراتها عن ولادة أختها الصغرى سها السخط الذي استقبلها به الأقارب، بينما كانت أسرتهم تتمنى أن يكون المولود أنثى، فقد كتبت نازك في حزيران ١٩٤١ تقول:

«... وكان يوماً مشرقاً جميلاً، على أن القوم كعادتهم لم يبشوا لقدومها الى الحياة وإنما عبسوا كأن قد صدق فيهم قوله تعالى: ﴿وإذا بشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى

في القوم من سوء ما بُشّر به أيمسكه على هون أم يدسّه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾. وكان أشد الجميع غضباً على الطفلة المولودة المرحومة جدتي. أما والداي ونحن فقد سررنا بالصغيرة الجديدة خاصة وأن ولادتها كانت قبيل عيد الأضحى فاحتفلنا بكليهما»[1].

وقبل ولادتها تقول نازك ان أباها جمع أفراد عائلته ونظم نشيداً يتلونه وسمى المولودة سها قبل أن يعرفوا أذكراً هي أم أنثى:

نازك بنتي نافعة	لأمها مطاوعة
ومثلها احسان	جمالها فتّان
وهكذا سعاد	يحبها الأولاد
وحبذا نِزار	يحمده الأبرار
وشبهه عصام	مبجل همام
أما لبيني الحلوة	فهي لنفسي سلوة
في سها الجمال	قد تم والكمال.

وجاء المولود الرابع ولداً في عام ١٩٢٩، فعمت البيت فرحة طاغية وسموه نزاراً، ورغم ابتهاج الأب بصغيراته، فقد حمل مجيء نزار سعادة كبرى له ولزوجه ولقي كثيراً من الدلال والرعاية المتميزة. وعندما ولد أخوه عصام عام ١٩٣١ لم يقابل بالبهجة نفسها من أبيه وكأن حاجة الأسرة الى ولد ذكر قد لُبيّت، فالأمر الآن سيان، أذَكَر جاء أم أنثى. كان عصام آخر طفل ولد في العاقولية ببغداد، فبعده انتقلت العائلة بأبنائها الخمسة الى الكرادة واستقلت ببيت لها وحدها في شارع أبي قلام.

نشأت نازك مع أخوالها في دار واحدة ولم تربطها بهم صلة الخؤولة بالدرجة الأولى، بل رابطة الصداقة واللعب المشترك والمطالعة، وذلك لأن فارق السن بينهم لا يزيد أو ينقص عن سنتين، فأعمارهم متقاربة وكذلك رغباتهم وميولهم ومشاعرهم. أما أقربهم اليها فهو خالها جميل وذلك لحبهما المتبادل للشعر والقوافي والأوزان ومحاولاتهما المبكرة لنظمه، ورغم أن الفرق بينهما عام واحد فقد كان الموجه والمرشد للأطفال في تنظيم التمثيليات والأغاني والألعاب التي يشتركون بها ويشغلون بها

(١) مذكرات نازك عن أختها الطفلة سها كتبتها عام ١٩٤١، وأطلعتني عليها سها مشكورة.

جزءاً من أوقات فراغهم الكثيرة ويستمتعون بها بنين وبنات، فيحفظون الأناشيد ويروون القصص والحكايات التي سمعوها مقلدين طريقة الكبار في ذلك.

كان الأطفال يبتكرون شتى وسائل التسلية، ويساعدهم فيها الكبار أحياناً، اعتادوا مثلاً أن يحتفلوا في يوم ١٦ تموز/يوليو بعيد الملائكة الذي ابتدعه أحدهم. وتسهم فيه نازك واختاها احسان وسعاد وأخوالهم أنور وجميل ومنير وأحمد. كانت الصغيرات يرتدين ملابس بيضاء اللون تشبه ثياب راقصات الباليه في شكلها وقصرها تخيط من قماش يسمونه (الكتوني) وتكون مكشكشة ومنشاة. وتشعر الصغيرات بفرحة غامرة وهن يمشين خفيفات الحركة في تلك الملابس، جميلات المنظر يسمعن كلمات الاطراء والاعجاب من أهلهن، ويقمن عادة بدور الغناء. أما الصبية فكانوا يظهرون قدراتهم في العزف على الآلات الموسيقية التي عندهم، فأنور وجميل يعزفان على الكمان ومنير على الفلوت. وتعد النساء الأطعمة الشهية من الحلويات البيتية كالكليجة وغيرها. ويغني الجميع ويدبكون على أصوات الموسيقى ويقومون ببعض التمثيليات أحياناً ويشرف جميل على هذا الاحتفال والتدريب. أما خالهم صاحب الملائكة الذي يحب الغناء والموسيقى والقريب بسنه من عمر أمهم فكان يسهم أحياناً في الاحتفال. كان أهل الدار وأحياناً الجيران يشكلون نظارة هذا الاحتفال ويشجعون الصغار بالتصفيق وهتافات الاعجاب والتعليقات والمصاحبة في الغناء في بعض المرات. وتكون البهجة مشتركة، فتتعالى الضحكات وتشرق الابتسامات على الوجوه، وتنشط الحركة والحديث ويتغير المجرى المعتاد للحياة خلال هذه السويعات الممتعة التي تبقى آثارها البهيجة في النفوس مدة بعد مرورها وعودة الحال الى إيقاعها اليومي الرتيب. ويحس الصغار لاشعورياً بأنهم يكبرون وينمون وانهم بدأوا يلفتون أنظار الغير فلهم نشاطاتهم وقابلياتهم التي أخذت تتفتح وتتكشف لهم وللآخرين فتختلج نفوسهم الغِرة مغتبطة يحدوها الأمل بأن تظهر المزيد من العمل والامكانات في الأيام الآتية.

ان حب الغناء والموسيقى طبع فُطِر عليه كثير من أفراد آل الملائكة، فعبد الصاحب لا يقل حبه للغناء والعزف عن ميله الجارف لنظم الشعر، وقد تعلم العزف على الكمان على يد يهودي كان يأتي الى البيت مرتين في الأسبوع لتدريبه وتعليمه. أما والدة نازك، فما إن تسمع كلمات أغنية من الأغاني حتى يأخذ رأسها وجسمها يتمايل على نحو عفوي شاعرة بالطرب والانسجام معها، وتحملها الألحان الى مشارف بعيدة وهي تتصاعد وتشرد وتتلاشى في الأثير مخلفة آثاراً منعشة فينسى الجسد تعبه وتحس الروح برعشة حلوة مثيرة تسري في جنباتها.

من علامات هذا الشغف بالألحان أن عيسى الجلبي ـ عم أبوي نازك ـ ابتاع فونوغرافاً قبيل الحرب العالمية الأولى أو بعدها، وكان أحد مسجلين اثنين وصلا الى العراق آنذاك. ويتكون الجهاز من اسطوانة شمعية يتم التسجيل عليها، غير انه عطل عن العمل بعد سنوات. وكان الأهل يروون أن صديقة الملاية ـ التي أصبحت فيما بعد مغنية مشهورة ـ سجلت بعض أغانيها عليه للجدة هداية وطلبت منها أن تحلف يميناً ألا يسمع صوتها أي رجل، فقد كانت تستحرم ذلك لأنها تقرأ التعزية في القرايات والمناسبات الدينية وتعتبر الغناء العلني حراماً.

كان الكبار يحرصون أن يشب أبناؤهم على حب الموسيقى والغناء، ومن مظاهر هذا الحرص أن أم نازك اقتنت آلة الكمان، ورغم أنها لا تعرف العزف، فقد كانت تمر بأصابعها على أوتارها قبيل أن ينام أطفالها فتصدر عنها بعض الأصوات الموسيقية المكررة، لكي تألف آذانهم الموسيقى وهم لم يكملوا السنة من عمرهم. فكانت الألحان والأغاني وسيلة التعليم الأولى في أعمارهم الغضة قبل أن تستطيع مداركهم أن تستوعب التهجي بالحروف والكلمات ومن ثمة رسمها على الورق. أما والدهم فقد اعتاد عندما يكون موجوداً في البيت أن يجمع أفراد عائلته كلهم في أماسي الصيف ويصعد معهم الى السطح وهو يهزج، ويغني نشيداً خفيفاً من نظمه وتردده في أثره زوجه وصغيراته وهن يتسلقن الدرج ويصعدونه وفق ترتيب يتدرج حسب تسلسل أعمارهم. ومن أمثال هذه الأهازيج:

يا أمنا يا غالية   يعطيك ربي العافية
أنت لنا معاذ   وملجأ مَلاَذُ

لم تكن الأجهزة الكهربائية كالراديو قد وصلت الى العراق فظلت الأغاني والموسيقى في الدار هي الوسيلة الوحيدة لسماعها والاستمتاع بها، وكان الناس يترنمون بها في أثناء أداء الأعمال المنزلية أو بعد الانتهاء.

اعتاد الأطفال أن يلعبوا مختلف الألعاب المعروفة يومئذ، (كالتوكي) الذي يلعبونه في أغلب الأحيان، ولعبة (ملك الموت)، حيث يقوم أكثر الأولاد شيطنة وشجاعة بدور ملك الموت، فكانوا يعصبون عينيه، فإذا أمسك بأحد الموجودين فانه يخطف روحه.على كرسي الاعتراف وسط الجميع وتعصب عيناه بقطعة قماش ثم توزع على جميع المشتركين في اللعب ورقة وقلم، ويترتب عليهم أن يكتبوا فيها صفة بارزة من الصفات التي يتميز بها الجالس على الكرسي كالطيبة أو المكر أو الغضب، فقد تكون جيدة أو سيئة. وعليه أن لا يسخط أو ينفعل مما يرونه في أخلاقه من مثالب، وبذلك يعبر الموجودون عن رأيهم فيه بصراحة ويقبل هو باحكامهم ويكتشف الخصال الصالحة فأو الطالحة فيه. فهذه اللعبة تنطوي على شيء من النقد الأخلاقي تجعل كل طفل يفكر في تصرفاته.

اما لعبة (شكري شكردان) فقد اقتبس اسم اللعبة من أحد السحرة الهنود الذين كانوا يصلون بغداد في تلك الأيام ويقومون بألعاب مختلفة، فيقلدهم الأطفال منجذبين بمعنى بعض الكلمات وايقاعها وطريقة إلقاء الهندي لها. تقوم هذه اللعبة على تكرار عبارة ذات ايقاع غريب على السمع وهي (شكري شكردان، فلفلي هندستان، مرّت عليك عفاريت الانس والجان). وتبدأ اللعبة بأن يقوم الأطفال بتدوير أيديهم وتحريك رؤوسهم وأرجلهم وهم يحاكون الساحر الهندي في رفع نبرات الصوت أو خفضها والتشديد على مخارج بعض الحروف لدى نطقها وهم يرددون (شكري شكردان، فلفلي هندستان...) ويذهب أحد الأولاد خارج الغرفة. وينتخب الباقون ثلاثة منهم يقومون بتغيير الحركة على التوالي وعلى الآخرين مراقبتهم من طرف خفي لتقليد الحركة التي يقوم بها كل من الثلاثة وبذلك يعطى اللاعب عند عودته للغرفة ثلاث

فرص لمعرفة من الذي غيّر الحركة، ولغرض انهاء دوره ففي الفرصة الثالثة تعلو وتنخفض الأصوات مع اقتراب وابتعاد اللاعب عن الشخص الثالث الذي غيّر الحركة. وإذا فشل في معرفته يخرج مرة أخرى ويجري مجدداً تغيير حركات اليد أو الرأس أو الرجل الى أن يحدس الطفل الذي يترك الغرفة الاسم ويعود الى مكانه ليحل محله شخص آخر. كانت هذه اللعبة مثيرة فيها رياضة للجسم وتخفيف من طاقته الفائضة لدى الصغار ورياضة للذهن تحملهم على التخمين والحدس وفيها مسرة لنفوسهم في الوقت نفسه.

كانت نازك تشارك أترابها في لعبهم ولهوهم، غير أنها تميزت عنهم بظهور علامات حساسية بالغة عندها منذ نعومة أظفارها. ان أبسط كلمة أو عمل لا ترتاح لهما تخدش مشاعرها. فإذا دار نقاش بين الأطفال ولم يؤخذ برأيها فيه يجعلها تنسحب بسرعة دون أن تفوه بكلمة وتتوتر وتكاد تبكي من شدة غيظها وتأثرها. وما كانت تقول شيئاً يروّح عنها، بل تلزم الصمت. فالصمت هو الاحتجاج القوي للتعبير عن معاناتها ومشاعرها المجروحة، ولم تكن تستطيع أن تأخذ الأمور ببساطة مثل بقية الصغار.

لم يقتصر هذا السلوك مع الأطفال وإنما كان يتجلى بصورة أقوى في موقفها مع أبويها وأخوتها، فعندئذ يتجاوز مجال الصمت وتنخرط في بكاء حار. فإذا أرادت شيئاً فلا محيد من تنفيذ رغبتها، وإلا أحست بيد خفية تعصر روحها وتوجعها. لم تكن تسأل عن سبب الرفض، فليس من عادتها أن تناقش وتستوضح في مثل هذه الحال، بل تلوذ بالصمت أو تضرب عن تناول الطعام أو تبكي ويصل بها الأمر أحياناً أن تصعد الى السطح وتظل جالسة في الشمس الحارقة ما ينيف على أربع ساعات وكأنها تقتص من نفسها لمشاعرها المهملة التي لم يكترث لها أهلها. وكان أبواها لا يعرفان سبب ألمها لأنهما لم ينتبها الى شيء صدر عنهما يثيرها بهذه الصورة. فذات مرة انزعجت انزعاجاً شديداً من تصرف أحدهم، فصعدت الى السطح وبقيت ثماني ساعات بلا أكل أو شرب وهي تبكي حتى خارت قواها وخف والداها وأخوتها لمواساتها

وتهدئتها دون جدوى. ان هذه الحساسية البالغة التي اتسمت بها جعلت أسرتها تعاملها معاملة خصوصية خشية أن تنفعل وتتألم وتصدر عنها ردود فعل قوية.

يعبر بكاؤها أحياناً عن خوفها وألمها من حادث يروعها، صادف ذات مرة في صيف ١٩٣٠ أن خالها جميل كان واقفاً قرب المكواة - كانت تسخن آنئذ بالفحم الذي يوقد فيها حتى يصير جمراً - وإذا بالنار تلتهم جزءاً من دشداشته (ثوبه الطويل) ولم يفلح أهله في إطفائها إلا بعد أن أصيب بحروق ألزمته الفراش مدة طويلة. راعها هول المنظر وعذّب روحها رؤيته وهو يتألم من الحروق ولم يعرف الهدوء الى نفسها سبيلاً حتى بعد اطفاء النار، فانخرطت في بكاء حار طويل كان فيه بلسم لعواطفها المهتاجة المتأججة من هذا الحادث الرهيب.

ووقع لها يوماً حادث أفزعها وهي لم تتجاوز السادسة من عمرها. كانت تقرأ وتكتب مع جميل وهما جالسان على الطاولة التي ترتفع حوالى مترين عن صحن الدار. ولم يعجبها ما كتباه، فقالت لجميل سأرمي الورقة. وما إن ألقت الورقة من يدها حتى اندفع جسمها معها وسقطت في الخرابة[٢]. ولم تدرك للحظة ما الذي حدث لها عندما وجدت نفسها جالسة على أرض الخرابة ونظرت الى جميل في الأعلى نظرة حيرة واندهاش ثم اندفعت تبكي. ومما زاد من فزعها أن الأوز العراقي الكبير الحجم كان يربى في هذه الخرابة واعتاد الأطفال أن يرموا له فتات الخبز وبقايا الطعام، فأخذ يهاجمها وينقرها وهي تصرخ وتصيح متوجعة خائفة ومستغيثة الى أن خف أحدهم لتخليصها وأخذها من الخرابة. وتسبب لها الأوز في بعض الجروح، وظلت هذه الحادثة راسخة في ذهنها ولم يستطع حتى أهلها أن ينسوها أيضاً

اقترنت رهافة حسها بمتطلبات أخلاقية مثالية كانت متأصلة فيها كجزء لا يتجزأ من كيانها. فهي تكره الكذب والنفاق والتعدي على

(٢) الجناح الغربي القديم من الدار وكان قد انهدم سنة ١٩١٢ - ١٩١٣ ثم سويت أرضه وجعلت ساحة يلعب بها الأطفال ثم حديقة في أواسط الثلاثينات إلا أن اسمه بقي (الخرابة).

حقوق الغير أو إلحاق الأذى بهم. ولم تقتصر هذه القيم على من تتعامل معهم من الناس، بل كانت تتجاوزهم الى الحيوانات، تلك المخلوقات الضعيفة أمام أذى الانسان وتعدياته. كان الألم يحز في روحها عندما ترى الأطفال وهم يضربون القطط أو يلهون بها ويؤذونها، فتعترض عليهم وتطلب منهم أن يكونوا رحيمين بها. ولم تتوقف عند الكلام في احتجاجاتها تلك، بل قامت بكتابة عبارات شتى على لوحات علقتها على الجدران مثل «الكذب حرام» و«قتل النمل حرام». وهي الى شفقتها على الحيوانات كان بعضها يخيفها لدرجة الفزع. فإذا رأت عنكبوتاً على الحائط فإنها تأخذ بالصياح والصراخ، أما إذا كان قريباً منها فيجن جنونها منه. وكان أبو بريص يبعث في نفسها الاشمئزاز والنفور.

ان قوى الطبيعة الغامضة كانت تبعث في نفسها الخوف إذا وجدت نفسها بمعزل عن الآخرين. فحين يقصف الرعد ويضيء البرق ويصحبهما هطول المطر والعتمة، فإنها تخف مسرعة لتجلس على مقربة من أفراد البيت. وظل هذا الخوف ملازماً لها في مراحل حياتها التي أعقبت الطفولة. وربما تعود هذه المخاوف الى حكايات مفزعة سمعتها أو ربما تكون نابعة من خفايا البيت الكبير ودهاليزه وترى في عوامل الطبيعة المبهمة صلة تصلها به.

لم تكن نازك تقضي وقتها دائماً في اللعب مع الصغار، بل تفضل أحياناً الانفراد مع لعبها وقضاء وقت طويل مع الدمى (اللعابات) وكاروكها الصغير وأدواتها الأخرى. فكانت تخلع ثوب الدمية تارة وتلبسها إياه ثانية وتنيمها طوراً وهي تدندن لها بعض الأغاني. وحين تنتهي من اللعب، لا تتركها في مكانها، وإنما ترتبها وتعيدها الى المكان الذي اعتادت أن تضعها فيه. فحب النظام والترتيب ظهر عندها منذ طفولتها.

لم تعد نازك تقضي كل وقتها في البيت عندما بلغت الخامسة من عمرها، فقد افتتحت عام ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ الروضة المركزية وهي الأولى من نوعها في العراق، وكانت تابعة لمدرسة للاناث افتتحت تواً للدراسة

الابتدائية وتوسعت فيما بعد لتشمل المرحلتين المتوسطة والثانوية. ومازالت بنايتها قائمة حتى اليوم وتطل على شارع الخلفاء سابقاً (الجمهورية حالياً) وفوقها قطعة «الثانوية المركزية للبنات». كان الوصول اليها حين افتتاحها يتم عبر أزقة طويلة ملتوية ومتفرعة ذات انعطافات. ذهبت اليها نازك مع خالها منير وهما من عمر واحد، والروضة مختلطة تضم كلا الجنسين ولو ان الصغيرات يشكلن الأكثرية فيها. ولم يكن الصغيران يذهبان بمفردهما وانما بصحبة نظيمة خالة نازك أو مع عمتيها عائشة وبتول اللواتي كن يدرسن في المدرسة الابتدائية. فهكذا خرجت لأول مرة في حياتها كل صباح على نحو منتظم من البيت الى جو جديد عليها، وتعرفت على أطفال ومدرسات وقواعد في السلوك لم تعهدها من قبل وخطت خطوتها الأولى في التعليم المدرسي.

بدأ حب الشعر يتسلل الى نفسها في هذه الأثناء، فأذنها تطرب وتنتشي وهي تسمع والديها يتلوان الأبيات أو يترنمان بها. ظل المعنى مستغلقاً على فهمها، ولكن ايقاع الكلمات وموسيقى الوزن كانا يستخفان روحها. وشكلت تلك التلاوة للأبيات أو لجزء من القصائد التماسّ الأول مع مملكة الشعر السحرية المجهولة الأسرار التي تتردد أصداءُ منها في أرجاء دارهم، وتتذكر نازك فيما بعد فتقول:

> «وطالما سمعت أمي في طفولتي تغني وهي تؤدي أعمال المنزل بشعر جميل بثينة وكثير عزة وقيس بن الملوّح والشريف الرضي وأبي فراس الحمداني وابن الفارض والبهاء زهير وسواهم. وكنت أرى أبي وأمي ينصرفان الى القراءة كل مساء بينما ننصرف أنا وأختاي احسان وسعاد الى اللعب قريباً منهما»[٣].

لت المناسبات الدينية وإقامة شعائرها مكانتها المهمة في الدار، فهي من الأحداث التي يُحتفل بها كل سنة. كان على الأطفال عندئذ أن يلزموا السكينة والهدوء ويتوقفوا عن اللعب ويخضعوا كلياً لإرشادات الكبار. وكانوا يقومون ساعتئذ بمراقبة هذا الحشد الضخم من النساء المتلفعات بالعباءات السود اللواتي لا يمكن تمييز إحداهن عن الأخرى إذا لم ينظروا

(٣) أم نزار الملائكة ـ ديوان أنشودة المجد. بغداد. ص ٧.

الى وجوههن. اعتاد أهل الدار اقامة شعائر (عشرة عاشوراء) أي مقتل الحسين التي تحضرها مختلف نساء المحلة من غنية وفقيرة، غير أن أماكن جلوسهن تختلف حسب مقامهن الاجتماعي. فكبيرات القوم يجلسن على أفرشة الايوان الكبير المشرف على باحة الدار والأرسي الكبير في الطابق الأول، أو في باحة الدار التي توضع فيها (التحتات وعليها المنادر) وتتخذ الأخريات أماكنهن على الحصران والتخوت القائمة عند الجدران التي تقف عليها النساء عندما يشتد الازدحام ويجلسن القرفصاء في الطوابق العليا. ورغم عدم وجود الرجال في الدار في مثل هذه المناسبات (القرايات) فإن النساء لا يخلعن العباءات حتى إذا كان الجو حاراً والعرق يسيل من وجوههن وأبدانهن، لأنها تشكل جزءاً من المراسم التي يتبعنها في أثناء سماع كلام الملاية وهي تقرأ بصورة مؤثرة مثيرة للعواطف، فيتعالى أحياناً الصراخ والبكاء منفعلات من هول الأحداث التي يسمعنها ويلففن عندئذ حتى وجوههن بالعباءات، وتتحول كل امرأة الى كوفة سوداء فاحمة مهتزة تسري فيها الحركة وتشبه واحدتهن الأخرى وهن يزدحمن بعضهن الى جانب بعض. وكان هذا الحشد الكبير الأسود موضع إثارة للأطفال، ينظرون اليه ويسمعون صراخه ويقومون أحياناً بإحصاء عدده لقضاء الوقت. وذات مرة عملوا مثل هذا الاحصاء فوصل العدد الى ثلثمائة امرأة! اعتادت أن تحضر هذه (القرايات) العوائل المعروفة في بغداد القديمة وهم جيران أهل الدار مثل بيت الربيعي والألوسي وسامي سليمان وبيت بابان والشيخ داود ومهدي باشا وغيرهم. تقيم السيدة مريم الجلبي ـ عمة والدة نازك ـ هذا المأتم فتشرف على هذا الجمع، وتقوم (الملاية) بقراءة التأبينة الحسينية وتروي قصة أحداث كربلاء بصوت هادىء عميق واثق مؤثر فيفعل فعله القوي في النساء المصغيات اليها، ويصيخ السمع الى كلامها حتى الأطفال، خوفاً منها أو استمتاعاً بحديثها أو كليهما معاً. فقد كانت السيدة مريم قوية الشخصية وقورة ومجللة بالسواد دائماً من الفوطة التي يعتمر بها رأسها الى ثيابها الطويلة مما يضفي عليها جلالة ومهابة رغم أنها ضعيفة البنية متوسطة الطول. وكانت أرملة لم تعقب تخط التجاعيد جبهتها.

تركت العمة مريم أثراً لا يمحى في نفس نازك، فكأنها جزء من الجو

المبهم والقوة اللذين يلفان البيت، وتقول عنها في مقدمتها لرباعيات الخيام:

«وفي ذات مساء خرج أخوتنا، ولم يبق من الأطفال إلا أنا وجميل، وقد جلست على مقربة منا في الديوان الكبير عمة عجوز غامضة تلبس السواد، ويحيط بها جو من الحكمة والصبر يزيد وقعه في النفس، انها تقضي أوقات فراغها جميعاً تغزل وتغزل»[٤].

والى جانب غزل الصوف تقوم العمة مريم بالخياطة في أوقات فراغها، فيتناهى صوت ماكنة الخياطة المنتظم الرتيب وهو يغرز قطع القماش في درزات صغيرة متينة بعضها الى جانب بعض. وكانت ماهرة في الطبخ أيضاً وخصوصاً في نشر عجينة البورك على صورة رقيقة للغاية مما لا يضاهيها فيه أحد من نساء البيت، ولها جناحها المنفرد المكوّن من غرفتين ومطبخ صغير. كانت صارمة في فرض النظام مما جعل الأطفال يخافون اللعب قرب جناحها أو دخول غرفتها دون إذن أو طلب منها. واعتادت أن تعقد مجلساً نسوياً يوم كل أحد يُطلق عليه اسم (القبول) تحضره نساء المنطقة المعروفات وتستقبلهن صيفاً في الايوان الكبير المجاور للسرداب، وتعقده شتاء في غرفتها التي تتميز عن بقية حجرات الدار ببساطة زخارفها ونقوشها، فهي مصبوغة باللون الأبيض وخطت عليها بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية باللون الأزرق. وكان الكبار يمتثلون لارادتها أيضاً. فقد اعتادت أن تربي ولداً من أولاد أخوتها حتى يبلغ رشده، فإذا وقع اختيارها على طفل من أطفالهم فلا يرفض أحد لها طلباً.

في الأماسي كان الأطفال يستمتعون بلعبة هادئة جميلة وهي إطلاق الطيارات الورقية فوق فضاء السطوح. لم تكن البنات يشاركن في اللعب وإنما يبتهجن بمراقبة عمل الطيارات والنظر اليها وهي تسبح برشاقة وخفة في الأعالي، حيث تهتز شراشيبها المتدلية ويتمايل جسمها مع هبوب النسيم وتشكل مع الطائرات المحلقة من سطوح الجيران سرباً متهادياً تحت قبة السماء الزرقاء الساكنة. كان الصغار المنتشرون فوق السطوح

(٤) الدكتور جميل الملائكة - **رباعيات الخيام**. صفحة ج - د.

يتبارون ضمنياً فيما بينهم دون إعلان عن هذه المنافسة، فيتفننون في انتقاء ألوان الطائرات وزيادة حجمها والاهتمام بجمال صنعها ويظهرون مهارتهم حتى في صناعة خيوطها. يقوم أنور وجميل ومنير - وأحياناً ينضم اليهم أولاد آخرون - بجمع قطع الزجاج المكسور ويدقونها حتى تصير صغيرة ناعمة ويخلطونها بمادة الشريس - نوع من الصمغ - ويضيفون الى المخلوط شيئاً من الماء يصنعون منه عجينة يغطون بها الخيوط التي يطيرون بها الطيارات الورقية لها قابلية قطع الخيوط القطنية التي تستعمل عادة في الطيارات الأخرى، ويعملون بها بكرة كبيرة يلفون حولها هذا الخيط يسمونها (السربس). وعندما تهوي طيارة قُطعت بهذا الخيط فوق سطح من السطوح لم يكن أحد يزعل أو يستاء، فكأن الأمر يقع ضمن قواعد اللعبة المتعارف عليها. كانت الظلمة الخفيفة والهواء الذي أخذت تدب فيه البرودة وخيمة السماء اللامتناهية وقمرها الفضي الراقد في أعماقها البعيدة ونجومها المنتشرة بلا ترتيب على مسافات متفاوتة تشكل منظراً جليلاً فوقها يثير التأمل والخشية والجمال في نفوس الذين يتطلعون اليها من سطوح منازلهم، ويخرجهم من مجال الأبنية المحتشدة والأزقة المتعرجة الى فضاء الدنيا الرحب اللامتناهي.

يلهو الصغار أحياناً بتقليد الكبار، فيجلسون في الطارمة أو الحديقة ويعملون مأدبة طعام ويدعون بعضهم بعضاً لتناول المأكولات، أو يأخذون في قص الحكايات التي سمعوها من كبيرات البيت أو الخادمات ويروونها مستمتعين عفوياً بقدراتهم الروائية التي تتكشف لهم خلال سرد الحكاية وأحداث القصص. وكانت نازك تروي قصصاً خيالية عن الساحرات والأشباح والجن وكذلك حكايات مرعبة.

فرضت طبيعة الحياة وكثرة الأفراد، وجود حركة لا تكاد تخف أو تنقطع في البيت إلا في فترات قليلة. ففي الصباح يُؤتى بالخبز من باب الأغا المشهور بجودته وقلة كلفته والذي صار مضرب مثل يجري على ألسنة الناس، فيقولون مثل خبز باب الأغا (حار ومكسب وكبير ورخيص)، وقد اشتهرت السلع التي تباع في تلك المنطقة عموماً بجودتها، لأن العاقولية تقع ضمن مركز السلطة والحكم في البلاد.

فقديماً قام هنا بيت الوالي، وعند قيام الحكم الوطني صار سراي الحكومة والدوائر التابعة له لا تبعد عنها إلا قليلاً، وكان كثير من الأسر ذات النفوذ والثراء يسكنون الى جوارهم أو غير بعيد عنهم مثل آل الدفتري والداغستاني والألوسي والربيعي والجميل وغيرهم. كل هذا جعل تجمع الدكاكين المشهورة بسلعها مثل كعك السيد ـ الذي مازال محله قائماً حتى يومنا هذا ـ وفاكهة وخضار (بيت كنّو) ولحم المهداوي (والد فاضل عباس المهداوي).

أما شراء الأقمشة النسائية فيجري عادة في البيت، حيث اعتادت أن تتردد عليه امرأة تحمل أطوال الأقمشة المتعددة الأصناف من (كريستن) و(سلك الشام) و(الحرير الطبيعي) و(روح الحياة) و(الجلسة) و(التفتة) و(الجرجيت) إضافة الى الأقمشة الرخيصة ذات الاستعمال اليومي. كانت المرأة تطرق الباب وعندما يسألون من الطارق؟ تجيب (أنا بنت السبت) وتعني اليهودية. أما الرجال فيشترون ملابسهم عادة من محلات الأقمشة في السوق المقابل للشورجة أو يختارونها مباشرة من الخياط.

كانت نساء الدار ينغمرن أيضاً في الأعمال المنزلية من ترتيب الغرف والطبخ والخياطة والتطريز، وتساعدهن الخادمات في انجاز أشغال البيت كالتنظيف وجلب الماء والغسيل، وقد وجدت خادمات من بقايا عهد الرق كالخادمة جميلة وأخرى اسمها داية حنف التي ظلت تعمل عند الأسرة حتى وفاتها. وكانت حلوة المعشر خفيفة الظل واعتادت أن تتسامر مع الجميع كواحدة من أفراد الأسرة، وكان أهل البيت يحسنون معاملتها ويحبونها ولاسيما الصغار الذين انطبعت صورتها في أذهانهم. أما الخادمة (الكصيرة) فكانت تعاون أم نازك في أعمالها. لم تكن الخادمات كلهن عراقيات، بل قدمن من البلدان المجاورة، وفي أوقات فراغهن يأخذن بقص الحكايات المتنوعة للأطفال المستقاة من قصص أوطانهن مما يغني خيال الصغار ويطلعهم على ألوان جديدة من الأحداث لم يعهدوها من قبل.

ان الخروج من البيت لا يكون إلا مع أفراد الأسرة حيث يقومون بزيارات عائلية الى الأقارب والجيران والأصدقاء. أما الأعياد فكانت

مناسبة بهيجة للأطفال ينتظرونها طيلة السنة. ففي الليل يسهرون مع النساء اللواتي يعملن الحلويات والكليجة وعندما ينامون يحلمون بالثياب الجديدة التي يرتدونها صباحاً ويغادرون البيت ليمتعوا أنفسهم بأفراح العيد من مراجيح وعربات ونقود ومآكل لذيذة. ففي الصباح يهنئون أهل الدار بالعيد ويأخذون (العيدية) من أبيهم فقط ثم يخرجون ويقومون بالتجمع في بيت عمة صادق المتزوجة من آل السوز ويقع هذا البيت مقابل المتحف العراقي قرب الجسر العتيق (الشهداء حالياً) ومنه يتوجهون الى خان الأسرة قرب باب المعظم، فيلقون التحية على النخلات الست القائمة فيه ويهنئونها بالعيد. ثم يذهب الجمع برمته الى حديقة باب المعظم (موقع بناية قاعة الشعب وجزء من وزارة الدفاع حالياً)، يرافقهم خادم الخان. تحتوي الحديقة على شتى وسائل التسلية من مراجيح ودواليب الهواء ومتوازنات، ويبيعون فيها بطاقات يانصيب، وينادي باعة الحلوى والدوندرمة والشربت والفرارات على مبيعاتهم بأصوات تثير السمع والشهية وتستحث رغبات الأطفال لتناولها وإعطاء ما في أيديهم من نقود. يتنزه الصغار ويملأون أبصارهم من الأشكال المتنوعة ذات الألوان الزاهية أو الهادئة لملابس الأطفال الجديدة التي تشف عن شخوصهم النشوى بأفراح العيد وجماله وضجيجه وألعابه والفرح بأنفسهم ذاتها التي يرونها غير ما هي عليه كل يوم، فيعبون ملء أنظارهم من كل ما يحيط بهم ويعودون الى البيت وقد أترعت المسرات قلوبهم. لا يكون البيت على حاله السابقة، فهو لا يضم أهليه وحدهم وانما يتجمع فيه الأقرباء الذين أتوا من محلات من بغداد ومن الكاظمية أو غيرها ويحل البعض ضيوفاً عليهم لمدة يوم أو يومين، ويزدحم الدار بحركة حلوة غير مألوفة وتدور أحاديث جديدة وتشرق الوجوه بالضحك والسرور وتُقدم أصناف لذيذة متنوعة من الطعام ويتلاشى إيقاع الحياة الرتيب وسط هذه المباهج.

بين ملاعب الطفولة هذه بدأ تعرّف نازك في سنوات حياتها المبكرة على المجلات والشعر والقصص. أحبت المطالعة ووجدت فيها بهجة ممتعة لفكرها وروحها، فأقبلت على قراءة القصص مثل قصة طرزان التي كانت

تظهر على صورة مسلسلة في كل عدد من أعداد احدى المجلات، فشغفت بها وألهبت خيالها، وأخذت تحفظ الشعر هي وجميل حتى إذا بلغا نضجهما كانا قد حفظا عشرات الآلاف من الأبيات التي صارت ذخيرة غنية لهما ترفد موهبتهما الشعرية بالعطاء. وكان لدى أبيها مكتبة ضخمة فيها أمّات الكتب العربية والمجلات المصرية مرتبة بنظام بعضها الى جانب بعض، وكانت تنظر اليها بمهابة وشوق وتتمنى أن تكبر بسرعة حتى يأتي اليوم الذي تستطيع فيه أن تقرأها وتفهم ما في بطونها من معارف وتزداد علماً وثقة بما تهبه للمرء من زاد فكري، ولم يكن ذلك اليوم ببعيد.

في عام ١٩٢٨ اشترى صادق الملائكة مع أخيه علي وبعض جيرانه كشوكت الرسام، اشتروا أرضاً تقع في بستان يملكه آل العطار، وكان مرهوناً لدى شخص يدعى حجي غني أبو قلام. تم ابتياع الأرض من أسرة العطار، وظل المالكون الجدد يُطلقون عليه (أبو قلام) وحمل الشارع فيما بعد هذا الاسم. في ١٩٣٠ تم تشييد دار عليها وانتقلت أسرة صادق الملائكة بأفرادها السبعة اليه ودشن انتقالهم صفحة جديدة في حياة الأسرة.

الأهل

الملائكة... يا لها من كلمة تثير خيالنا وتحملنا على أجنحتها وتطير بنا في عالم رائق يغلفه غموض جميل نتوق لكشفه واستجلائه، وما أكثر الدلالات التي تحتشد في حروفها من صفاء وطهارة وسكينة ومعان دينية تملأ أذهاننا منذ الطفولة عن الملائكة التي تحمينا وتراقب أعمالنا وترانا ولا نراها. ومع تباين الرموز التي تنبعث منها، يظل الجمال هو الجامع الذي يشدها جميعاً، وهي الى ذلك توحي بأضدادها من الشياطين مما يزيدها روعة وهي تقف الى جانبها كنقيض لها.

ولا بد لنا أن نتمهل هنيهة، بل نتوقف ونتحرى من أين جاء لقب الملائكة هذا؛ وما النسب القريب والبعيد الذي ينتمي اليه ويتفرع منه؟ أهو مقطوع الجذور واستوى فجأة من العدم ووسع لنفسه مكاناً في شجرة الأنساب؟ أم يمتلك شجرته المعمرة؟

اللقب لا يخلو من عنصر الفجاءة، غير أن امتداداته تضرب عميقاً في أغوار التاريخ. ولو تتبعنا أصولها ومضينا على آثارها المدونة لانتهى بنا المطاف الى النعمان بن المنذر بن ماء السماء من ملوك المناذرة اللخميين في الحيرة، فهو الجد الأقدم لأسرة الملائكة واليه تنتمي شجرتها. وللنعان ابن المنذر مكانته التاريخية المميزة في ذاكرتنا كملك عربي أبيّ وذكي عمل على جمع كلمة القبائل العربية وتوحيدها، وتتملكنا الفرحة والدهشة عندما نكتشف أن ذريته ما زالت تحيا بين ظهرانينا حتى عصرنا هذا.

وإذا رجعنا أدراجنا من النقطة التي انتهينا اليها وتحرينا في طريق العودة الانعطافات التي طرأت على أنساب العائلة يطالعنا اسم الحاج كاظم

اللخمي المنذري القحطاني المتوفى حوالى عام ١٥٥٠م الذي جاء الى مدينة الكاظمية واستقر فيها واختار لسكناه محلة أطلق عليها اسم القحطانية وما زالت قائمة في الكاظمية حتى اليوم وتعرف بالقطانة، وكان أسلافه قد هاجروا من الحيرة الى الكاظمية عام ١٣٠٠م، وظل أحفاده يحملون لقب اللخمي حتى ١٧٦٠م، ففي هذا العام صدر فرمان سلطاني مُنحت فيه العائلة لقب الجلبي. كان الحاج عبدالهادي درويش الجلبي صاحب بعض الأوقاف الذرية في الكاظمية، أول من تلقب به واستمر أخلافه يتوارثون لقب الجلبي حتى مطلع القرن العشرين عندما تخلى بعضهم عنه وحملوا لقب الملائكة. فكيف حدث ذلك؟

عُرف آل الجلبي في العاقولية بتقواهم وحُسن جيرتهم، كان الآباء لا يسمحون لأولادهم الصغار أن يلعبوا في الشارع أو يصدر عنهم تصرف سيء أو تطاول أو كلام منكر أو كذب، وكانوا حتى فترة متأخرة لا يخرجون من البيت إلا للذهاب الى الدرس، أو لزيارة الأقرباء بصحبة ذويهم. وعندما شبوا عن الطوق ظلت القواعد الأخلاقية الحازمة ملزمة للجميع ومن يخرج عليها يتعرض للحساب، بل للعقاب أيضاً. حدث ذات مرة أن ذهب صادق الملائكة (والد نازك) الى حفلة عرس بدلاً عن أبيه باعتباره الابن الأكبر له، وتأخر حتى الساعة الثامنة مساء تقريباً. وعندما رجع الى البيت لم يسمح له أبوه (جعفر الجلبي) بالدخول لأنه جاء بعده، ولم يحافظ على النظام المتبع في أن يكون الجميع موجودين في البيت قبل مجيء رب الأسرة، وتوسط له أعمامه ليسامحه على شططه، وفي الصباح كان خجلاً ووجلاً من رؤية أبيه لأنه اقترف مثل هذا الذنب. كانت التربية المتشددة الصارمة تسري على جميع أفراد البيت رجالاً ونساء وعليهم أن لا يحيدوا عنها. ونتج عن ذلك ظهور نوع من السلوك يختلف عما هو مألوف في الدور المجاورة لهم. زد على ذلك أن الروح الدينية كانت قوية التغلغل في نفوس أبنائه مما كان له أثره في تصرفاتهم ومعاملتهم للناس بالحسنى والتقوى. كان اجتماع هذه الصفات كلها فيهم موضع تعجب الناس، فأطلق عليهم جارهم الشاعر

عبدالباقي العُمري تسمية بيت الملائكة في أوائل القرن التاسع عشر وشاعت بين الناس فأخذ جيرانهم يسمونهم بها أيضاً.

أحب هذه التسمية بعض رجال العائلة ممن يعنون بالأدب والشعر وينظمونه ووجدوها رومانتيكية وشاعرية، ناهيك عن السلوك القويم النموذجي الذي تشير اليه، فإذا بهم يتخلون عن لقب الجلبي رغم ما يحمل هذا اللقب من إمارات الوجاهة والنفوذ والثراء في المجتمع، وأخذوا يتلقبون بالملائكة، وحدث هذا بعد مرور ما يقارب مائة عام على تسميتهم بالملائكة. وكان والد نازك أول من تلقب به وترك الجلبي، وحذا حذوه أخوته وأبناء اثنين من أعمامه، هما عبدالرزاق الجلبي وعيسى الجلبي، فكانوا الجيل الأول الذي حمل لقب الملائكة وتوارثه الأبناء من بعدهم.

* * *

لم تكن أسرة الجلبي عريقة النسب والجاه فحسب، وإنما كانت عريقة في العلم والأدب. فرجالها يعتزون بالكتب ويقتنونها حتى تكونت لديهم مكتبة فخمة في العلوم الدينية والشروح والتفاسير الفقهية والشعر العربي والمخطوطات النادرة، وكتب طبية وروحانية، ولديهم نسخ مذهّبة من القرآن الكريم مطبوعة ومخطوطة وأدعية، كانت كنز الأسرة وفخرها العلمي. ولكن الحرب العالمية الأولى عصفت بأقدار الأسرة وعرّضتها الى خسارة مادية كبيرة مما أدى الى فقدان هذه المكتبة الثمينة. لاشك أن إسراف جد نازك الملائكة الحاج جعفر الجلبي كان العامل المباشر الذي قاد الأسرة الى الافلاس واضطر هو الى الهرب خارج العراق لبضع سنوات حتى تستقر الأمور. ولم يدر اخوته كيف يخرجون من هذه الأزمة المادية التي وجدوا أنفسهم فيها، فما كان من أخيه عبدالهادي الجلبي إلا أن أقدم على بيع نفائس هذه المكتبة بمائتي ليرة ذهبية ليوفي بعض الديون التي بذمة العائلة، ولاريب أن هذا المبلغ يعد باهظاً بالنسبة لتلك الفترة. وهكذا تشتتت كتبها في أماكن متفرقة وقد وُجد بعض منها في مكتبة متحف الفاتيكان وعليه اسم العائلة، وربما وصلت اليها عن طريق العالم الأب انستاس الكرملي الذي ابتاع جزءاً منها. أحست العائلة

بالألم على هذه الخسارة الجسيمة التي لا تضارعها الخسارة المادية رغم فداحتها، وانتقل هذا الشعور بالمرارة الى الأبناء، الذين مازالوا ينقلون خبرها الى الأهل والأصدقاء والمعارف، خبر الكنوز التي ضاعت أو ظل مكانها مجهولاً.

فمن هم الأسلاف القريبون من الشعراء والعلماء ممن يجلون الكتاب ويعتزون به؟ لنبدأ من جهة النساء، ان جد والدة نازك هو الشاعر والعالم الديني محمد حسن كبه (١٨٥٢ - ١٩١٧). كان قد أخذ مهنة التجارة عن أبيه ثم أوكل شؤونها الى أخيه وانصرف للفقه والأدب والشعر. ذهب الى سامراء ودرس العلوم الدينية على أيدي علمائها الكبار كالشيرازي. وكان أبوه الحاج محمد صالح كبه من أخيار الناس يبني خانات كثيرة تقع بين مدن العراق، ليرتاح فيها المسافرون والزوار من عناء الطريق بين بغداد وكربلاء، وبغداد والحلة، وكربلاء والنجف، وبغداد وسامراء، وكان محباً للعلم ودرس علوم اللغة العربية وخصص مبالغ للعلماء والشعراء يتسلمونها منه شهرياً. بعدما ذهب محمد حسن كبه الى حج بيت الله نظم ألف بيت من الشعر من قصيدة اشتهرت بالرحلة المكية، هذه الرحلة التي كانت تستغرق ستة أشهر، إذ كانوا يسافرون على الجمال، ويطول السفر والغياب عن الوطن. وقد ضم كتاب «العقد المفصّل» الجزء الأكبر من أشعاره ومساجلاته ونبذة عن حياته جاء فيها:

> «نشأ ببغداد ربيب نعمة غضة مشتغلاً بالتجارة ودرس العلوم العربية وكتب الأدب مدفوعاً لها بمحركين قويين رقة الطبع وشدة ذكائه وحب أبيه اكتساب العلم والأدب حتى برع في قرض الشعر وأتقن العلوم العربية ولم يعدم حظاً يومئذ من العلوم الدينية والعقلية»[1].

واشتغل بالتدريس والتصنيف بعد أن «أجازه في الفتوى ورواية الحديث أكثر مشايخه وعلماء عصره»[2]، وتبلغ كتبه حوالى ستين مؤلفاً لم يطبع منها شيء.

---

(١) السيد حيدر الحسيني الحلّي. **العقد المفصّل في جزأين**. ١٣٣١هـ. ص (ي).
(٢) المصدر نفسه. ص (ي - ج).

اشتهر مجلسه الأدبي - منتدى آل كبه - بمساجلاته الشعرية وبحديث الشعر والأدب. وكان من رواد هذا المجلس الشاعر المعروف محمد سعيد الحبوبي. وقد ورد ذكره في ديوان الحبوبي:

«وحين يصل بغداد - أي الحبوبي (ملاحظتي) - ويعلم صديقه (محمد حسن كبّه) بذلك يسرع للقائه وينزل في قصره شرقي بغداد على نهر دجلة. وكان (القصر) منتدى (آل كبه) الذي يرتاده الكثير من رجال الدين والأدب والأعمال من بغداد وخارجها لما لهذه الأسرة من مكانة دينية واقتصادية واجتماعية»[٣].

وكانت المساجلات الشعرية تدور بين الحاضرين حول مواضيع شتى يظهر فيها حبهم لنظم الشعر والتفنن في استحداث الموضوعات وصياغتها. ففي مجلس ضم محمد حسن كبّه والحبوبي وجعفر الشرقي وقع اختيارهم على موضوع المفاضلة بين (السلافة) والقهوة العربية، فذم الحبوبي (السلافة) ومدحها محمد حسن كبه لغرض المقابلة. وهذه نماذج منها:

فدع عني السلافة ليس شيء   أعلّ لغلتي من شرب (قهوة)

فعارضه (محمد حسن كبّه) قائلاً:

فوا عجباً لمثلك أريحيّاً   يشف لطافة، ويرق صبوه
يبيع سلاف ريقتها المصفى   بآجن مُرّة تدعى بقهوة
على أن السلاف وإن عداها   فمي كرهاً لتعطي الروح نشوة

ويرتجل الشرقي أبياتاً يكون الحكم فيها بينهما، يجمع بين حلاوة المذاقين ويرضي الطرفين:

فإن تكن السلافة فهي روح   وجدت لروحها فرحاً ونشوة
وان تك قهوة بالمسك فاحت   فمن يده ــ وان مرّت ــ حلوة
وما ذهب السواد لها بشيء   فإن الخال زاد الخد حظوة[٤]

---

(٣) ديوان محمد سعيد الحبوبي. نسخة فريدة ومصححة جمع زياداتها المرحوم محمد الحبوبي. صححها وشرحها وترجم أعلامها ورتبها عبدالغفار الحبوبي. بغداد ١٩٨٣. ص ٣٢ - ٣٣.

(٤) المصدر السابق. ص ٣١ - ٣٣.

وفي المستقبل ستقوم سليمة الملائكة وأخوها جميل وابنتها نازك بنظم شعر مشترك في جلسات ما بعد الظهيرة عندما يستريح الجميع ويهجع كل من في البيت، تمتد جذوره الى هذه المجالس الأدبية القديمة ولو انه يختلف عنها في مواضيعه وطبيعته وغاياته.

عُرفت ابنة محمد حسن كبه السيدة هداية (جدة نازك) بحبها للشعر وقرضها له. وهي امرأة مليحة طويلة القامة ونحيفة، ذات عينين عسليتين وأنف دقيق طويل لحد ما، بيضاء البشرة، تلقت تعليمها في بيت والدها في بغداد ثم في سامراء على يد امرأة كانت تأتي الى الدار وتعلمها القراءة والكتابة. وكانت لها شخصيتها القوية الرصينة في أسرتها، فهي هادئة الطبع تتريث فيما تقوله من كلام، وحاولت أن تنشيء أولادها على خصالها، فتوصيهم أن يفكروا مرات ثلاثاً في العبارة التي يريدون قولها قبل أن تصدر من فمهم كيلا يندموا على ما قالوه. وكانت تجمع بين الجد والصرامة والروح العاطفية في معاملتها لأولادها، فلا تمتنع عن ضربهم أحياناً إذا أساءوا التصرف كأن يلعب أحدهم في الشارع أو يتأخر دون مبرر عن الرجوع الى البيت بعد انتهاء الدروس، بينما كان زوجها عيسى الجلبي لا يلجأ الى التوبيخ في معاقبتهم، وكانت لهم أماً رؤوماً حنوناً في الوقت نفسه. وكانت موضع ثقة اخوتها أيضاً، فيستشيرونها ويأخذون رأيها في الأمور التي تحتاج الى تمحيص وتفكير.

كانت نفسها تنتشي عند سماع الكلمة الشعرية وموسيقى الأوزان. نظمت شعراً كثيراً نشرت بعضاً منه مثل أرجوزتها المئوية المكية التي كتبتها سيراً على خطى والدها الحاج محمد حسن كبه في وصفه لفريضة الحج بألف بيت شعري. وتأتي فيها على رحلة الحج ابتداء من ركوب الطائرة في بغداد حتى الوصول الى مطار جدة والذهاب الى مكة وجبل عرفات ومنى والمزدلفة ثم العودة الى مكة فالمدينة ومثوى البقيع وتختتمها بتحية الوداع والعودة الى الوطن. وكان عمرها عندما حجت ونظمت هذه الأرجوزة أربعة وسبعين عاماً ونشرتها في صحيفة «كل شيء» في ١٩٦٥/٥/٣١ ومطلعها:

أبدأ باسم الله ذي الآلاء مبشر الصابر بالجزاء
أرجوزة أنظمها خفيفة تنبىء عن سفرتنا اللطيفة
تجمع ما بين شقيقات غرر وأقرباء نوروا هذا السفر

وكُتب أبيات من شعرها على جدران دار أهلها في سامراء. فذات مرة زارت سامراء بعد مضي عقود من الأعوام ودخلت البيت القديم فسرت رعشة في فؤادها وهي تتذكر الأيام الجميلة الغابرة التي انمحت من صفحة الحياة وظلت ذكراها تهز حناياها ومشاعرها فنظمت بيتين يمثلان عواطفها ولوعة روحها، وقد خُط البيتان في مدخل الدار:

أحيّيكِ يا دار الطفولة والهنا وأذكر أياماً بك كلها عبر
وأسأل عن أهلي الذين عهدتهم أهل رحلوا أم أسلموا اليد القدر؟

وكانت تنشر شعرها باسم «أم عبدالصاحب الملائكة» أكبر أولادها من الذكور والشاعر المعروف بقصائده الوطنية وسوف تحتذي ابنتها سليمة (أم نازك) حذوها وتنشر تحت اسم «أم نزار». وظلت تهدهدها أمنية عزيزة لم تتحقق وهي أن تطبع أشعارها في ديوان بعد أن جمعت مختارات منه.

غرست الجدة هداية حب الشعر في أولادها، وقد تزوجت مرتين، أنجبت من زوجها الأول عبدالرزاق الجلبي، سليمة وعبدالصاحب ونظيمة، وتوفي وهو في ميعة الشباب. اقترنت بعد بضعة أعوام من وفاته بأخيه عيسى الجلبي ورزقت منه بخمسة أولاد وبنتين. واعتاد أبناؤها أن يلعبوا مع أولاد ابنتها سليمة لأن فارق السن بينهم قليل. فحفيدتها نازك أصغر من خالها أنور بسنتين ويكبرها خالها جميل بعام واحد وهي ومنير من العمر نفسه. ولدوا جميعهم في بيت واحد وتربوا فيه. وكانت الجدة هداية تحفظ كثيراً من الشعر والحكايات الشعبية عن ابنة السلطان والملوك والجن التي تقصها على أولادها وحفيداتها وتقرأ لهم الشعر وعلى الأخص عندما يأوون الى فراشهم، فيستسلمون للنعاس وهم يتخيلون الأمراء والزيبق والشطار ويحلق ذهنهم في أجواء المغامرات الحلوة الغريبة، ولم تقتصر الجدة هداية على تلاوة الشعر وحكاية القصص فكانت تلقي عليهم الحزورات ليحدسوها حتى يعتادوا على

التفكير وإعمال الذهن في الأشياء، وتتحدث اليهم كذلك عن شخصية والدها الشاعر والعالم الديني محمد حسن كبه.

ان شخصية هداية التي تجمع بين الذكاء واللين والشدة وحب الشعر والمعرفة جعلتها قريبة من نفوس أولادها، فأصبحوا يبثونها أسرارهم ويطلعونها على ما يعتلج في دواخلهم من هموم وفرح وأمان. وعندما نظم ابنها جميل أول قصيدة له - حالياً الدكتور جميل الملائكة عضو المجمع العلمي العراقي - وهو مازال في الصف الخامس الابتدائي، أحس بالخجل من عرضها على أحد من الكبار، فلم يجد أقرب من أمه اليه، فمعها لن يعرف الخوف أو الخجل الىٰ نفسه سبيلاً مهما كان رأيها فيه. وقد شجعته على نظم الشعر وأثنت عليه فاطمأنت نفسه، وأعطت القصيدة الى أخيه عبدالصاحب الذي يكبره بأكثر من عقد من السنين، فامتدحه وطلب منه أن يستمر في قرض الشعر، وهكذا اجتاز الخطوة الأولى الصعبة التي يعتلج فيها الخوف والفرح والقلق في النفوس الفتية.

ولدت هداية ابنتها البكر سليمة عبدالرزاق الملائكة (أم نازك) في بغداد، ٢٩ شباط ١٩٠٩[٥]. وشبت فتاة حلوة مملوءة القوام مربوعة القامة، ذات شعر كستنائي اللون مسترسل الى كتفيها، عيناها واسعتان وملامحها معتدلة الحجم، بشرتها تميل الى البياض، تتهادى في مشيتها على جانبيها كالبطة. كانت رقيقة المشاعر، هادئة الطبع، متحمسة لما تؤمن به. وأحست بنكبات الحياة وهي مازالت طفلة غرة لم تكمل عامها الرابع، فقد أصيب والدها بالحمى الشديدة وهو مسافر وتوفي في بعض الطريق ولم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره، وترك وراءه ثلاثة أطفال. حملت هذه المصيبة والدتها على العودة الى كنف أبيها محمد حسن كبه الي سامراء بصحبة أولادها، غير أن عم سليمة الحاج جعفر الجلبي وكبير الأسرة أبقى الطفلة تحت رعايته في بغداد وكان يحبها كما يحب ابنتيه عائشة وبتول، فلقيت

(٥) ثمة اختلاف في سنة ولادتها. فقد ذكرت نازك الملائكة التاريخ المذكور أعلاه في المقدمة التي كتبتها لديوان أمها **أنشودة المجد** بينما وضع بدوي طبانه تاريخ ميلادها عام ١٩٠٨ في كتابه **أدب المرأة العراقية** الصادر عام ١٩٤٨. واعتمدت على المعلومات التي وردت في مقدمة نازك في التعرف على بعض تفاصيل حياة والدتها.

في ظله العناية والعاطفة الأبوية. وكان رجلاً قوي الشخصية، طويل القامة، بهي الطلعة، أبيض البشرة، متورد الخدين، له عينان شهلاوان، ولحية غير كبيرة، شعره خفيف، يعتمر الكشيدة وهي لباس الجلبية والتجار والأثرياء في ذلك الحين. وقد حل محل أبيه عندما مرض ـ كما تقتضي الأعراف القديمة ـ فقام بتصريف أمور التجارة وإدارة الخان الذي يقع في الجهة اليسرى من مدخل سوق الصفافير حالياً. وأوكل تربية الطفلة سليمة الى أخته فاطمة. وكانت شابة تقية تؤدي الفرائض الدينية من صلاة وصوم وتلاوة القرآن، فعلمتها أصول الدين ورعتها، ولم تتزوج العمة فاطمة فظلت مصاحبة لابنة أخيها حتى وفاتها. لم تستطع سليمة أن تدخل المدرسة لعدم وجود مدارس للفتيات المسلمات في تلك الفترة. وعندما فتحت أول مدرسة وروضة بالقرب من دارهم، ذهبت اليها أختها نظيمة وابنتا عمها عائشة وبتول، أما هي فكانت مشغولة بحياتها الأسرية بسبب زواجها المبكر. غير أنها تلقت تعليمها في «كتّاب للاناث كان يجاور البيت»[٦].

كان ابن عمها صادق الملائكة يعيش معها تحت سقف بيت واحد وأكبر منها بنحو أربعة عشر عاماً. أحبها وظل ينتظرها لتبلغ مبلغ النساء حتى يحقق حلمه في الاقتران بها. وكان شاباً فارع الطول، نحيف الجسم، وجهه أقرب الى الطول ويضيق عند الحنك، عيناه سوداوان وأنفه طويل ويبرز فكاه الى الأمام بعض الشيء. صوته جهوري، يرتدي الجبة والعمامة ويحب المزاح والفكاهة. تلقى دراسته في الدين وعلوم اللغة العربية على يد السيد محمد الديواني وهو العالم الديني في زقاق إمام طه، غير أن الانتهال من العلوم الحديثة ظل يراود فكره، ويرى من الضروري أن يعرف لغة أوروبية تساعده على الاستزادة من علوم الغرب وأساليب التربية عندهم، وهذا ما كان يلقى معارضة الكبار، فأخذ ينتهز فترة غيابهم أو ركونهم الى النوم ظهراً ويغادر البيت خلسة مع عمه عيسى ويذهبان الى معلم يهودي، حيث يتلقيان على يده مبادىء اللغة الفرنسية والعزف على العود. غير أن هذا لم يمكنهما من القراءة

(٦) أم نزار الملائكة ـ ديوان أنشودة المجد. بغداد. المقدمة بقلم نازك الملائكة، ص ٧.

بالفرنسية. ظلت الكتب والمجلات المصرية كالمقتطف، الرافد الأول الذي يتعرف من خلاله على الانجازات العلمية الجديدة والمعارف الحديثة وكانت النهضة الأدبية والاجتماعية التي تشهدها مصر موضع تفاؤله وفرحته ويتتبعها أولاً بأول. أما حركة تحرير المرأة التي قادها فكرياً قاسم أمين في مصر والزهاوي في العراق فقد تحمس لها أيما حماسة وانعكست فيما بعد على سلوكه مع زوجه في البيت وفي تربية أبنائه وبناته ومعاملته لهم بتفهم واحترام وحثهم على الدراسة والسير في طريق المعرفة.

في عام ١٩٢١ تزوج من ابنة عمه سليمة الملائكة وأعطيت لهما حجرة في الطابق الثاني من البيت الكبير الذي كانا يعيشان فيه، وصار لهما ركنهما المستقل الخاص الذي عرفا فيه الاستقرار والمحبة واستطاعت فيه الصبية سليمة أن تشبع طموحها في التعلم والدراسة، فمد لها زوجها يد العون للاطلاع على عيون الشعر العربي القديم منه والحديث وحفظه، وأخذ يشرح ويفسر لها ما يصعب عليها فهمه وبدأ الشعر يأسر فكرها ويعتلج في داخلها توق عظيم لتعبر به عن دخيلة نفسها. وكان صادق ينظم الشعر ويكتب النثر، ووجدت السبيل أمامها مفتوحاً للانطلاق فيه، غير ان هذا لم يتحقق لها إلا بعد مضي سنوات طويلة على زواجها. فقد كانت تنفق جُلّ وقتها على تربية أطفالها وعائلتها التي أخذت تكبر وتكبر بعد كل عامين على التوالي.

في يوم الأربعاء المصادف ٢٣ آب/أغسطس ١٩٢٣[٧] أحست سليمة بأوجاع متقطعة وتعب في أوصالها. وعرفت نساء الدار أن ساعة الولادة قد أزفت، فاستدعيت قابلة الأسرة ـ الجدة فاطمة ـ التي تسكن غير بعيد عنهم، وتتميز بنظافتها الفائقة ومهارتها في عملها. وكان وجهها ناصع البياض وعيناها السوداوان يحيطهما الكحل فتبدوان أكبر حجماً وأكثر جمالاً. خفّت فاطمة لمساعدة سليمة وتهدئة مخاوفها من آلام المخاض التي تجهلها.

---

(٧) سجل جدها جعفر الجلبي ووالدها صادق الملائكة تاريخ ولادتها في يوم الأربعاء المصادف ٣٠ ذي الحجة ١٣٤٠هـ. وهذا يقابله ٢٣ آب ١٩٢٢ وليس ١٩٢٣. ومعروف للأسرة أن نازك ولدت بعد سنة قمرية كاملة من ولادة خالها جميل الذي ولد في أول يوم محرم سنة ١٣٤٠هـ. أي في ٣ أيلول ١٩٢١. وقد اختارت نازك ٢٣ آب ١٩٢٣ وقد يكون من الصعب الآن تغييره، ولكننا نود الاشارة الى ذلك فقط.

وما إن أزفت الساعة العاشرة مساء حتى تعالى بكاء الطفلة، فإذا به يداعب أذن أمها كصوت عذب لم تسمع له مثيلاً من قبل. سكنت آلامها ونسيت أوجاعها، وملأت الفرحة نفس أبيها. أما بقية أفراد البيت فلم يرتاحوا لكون المولودة البكر كانت أنثى، غير أن والديها طغت عليهما سعادة غامرة ولم يحفلا بما يفكر به الآخرون. واختار أبوها اسم نازك لابنته. أما لماذا وقع اختياره على هذا الاسم دون غيره، فقد روت نازك حكايته للموسيقار محمد عبدالوهاب عندما التقت به في دمشق عام ١٩٧٤. وأخبرته أن نازك هو اسم الثائرة السورية نازك العابد التي كان والدها معجباً بشخصيتها ووطنيتها.

دار الأجداد

ولدت نازك الملائكة في بيت أجدادها، وعاشت فيه حتى بلغت السابعة من عمرها، وظلت تتردد عليه حتى عام ١٩٣٨ عندما استملكته الدولة ثم قامت بهدمه. كان ذلك البيت مهد الطفولة ومرتع الصبا وترك في نفسها بصمات ثابتة لا تمحى. وقد أشارت اليه عام ١٩٥٧ تقول:

«أذكر أننا كنا نعيش في منزل شاهق عتيق، يقوم في ناحية من بغداد القديمة، وقد انحدر الينا من الآباء والأجداد وهو أمر كنا نحسه حتى في طفولتنا، فقد كان القدم يخلق حول البيت جواً من الرهبة الغامضة والعظمة الصامتة التي تركت في حياتنا حتى اليوم آثاراً شديدة العمق»[١].

فما هي قصة القِدم الذي يغلف البيت وما هو الشكل الذي كان عليه؟

يعود البيت بتاريخه الضارب في أغوار الزمن الى أحد رموز السلطة العثمانية المتوارية، فهو بيت الوالي التركي، اشتراه الجد الخامس لنازك سنة ١٨٠٦ وهو الحاج علي بن حاج محمد الجلبي بعد أن انتقل من منطقة الكاظمية الى بغداد، وباعته له فاطمة خانم ابنة حسن باشا الوزير المملوكي لولاية بغداد ١٧٧٨ - ١٧٨٠ التي ورثت الدار كمهر متأخر من زوجها علي بك بن عبدالله بك الكهية الوزير المملوكي لولاية[٢]

(١) الدكتور جميل الملائكة. **رباعيات الخيام**. مقدمة نازك الملائكة للرباعيات. بغداد ١٩٥٧. ص ب - ج.

(٢) وردت هذه المعلومات في حجة البيت الصادرة في ٢٨ جمادي الأول ١٢٢١هـ والمصادف ١٨٠٦/٩/١١م.

بغداد ١٧٧٦ - ١٧٧٨. وصاحبة الدار المشار اليها هي عمة عادلة خانم زوجة الوالي والوزير المشهور سليمان باشا.

يقع البيت في مركز بغداد في العاقولية قرب شارع الرشيد وكان يحمل رقم ١٦/١٠٢، وبعد هدمه صار قسم منه جزءاً من شارع الأمين الذي يربط بين شارعي الرشيد وغازي وهو يبعد حوالى عشرة أمتار عن حافة ساحة تمثال الرصافي في اتجاه شارع غازي وتقوم اليوم على بقاياه عمارة سامي سعدالدين التي تطالعنا واجهتها بالرقع البيض التي تحمل أسماء الدكاترة والمحامين الذين يشغلون غرفها وشققها، أما دربونة البيت فما زالت موجودة حتى الوقت الحاضر ويقوم محل لبيع الشاي في قسم منها.

سُمي البيت بالكبير لسعته بالنسبة لبيوت ذلك الزمن. فمساحة الحرم كانت أربعمائة متر مربع والديوخانة مائتي متر. وهو مبني في الأساس عام ١٧٦٠ في عهد سليمان باشا، ومنذ أن اشتراه جد نازك الأكبر كانت تحصل فيه تعديلات في كل مناسبة زواج أو غيرها، فتضاف اليه أجنحة أو غرف جديدة وتزين جدران حجراته وسقوفه بالآيات القرآنية والزخارف الخشبية والصور والأعمال الجبسية والخشبية الدقيقة والزجاج الملون.

بني آخر جناح فيه قبيل الحرب العالمية الأولى، فقد تهدم الجانب الغربي منذ حوالى عام ١٩١٢، فأعيد بناء جزء منه وبقي الجزء الآخر الذي صار يطلق عليه (الخرابة) وتحولت في فترة متأخرة الى ساحة يلعب فيها أطفال الدار ويجتمع فيها الأهل والأصدقاء والزوار في المناسبات، وفيها ذكريات الطفولة الجميلة لنازك وأترابها.

كانت بيوت السراة تبنى على أساس حماية نفسها بنفسها. فعندما يتغير الولاة أو تقع أحداث أخرى، يختل حبل الأمن أحياناً وتسود الفوضى لبضعة أيام أو أكثر فتنهب الدور وتهاجم، لذلك كان ينبغي أن تملك الدور حصانتها الذاتية المتمثلة في هندستها المعمارية وبنائها. فالحيطان سميكة ضخمة وتتصل مع البيوت المجاورة لها لتتكون منها

جميعاً سلسلة متراصة تصبح أشبه بالقلعة التي تستطيع أن تحافظ على نفسها وتصون حرماتها. ولا يقتصر التحصين على الشكل الخارجي وحده وإنما يمتد الى الداخل أيضاً المتمثل بالممرات الكثيرة والحجرات الصغيرة المتداخلة بعضها مع بعض أو القائمة في وسط الدرج أو أعلاه وفي السراديب والسطوح، وكان البيت يمون نفسه بالماء والوقود والملبس والحبوب والتمر والسكر والشاي والدهن وغيرها من الحاجيات التي يمكن خزنها لمدة طويلة، إضافة الى ذلك فإن هذا النمط من البناء يقي الناس الحرارة الشديدة في الصيف.

اعتاد قاطنو الدار على استعمال كلمات غير عربية تطلق على مختلف مرافق البيت تناقلها الآباء عن الأجداد منذ الحكم التركي المملوكي وجرت مألوفة مفهومة على ألسنة أفراده، مثل الرهرب (السرداب) والايوان (غرفة كبيرة) والكفشكان (غرفة في الدرج) وبادكير (مجرى التهوية) والسربس (بكرة سحب الماء) وغيرها من المفردات الأجنبية. وكان الصغار يستخدمونها أيضاً بوصفها جزءاً من لغتهم.

يتكون البيت من جناحين مستقلين هما الديوخانة للضيوف والحرم لسكنى الأسرة. وقد تم الاستغناء عن الديوخانة في بداية العشرينات وأُجّرت الى أسرة يهودية. ينتهي البيت بدربونة يبلغ طولها ما يقارب عشرين متراً(٣) وتغلق مع إغلاقه في الليل، لأنها تعتبر جزءاً منه وليس من الشارع. ويبدأ مدخل الدار بباب كبير من خشب الزان الأسود السميك المرصع بالمسامير الصفر ذات الرؤوس الضخمة والمطرقة النحاسية الجميلة الشكل، ويغلق من الداخل بمزلاج خشبي ضخم وذراع حديدية. وقد غيرت فيما بعد الى بابين خشبيين. وبعد الباب يواجهنا مجاز (ممر) عريض يقع على يساره باب يؤدي الى غرفة الضيوف التي يطلقون عليها اسم (البيت) وينتهي بباب أزرق يفضي

(٣) المتبقي منها الآن نحو ١٠ أمتار بعد هدم الدار وتغيير معالم المنطقة.

الى ممر آخر ينتهي بصحن الدار، وعلى جانب الممر الأيمن باب يؤدي الى الخرابة، التي يرتع فيها الدجاج والوز المربّى في البيت.

يتكون البيت من طابقين وثلاثة سطوح. وإذا نظرنا الى الجانب الأيمن من الحوش رأينا جداراً كبيراً يبلغ سمكه حوالى متر وربع فيه شباك يطل على الخرابة، يليه شباك آخر ضخم على شكل قوس عرضه متران ونصف يستعمل كطارمة صغيرة بعمق متر واحد ويطل على البقجة وقربه قن للدجاج. تواجهنا بعدئذ في الجهة التالية ثلاثة أعمدة (دلكات) من الخشب المنقوش والجزء الأعلى منها محفور بأشكال هندسية بارزة وبعدها يمتد الايوان الى نهاية الجهة المقابلة والى جانبه مكان مرتفع أقل من نصف متر عن الحوش يدعى الطرار وهو مبلط بالمرمر ويستعمل مع الايوان لجلوس أهل البيت والضيوف. تليه شبابيك تطل على الحوش، فغرفة منخفضة بدرجتين عن مستوى الدار ومبنية من المرمر وتتميز ببرودتها، ولذلك يطلقون عليها (البيت الصيفي) أي الغرفة الصيفية. وتضم خزائن مبنية بالحائط وروازين. ويأتي بعدها ممر يلتف يميناً ويفضي الى سلم الطابق الثاني، وتلي الممر مرافق البيت من حمام ومطبخ وبئر وحوض. ويتكون الحمام من قسمين، الخارجي (البرّه) والداخلي (الجوّه) ويقوم في واجهته قوس للزينة، ويزين واجهة المطبخ قوس كبير على غراره. ويحتوي المطبخ على ثلاثة مخازن وغرفة لخزن المؤونة تسمى (بييت المطبخ) وهي واسعة وكان يبنى بابها بالطابوق في الأيام الغابرة حفاظاً على مؤونتها من النهب عندما يضطرب الأمن في البلاد. تقع الى يسار المطبخ بئر يستعمل ماؤها لغسل الحوش والأواني والثياب. وفيها حبل ودلو (السربس) يستقى بهما الماء. أما الماء الذي يستعمل للطبخ والشرب فكان السقاء يحمله ويملأ الخزّان المعد خصيصاً له. وفي منتصف العشرينات بدأ استعمال حنفيات الماء الجاري فكان أهل الدار من أوائل الذين مدوا أنابيب الماء المصفى. وتم أيضاً في هذه الفترة تقريباً استعمال النفط في المطبخ لإعداد الطعام بدل الحطب، فقد تم استيراد جهاز (البريموز) قبل الثلاثينات بقليل وظل استعماله شائعاً حتى مطلع الخمسينات حيث حلّ الطباخ الغازي ثم

النفطي مكانه. وصار الحمام التركي الطراز يسخن بالنفط أيضاً بدل الحطب.

يقضي أهل الدار جُل وقتهم صيفاً في الطابق الأرضي لبرودته، أما الطابق الثاني فيستعمل بالدرجة الأولى شتاء. ويضم غرف النوم والجلوس وكذلك استقبال الضيوف. ففيه غرفة العمة فاطمة وحجرة كبيرة وأخرى صغيرة للعمة مريم وأورسي واسعة (حجرة كبيرة) لوالد نازك وأسرته، وحجرة للجد الحاج جعفر وأورسي كبيرة للعم عيسى الجلبي وأسرته وغرف لبقية أفراد العائلة. ويحتوي هذا الطابق على طارمات واسعة ومحجرات تدور حول الطابق الأرضي وتطل عليه.

عندما يهبط قيظ الظهيرة ويسخن الهواء والجدران يأوي أهل الدار بعد تناول الغداء الى السرداب الواسع الذي ينخفض عن الحوش بحوالى متر ونصف وينزلون اليه بثماني درجات تقريباً فتحتويهم البرودة والضوء الخافت ويستسلمون للنوم. وفي السرداب شباكان يطل أحدهما على المخزن الذي فيه شباك يشرف على الحوش والآخر يرتفع فوق طارمة، سقفها جزء من الطابق الثاني، وبذلك لا تدخل الشمس مباشرة اليه فيحتفظ ببرودته. وهو الى ذلك مرتفع الجدران ويحتوي على أربع فتحات للتهوية (بادكيرات) ترتفع منه الى السطح العالي تشبه فتحات (Fire Place) ولكنها أقل سعة وتعلو حوالى متر عن أرض السرداب وتقابل جهة الغرب، يمر خلالها هواء الفضاء الخارجي ويفقد حرارته تدريجياً ويبرد في أثناء عبوره في هذه الفتحات المظلمة. تقوم في السرداب مروحة يدوية مستطيلة وضخمة، مصنوعة من قماش وخشب على شكل يشبه الشراع في وسطها، وتربط من الجانبين بحبلين وتنتهي من الأسفل بقطعة قماش بعرض المروحة مخروطة كالتنورة (بليسيه)، يهزها الأطفال أو أحد الخدم فيتحرك الهواء وتشعر الأجساد الهاجعة بالبرودة والراحة.

يغادر أهل الدار السرداب عادة قبيل الغروب، لأنه لم يكن سكناً لهم وحدهم، بل مأوى للأفاعي والعقارب والحشرات التي تنشط حركتها مع

حلول الظلام. كانت الحيّات تتعايش مع الناس بسلام، ماداموا لا يتعرضون لها ولا يمسونها بأذى، وكانوا يدركون ذلك ويسعون لاستدرار رضاها ودفع شرها عنهم، فيضعون لها إناء ماء فيه ملح مذاب وحين تشرب منه تطمئن الى قبولهم إياها وعدم التعرض لها بالضرب أو القتل. وأحياناً كانوا يجدونها عندما ينهضون من نومهم ملتفة على مشربة الماء، فلا تخاف أحداً وهي في مأواها. هذا ما كان يحكيه الآباء للأبناء عندما يسمعون هسيسها ليلاً وسط الظلام ويصل الى سمعهم صوت «ايز، ايز». لكن الحال لم تبق على هذه الصورة فصار الناس يقتلونها إذا عثروا عليها، ومع ذلك فإن أحداً لم يتعرض لمكروه من (حية البيت).

تضم باحة الدار حديقة صغيرة (بقجة)، فيها أربع شجرات نارنج تحمل كثيراً من النارنج الذي يظل بعضه عليها حتى السنة التالية، وتقوم شجرة دفلى في احدى زواياها وفي الثانية شجرة توت (تكي) وفي الثالثة دالية عنب تمتد فوق قمرية تغطي جانباً من الباحة. وتزرع فيها الزهور أيضاً. تسقى هذه الحديقة من الحوض عندما يفرغ من مائه وينظف. والحوض عبارة عن قطعة منحوتة من حجر الغرانيت بطول ١,٥م وعرض ٠,٨م وارتفاع ٠,٨م وعليها نقوش كثيرة، واعتاد الأطفال أن يتعمدوا الضرب عليه بقطعة خشبية أو انبوب مطاطي عندما يخلو من الماء لتبتهج نفوسهم بسماع رنينه.

يحظى الجانب الفني في بناء البيوت بعناية كبيرة، فالتكامل الوظيفي للبناء يقوم على توفير العنصر الجمالي فيه، لذلك نجد الاهتمام بمقرنصات العقود التي تزين مدخل الدار والشناشيل المطلة على الأزقة أو الشارع والزخارف والنقوش والرسوم على جدران الحجرات والشبابيك المطلة على حوش الحرم. ودار آباء نازك يشبه متحفاً أثرياً قديماً بأبوابه وشناشيل الديوخانة المشرفة على زقاق الإمام طه وغرفه المزدانة سقوفها وشبابيكها بالنقوش الخشبية وحيطانها بالزخارف الجصية والرسوم الملونة والزجاج المتعدد الألوان وعلى الأخص الأحمر والأزرق والأخضر المكوّن

من قطع مثلثة ومستطيلة لا تزيد على بضعة سنتيمترات تفصل بينها حزوز من الخشب الدقيق الصنع[٤].

في الغرفة التي ولدت فيها نازك وعاشت فيها طفولتها المبكرة نموذج لفن الرسم والنقش الذي تنطوي عليه بعض غرف الدار الأخرى أو تزيد. فالسقف مرصوف بآلاف القطع المستطيلة التي يبلغ طولها عشرة سنتيمترات وعرضها خمسة، فيها نقوش دقيقة متنوعة وتلتف على جوانبه الأربعة حاشية خشبية بحجم المستطيلات السابقة نفسها ولكن النقوش فيها أكثر كثافة من الأولى وتليها حاشية عرضها ثلاثة مستطيلات تختلف نقوشها عن سائر فضاء السقف وتنتهي عند أعلى طرف للجدران لتتصل مباشرة بزخارف خشبية ناتئة تمتد حوالى نصف متر، وتليها الرسوم الجدارية المتناسقة على أحد الجدران والتي تمتد حتى الأرض. وتتكون من ثلاثة أقسام هندسية مستطيلة كبيرة، ينعقد في داخلها قوس كبير ينتهي في أعلاها ويتشكل على جانبيه العلويين مثلثان صغيران. تختلف نقوش الجزء الأعلى منها عن الأسفل. فالجزء الأعلى يضم رسوماً لزهريات دقيقة الخطوط تحتوي على ورود حمر وردية وأوراق خضر تشبه الأوراق الطبيعية في دقة رسمها وألوانها. يختلف شكل الزهرية الوسطى وورودها عن المزهريتين الجانبيتين، وفيها زخارف مسننة متناسقة التصميم تمتد قرب الطرف الأعلى للقوس ويتشكل فيه فراغ خطت داخله آية بماء الذهب ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾. أما الأجزاء الثلاثة التي تليها فتنقسم الى أشكال هندسية كثيرة متناسقة تحتوي على رسوم دقيقة متماثلة في الجانبين ومختلفة في الوسط، وفيها تزيينات زخرفية متنوعة الأشكال. في الغرفة خمسة شبابيك مصبوغة باللون الأزرق ـ وهو اللون الطاغي على نوافذ الدار كلها ـ يبلغ طول كل منها حوالى ثلاثة أرباع المتر وتشرف على باحة المنزل.

(٤) يحتوي كتاب بغداد الذي طبع على نفقة مؤسسة كولينكيان عام ١٩٦٩ على مجموعة رائعة للرسوم الجدارية والريازة الخشبية التي تشكل جزءاً من عمارة البيوت البغدادية القديمة، قام بتصويرها نفر من المعماريين قبل هدم عدد كبير منها. وتظهر في الصفحتين ٣٤٦ ـ ٣٤٧ الرسوم الجدارية للغرفة التي ولدت فيها نازك الملائكة. وفي صفحة ٤١٠ نموذج للتكسية الخشبية للسقوف في غرفة عم أبيها السيد عيسى الجلبي.

وعندما تفتح ترفع الى الأعلى وليس الى الجانب. وتتكون كل نافذة من قطع زجاجية صغيرة مثلثة الشكل في أعلاها لأنها تنتهي على شكل قوس ومستطيلة في الأسفل. والزجاج متعدد الألوان من أحمر وأزرق وأصفر وأخضر، ويؤطر كل قطعة منه شريط خشبي دقيق الصنع. وعندما تسكب الشمس عليه أشعتها وقت الغروب، تتراقص انعكاساتها البهية كأنها أنوار مصابيع كهربائية ملونة. وعند أسفل الشبابيك تقوم أبواب خمسة تفتح الى الأعلى أيضاً وتتكون من مجموعة كبيرة للغاية من القطع الخشبية الهندسية المتناسقة وفي داخلها قطع من الزجاج الملون أيضاً، والغرفة كبيرة الحجم، فيبلغ طولها سبعة أمتار وعرضها حوالى الأربعة، أما ارتفاعها فيصل الى الأربعة أمتار.

تكوّن السطوح جزءاً منعشاً وجميلاً في حياة أهل الدار. ففي ليالي الصيف توضع أسرّة النوم عليها وتفرش ويصعد الجميع عادة بعد الغروب الى السطوح وتأتي ربات البيوت أو الخادمات بصواني العشاء ومشربات الماء البارد، فيأكلون ويشربون، تداعبهم نسمات الهواء الخفيفة وقد أخذت تتحرر من سياط اللهيب التي سددتها اليها الشمس طيلة النهار، بينما تطل السماء فوقهم وقورة صامتة فخورة بلونها الأزرق الفاتح ونجومها المبعثرة التي ترسل بحياء نورها الأبيض اللامع، وقمرها الذي يختال هلالاً رقيقاً رشيقاً في بداية الشهر حانياً طرفيه نحو نجمة الصبح البارزة النور، ويزهو كل ليلة بأشكال هندسية جديدة من النور الهادىء، ليذكرنا بأنه فتنة السماء وعرش جمالها الصامت، وبؤرة الجاذبية لعيون البشر عندما يرفعون رؤوسهم الى الأعلى ليحمدوا الله في عليائه اللامتناهية على نعمه أو يبتهلوا اليه ويرجوا تحقيق مرادهم أو دفع الشرور والمصائب عنهم.

السماء والأرض وسراديب عالمها السفلي، هي الثالوث الغامض الماثل في تنقل الناس وعملهم وحركتهم ووجودهم ليل نهار. انه يبعث الخشية والمهابة في نفوسهم، ويومىء لهم بألغازه وأسراره التي لا تحصى، ويذكرهم بوجود قوة هائلة خفية لا تقهر، تسيّر فلك حياتهم، لا حول ولا قوة لهم حيالها، فينسجون حولها الحكايات ويتجنبون دروب الخطيئة

تفادياً لغضبها وينكبّون على مطالعة الكتب ليستزيدوا علماً وديناً وتقى، وأحياناً يألفون وجودها ويعتادون عليه ويشعرون بأنها جزء منهم، ولا يتذكرون غموضها الجليل إلا عندما يختل حبل حياتهم فجأة فيصيبهم المرض أو يتعرضون للشرّ أو تخطف يد الموت بغتة أحداً منهم.

كانت أشجار النخيل تشرئب بهاماتها من باحات الدور المجاورة والبعيدة على سوية مثيلاتها التي ترتفع فوق أرصفة شارع الرشيد، والى جانبها تطل منائر الجوامع وقبابها الزرق المصنوعة من الخزف الملون (القاشاني) وعلى مسافة غير بعيدة من الدار يتهادى نهر دجلة وتنساب فوقه الزوارق والقفف المطلية بالقار التي يتنقل الناس فيها من ضفة الى أخرى وينقلون حوائجهم. وكان الجسر الخشبي العتيق القائم على الدوب والطوّافات المربوطة بالحبال المتينة لتمسك الجسر، يهتزّ ويتأرجح بالسائرين كلما مرّت عليه عربة أو سيارة. ورغم الدمار والمصائب التي حلت ببغداد نتيجة الحرب التي دارت بين الأتراك والانكليز، فقد وصفها الرحّالة كاندلر الذي دخلها مع الحملة البريطانية بأنها «صورة للجمال الحزين» الذي أسر قلبه بهدوئه وألوانه. هكذا كانت بغداد عندما استقبلت نازك الملائكة بين جنباتها في يوم صيفي حار من أيام آب (اللهّاب) كما يسميه الناس، في مطلع العشرينات.

في المغاني الفسيحة

كانت الكرادة الشرقية في تلك الآونة أشبه بالريف منها بالمدينة. فالبساتين تكتنفها من كل الجهات، وليس فيها إلا بضعة شوارع مبلطة. كان ترابياً حتى الشارع المطل على النهر الذي لا يبعد عن بيت الملائكة إلا مسافة قصيرة تقرب من مائة متر وينتهي عند سدة تضيق في بعض الأماكن لدرجة يصعب السير عليها. ومن ثمة تم شق شارع (أبو قلام) وسط البستان وتحولت الأراضي على جانبيه الى قطع سكنية. وتذكره نازك قائلة:

«وكان منزلنا هذا يقع مباشرة في شارع بين بستانين كثيفين مليئين بالأشجار الباسقة من نخيل وتوت وبرتقال ونارنج ومشمش وإجاص وتين وسوى ذلك. وكان شارعنا نفسه بستاناً وعندما سكناه لم يكن فيه سوى ثلاثة بيوت أحدها بيتنا والثاني بيت عمي والثالث بيت جار لنا رسّام تربطنا بأسرته علاقة وثيقة. وقد بنيت هذه البيوت الثلاثة في فترة واحدة عام ١٩٣٠ عندما كانت المنطقة خضراء بالبساتين الكثيفة وكان في شارعنا نهر يخترقه من أوله حتى بيتنا ولكنه كان جافاً لا ماء فيه، وقد بدأوا بردمه عندما باعوا قطع الأرض، وعلى مسافة صغيرة من بيتنا يمتد نهر دجلة العظيم الذي أثّر تأثيراً عميقاً في شعري وحياتي»[(١)].

كان الوصول الى الكرادة آنذاك غير يسير ولاسيما بعد غروب الشمس. أما أيام المطر والأوحال والزلق والحفر فإنها تجعل المشي صعباً في الشوارع ناهيك عن الكلاب وبنات آوى حتى الذئاب أحياناً التي

(١) نازك الملائكة **لمحات من سيرة حياتي وثقافتي**، مطبوعة على الآلة الكاتبة. وقد زودني بنسخة منها الدكتور عبدالرضا علي، ص ١٤ ـ ١٥.

تتجول جميعها في المنطقة. كان الوصول الى هذا المكان يتم بواسطة الزوارق البخارية الى أن تمّ شق شارع الكرادة الخارجي (طريق البره) وقامت أمانة العاصمة بتبليطه. صارت تقطعه سيارات غير كبيرة يقرب حجمها من (الفورتات) الحالية، مقاعدها واطئة وغطاؤها الخارجي مصنوع من الخشب الذي يتخذ شكل مستطيلات متوسطة الحجم. أما المقعد فعبارة عن مصطبة خشبية غير عريضة، وطويلة تمتد من طرف الى الطرف الآخر، ويجلس على كل مصطبة أربعة أو خمسة أشخاص. وظلت بقايا هذه السيارات تعمل في النقل داخل بغداد حتى أواخر الخمسينات.

غيّر الانتقال من بغداد الى الكرادة طبيعة الحياة التي شبت عليها نازك في البيت الكبير، حيث السكون أو الصخب داخل الجدران العالية والظلال القاتمة عند الغروب والبيوت المتراصة بعضها الى بعض والأزقة والشوارع الضيقة والعدد الغفير من الناس سواء في البيت أو خارجه والحياة الاجتماعية العامة التي يعيشها الفرد مما يحد من تصرفاته وحريته ويجعله يخضع للأعراف السائدة في ساعات يومه. أما الكرادة ففيها الفضاء الرحب والبساتين والخضرة وعصف الريح وزقزقة الطيور وعواء الكلاب وأصوات الحيوانات المختلفة التي تتناهى الى البيت. وفي الكرادة نماذج أخرى من الناس، من فلاحين وحاملات الشوك وصانعات (المطّال) من روث الحيوانات وبائعات اللبن. هذا إضافة الى الخروج من البيت للتنزه واللعب مع أطفال الجيران. ومن ضوضاء شارع الرشيد وزخم النشاط فيه الى سكينة الريف ورجع صوت مكائن الماء والنواعير وصدى هتافات ونداءات بعيدة يرددها الكادحون من الذين يجلون قدور النحاس صائحين (المبيّض المبيّض) ومن بائعي الخس والتوت (التكي) أو النبق، والمتجولين الحرفيين الذين ينادون على مبيعاتهم أو عرض قدراتهم على القيام بأعمال معينة لكسب نقود زهيدة.

أدخل هذا الجو الريفي البهجة والسرور في نفس نازك ووجدت فيه فضاء رحباً لروحها. وتتحدث عن فرحتها وسعادتها بهذا المكان فتقول:

«الى هذه البقعة السحرية جاء بنا أبي، وكان عمري إذ ذاك سبع

سنوات، ولم يكن لبيتنا سياج في أول الأمر ولا كانت لنا حديقة وإنما تمتد أمام البيت بقعة أرض صغيرة فيها تلال من الرمال الرطبة. فكنت أقضي الوقت جالسة على التل ألعب بالرمال وأبني بيوتاً ومدناً وأحلم. وقد وصفت تل الرمال هذا في شعري في (عاشقة الليل) وفي (مأساة الحياة وأغنية الانسان)...

ولقد سعدت سعادة عميقة بالمعيشة في هذا البيت المحوط بالبساتين والأدغال وكنت ألعب مع اخوتي وأطفال الجيران بين الأشجار طيلة النهار، ومن هنا نشأت لي معرفة واسعة بالأشجار والورود والأدغال والحشائش. وكثيراً ما كنا نطفر السياجات وندخل البساتين الكثيفة لنقطف أزهار البرتقال ونصنع منها قلائد وأسورة نلبسها، وسرعان ما صُدمنا عندما عرفنا أن أصحاب البساتين يكرهون أن نقطف أي شيء، فلم نعد نفعل ذلك»[٢].

كان نهر دجلة يمثل متعة لا ينضب معينها لروحها الغضة بمياهه المنسابة بهدوء وهي تتماوج وتتلامع تحت أشعة الشمس وبجرفيه الرمليين اللذين يمتدان غير بعيد عن غابات النخيل بهاماتها الشامخة الجليلة وتتطاير فوقها الطيور والعصافير، ومرأى النساء المتهاديات اللواتي يأتين لنقل الماء منه وغسل الصحون والثياب فيه. كان منظره جليلاً جميلاً مثيراً لمشاعر نازك الطفلة. وذات مرة استطاعت أن تنعم بملمس مياهه الباردة على ساقيها ويأنس فؤادها لانبعاج رماله تحت رجليها واتخاذها شكل قدمها. وتتذكر ذلك النهار فتقول:

«وفي اليوم الأول من وصولنا الى البيت الجديد لم يكن الماء قد مد الى البيت، فحارت أمي كيف تغسل الصحون فأسلمتها الى فتاة بدوية تسكن على مقربة منّا فخرجت بها الى دجلة لتغسلها. وعندما عرفت انها ذاهبة الى النهر فرحت فرحاً شديداً وصحبتها دون إذن من أمي. وعندما وصلنا الى النهر رأيت الفتاة تتوغل في الماء فرحت أسير معها بعد أن خلعت حذائي. وكانت الرمال الناعمة الطرية تلين تحت قدمي على شكل رائع. وسرنا مسافة طويلة والماء ضحل تحت أرجلنا ومجموعات الأسماك الصغيرة تسبح على مرأى منا وتوقفت

---

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥.

الفتاة عندما بلغنا بداية الماء العميق وجلست تغسل الصحون، وبقيت أنا ألعب مع مياه النهر حتى ابتلت ملابسي، وكنا في فصل الصيف. وأسعدتني هذه المغامرة أقصى السعادة، وان كانت قد انتهت بغضب أمي وتأنيبها الشديد بحيث منعتني بعد ذلك من مقاربة النهر»[٣].

غير أن هذا الجمال الطبيعي للبساتين كان يخالطه الخوف من حيواناتها البرية وأفاعيها التي تجوب آفاقها وتشكل خطراً على الانسان، يهدد سكينته وحياته، فالكرادة كانت من أطراف بغداد البعيدة لحد ما عن المركز ويقطنها الفلاحون بالدرجة الأولى. كان على ساكنيها أن يحموا أنفسهم بأنفسهم من حيواناتها المؤذية ولاسيما في الظلام حيث تنطلق وتصوّت في مملكة الليل وتعوي وتهاجم كما تشاء، فهي تتمتع بحريتها التامة في هذه الدياجير، ولهذا كان الليل غير أمين بالنسبة لقاطني المنطقة. كانت نازك تفزع بشكل خصوصي من حيوان يدعى البزبز وتصفه قائلة:

«... ولكن الحيوان الذي كان كابوس طفولتي هو الذي كان البدو يسمونه «البزبز» ويصغرونه «البزيزة» وهو حيوان صغير شرس أبيض اللون كثيف الشعر يخطف الأطفال الصغار ويفترسهم، كما يحفر القبور ويأكل جثث الموتى. وكنا نخافه خوفاً شديداً، فما تكاد الشمس تميل نحو الغروب حتى تدخلنا أمي جميعاً الى البيت وتقفل الأبواب بمزالج من الحديد. وكان أبي قد اتخذ الاحتياطات الكافية لحماية أسرته من هذه المخاطر، فقد ابتنى جداراً متيناً شاهقاً بين بيتنا والبستان الخلفي خوفاً من مهاجمة ابن آوى والبزبز والذئب. وكان البزبز يهاجم أطفال سكان الأكواخ من جيراننا وأذكر انه كاد يفترس طفلة هؤلاء الجيران بحيث اضطروا الى ربط كلبين ضخمين الى عمودي سرير الطفلة لأن الكلب عدو تخافه هذه الحيوانات الوحشية المفترسة. وكان ابن آوى ينتشر في الشارع خلال الليل وقد ألفنا أن نسمع عواءه طيلة الليل، والمعروف أن له صوتاً موحشاً عالياً كعويل الرياح، ولم أكن أحبه، وإنما كنت

---

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥ - ١٦.

أستوحش منه وأفزع. وكنا نخاف الخروج في الليل جميعاً، لأن جارنا كان عائداً بعد الغروب ذات ليلة فهاجمه قطيع من بنات آوى ومزقوا ثيابه وكان سيخرج مجرحاً لولا أن مجموعة من البدو أقبلوا بعصيهم وأنقذوه».

هكذا كانت حال شارع (أبو قلام) في الثلاثينات والذي صار في منتصف الأربعينات نموذجاً للشوارع الجميلة في بغداد. فقد اعتنى أصحاب البيوت القاطنون فيه بنظافته وزرعوا الأشجار على جانبيه وصار مضرباً للأمثال في حسنه ورقيه بعد منتصف الأربعينات حين شهدت الكرادة تطوراً عمرانياً كبيراً. وقد حافظ على مستواه الاجتماعي الراقي حتى بعد أن انتشرت الشوارع الكبيرة والبنايات الضخمة واكتظت المنطقة بالسكان.

استقلت عائلة صادق الملائكة لأول مرة في بيت منفرد بها بعد أن كانت تسكن مع أشخاص كثيرين في العاقولية. لم يأت معهم من البيت الكبير سوى العمة فاطمة التي لم تتزوج وبقيت تساعد أم نازك في تربية الأطفال وتدبير شؤون المنزل. وتقول عنها إحسان في صدد الحديث عن والدتها:

«... على أن أم نزار (تعني والدة نازك) لم تكن المسؤولة الوحيدة عن إدارة شؤون المنزل إذ ان العمة الحنون فاطمة (عمة الأبوين معاً) كانت تشاطرها المسؤولية الصعبة وتتعهد الأطفال بالعناية والمحبة، فلا عجب أن ينشأ الأبناء وهم لا يرون في العمة فاطمة إلا أماً ثانية لهم، وكانت، رحمها الله، شديدة التقوى كبيرة القلب، وقد كرست حياتها كلها للإشراف على تربية بنت أخيها سليمة بعد يتمها المبكر، ثم تربية أولاد سليمة من بعد، وقد عرف كل من أم نزار وأبي نزار جميل عمتهما فلم يقع بينها وبينهما أي خلاف أو خصام الى آخر حياتها»[٤].

يختلف بيت الأسرة في الكرادة في سعته عن العاقولية. فهو أصغر منه

---

(٤) إحسان الملائكة، نبذة عن حياة نازك الملائكة مطبوعة على الآلة الكاتبة، زودتني بها إحسان الملائكة، مشكورة. ص ٥.

حجماً بحيث لا يمكن مقارنته به، غير انه فسيح على العائلة التي كانت تبيت في غرفة واحدة في البيت القديم، وحديث البناء جميله. وتصفه نازك قائلة:

«وقد ابتنى أبي بيتاً صغيراً فيه أربع غرف، الكبرى منها كنا ننام فيها نحن الأطفال الخمسة مع عمة أبويّ (فاطمة) التي ربتنا جميعاً. (فيما بعد ولدت لنا أختان فصرنا سبعة) والغرفة الثانية الأصغر كان ينام فيها أبواي، والثالثة غرفة صغيرة لاستقبال الضيوف. أما الرابعة فلم تكن غرفة في الواقع لأنها كانت واطئة الأرضية بحيث تبرد برداً شديداً في الشتاء وكنا نستعملها خلال الصيف اتقاء لحر الظهيرة ونهجرها شتاء. وكان بين الغرف ممر طويل وضعنا فيه مائدة الطعام إذ لم تكن في البيت غرفة طعام»(٥).

أدى السكن المستقل الى حدوث تغير كبير في معيشة الأسرة شعر به أبناؤها. أحس الجميع باستقلالية شخصيتهم وبحياتهم الفردية الخاصة أكثر من السابق حيث كانت خاضعة للحياة الجماعية في الدار القديم. وأفضى انفصالهم عن الآخرين الى إقامة صلات شخصية واجتماعية خارج إطار علاقات القربى لتشمل أصدقاء ومعارف جدداً. ومع أن الروابط العائلية السابقة ظلت وطيدة غير انها اتخذت شكلاً مغايراً بسبب العيش في منطقة أخرى غير مجاورة للبيت الكبير، وصارت الزيارات بينهم تقوم بصورة رئيسية في أيام الجمعة والعطل والأعياد وفي مناسبات أخرى.

---

(٥) نازك الملائكة، لمحات من سيرة حياتي وثقافتي. ص ١٤.

بين اللهو والجد

انتقلت نازك من مدرستها في مركز بغداد الى مدرسة الكرادة الابتدائية للبنات. كانت المدارس قليلة العدد آنئذ ولاسيما مدارس البنات. فمنطقة الكرادة لا تضم سوى مدرسة ابتدائية واحدة ولا توجد فيها متوسطة. أبدت نازك منذ نعومة أظفارها حرصها على تحضير المواد الدراسية باتقان وجد. وكانت متفوقة دائماً على قريناتها في الصف رغم الصعوبات التي تواجهها في درس الرياضيات (الحساب)، فلغة الأرقام كانت مزعجة كريهة لا ترتاح لها نفسها، وظلت في مراحل دراستها التالية تجد عنتاً في تقبله وهضمه. وتقول في معرض حديثها عن المواد الدراسية:

«... كنت منذ صغري أحب اللغة العربية والانكليزية والتاريخ ودروس الموسيقى كما كنت أجد لذة في دراسة العلوم خاصة علم الفلك وقوانين الوارثة والكيمياء، ولكنني كنت أمقت الرياضيات مقتاً شديداً، وأعد السنين يوماً يوماً لأصل الى انهاء مرحلة الثانوية، فأتخصص بدراسة الآداب»[1].

بدأت في المدرسة الابتدائية تحفظ الشعر. وتجلت النزعة الشعرية عندها في نظمها للشعر العامي الذي كان نوعاً من أنواع التسلية لها ومجالاً لظهور امكاناتها الفتية، وموضعاً لاطراء الأهل لها. وتقول في هذا الشأن:

«وقد بدأت نظم الشعر وحبه منذ طفولتي الأولى. والواقع أنني سمعت أبويّ وجدي يقولون عني انني «شاعرة» قبل أن أفهم

---

(١) نازك الملائكة، لمحات من سيرة حياتي وثقافتي. ص ١.

معنى هذه الكلمة، لأنهم لاحظوا عليّ التقفية وأذناً حساسة تميز النغم الشعري تمييزاً مبكراً. وبدأت بنظم الشعر العامي قبل عمر سبع سنوات، وفي سن العاشرة نظمت أول قصيدة فصيحة وكانت في قافيتها غلطة نحوية، وعندما قرأها أبي رمى القصيدة على الأرض بقسوة وقال لي في لهجة جافية مؤنبة: اذهبي أولاً وتعلمي قواعد الشعر... ثم انظمي»[٢].

كانت معلمة اللغة العربية ضعيفة بالعربية لدرجة انها «لا تميز الفاعل من المفعول» وقام أبو نازك بتدريسها بنفسه عندما دخلت المتوسطة وظل المرجع الذي تعود اليه إذا استعصت عليها بعض الأمور حتى بعدما كبرت واستوعبت اللغة العربية. وتقول شاعرتنا في هذا الصدد:

«أما أبي فقد بقي أستاذي في النحو حتى أنهيت دراسة الليسانس، وكنت أهرع اليه بكل مشكل نحوي يعرض لي وأنا أقرأ ابن هشام والسيوطي والاشموني وسواهم»[٣].

خلقت لها أمها جواً يساعدها على تكريس وقتها للمطالعة، فأعفتها من الواجبات المنزلية التي تقوم بنات الأسرة بانجازها. فأخذت تقبل على القراءة والنظم بفرح وحب ولهفة. وكان خالها جميل الملائكة الذي يكبرها بسنة واحدة صديق الطفولة واللعب والمطالعة. كانا يقرآن كتباً طريفة تبعث البهجة فيها وتحملها أحياناً على الضحك ككتاب «الكشكول»، وقد طالعا معاً كتاب «نفحات الأزهار على نسمات الأسحار في مدح النبي المختار» لمؤلفه عبدالغني النابلسي، وحاولا محاكاته والنظم على غراره، وأخذا يتابعان الشعر الحديث الى جانب الشعر القديم الذي كان طاغياً في أجواء البيت الثقافية. كان الطلاب يدرسون في تلك الفترة كتاب «العربية الحديثة» وهو عبارة عن مختارات شعرية وضعه الأستاذ محمد بهجت الأثري ويحتوي على قصيدتين لخيرالدين الزركلي كانت موضع اعجابهما لأنها من الشعر الحديث الجميل الوقع على مسمعيهما ومطلع الأولى:

---

(٢) المصدر نفسه، ص ١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢.

لم تُبق أيدي الحادثات ولم تذر فعلامَ تضحك في سمائك يا قمر

والقصيدة الثانية تشبه الموشح بطبيعة قافيتها المنوعة في الطول والقصر:

يا زمان
متى تُرى تبسم لي يا زمان
ألا حنان

كانت نازك وجميل يقرآن مجلة «اليقين» التي أصدرها محمد الهاشمي في تلك الفترة ونشر فيها أحد الكتّاب مقالاً عن البند الذي كان شائعاً في جنوب العراق منذ حوالى أربعمائة سنة[٤]، وهو خارج عن طريقة النظم المألوفة وشبيه لحد ما بالشعر الحر. واشتهر بنظمه محمد بن الخلفة في أواخر القرن التاسع عشر. وربما صار من البراعم الدفينة في نفس نازك منذ صغرها التي تجلت ملامحه في انعطافها نحو الشعر الحر في كبرها. فقد كانت تحفظ هذا الضرب من الشعر وتُسر لخفته وانسيابه في القراءة وتعجبها موسيقاه المتدفقة، كالبند المشهور في مدح الإمامين الجوادين. ونثبت هنا نموذجاً منه لتبيان قوافيه المتنوعة ذات الجرس الموسيقي وتغير أبياته:

أيها اللائم في الحبِ
دع اللوم عن الصبِ
فلو كنت ترى الحواجب الزُجّ
فويق الأعين الدُعجِ
أو الخد الشقيقيّ
أو الريق الرحيقيّ

بدأت نازك هي وخالها جميل بدراسة العروض بمفردهما دون أن يساعدهما أحد في ذلك، وكانا ما يزالان في مرحلة الدراسة المتوسطة. حاولا أن يفهماه من القراءة ليس غير، وشرعا ينظمان بعض الأبيات على غراره، وبهذه الطريقة استطاعا أن يعرفا البحور الشعرية وأن يقطعا خطوة مهمة في ضبط الوزن الشعري للقصائد التي أخذا بنظمها.

---

(٤) راجع بحث الدكتور جميل الملائكة: ميزان البند. مطبعة الرابطة، بغداد ١٩٦٥.

كانت المسابقات الشعرية تشكل نوعاً من التسلية ولوناً من ألوان اللعب والرياضة الفكرية في فترات الراحة وتجمّع أفراد الأسرة معاً. شب الصغار على سماع المطاردة الشعرية ـ كما كانوا يسمونها ـ بين الكبار. وصارت نازك وأخوالها جميل وأنور ومنير وأختها احسان يقومون بهذه المطاردات الشعرية يشاركهم فيها الكبار أحياناً كجدها جعفر الجلبي الذي كان يشجع أحفاده وحفيداته وأولاد أخيه ويحثهم على المضي في تلاوة الأبيات. وكان هو نفسه يحفظ كثيراً من الشعر ولديه ميول أدبية. وتتلخص المطاردات الشعرية في أن يقرأ أحدهم بيتاً شعرياً وينبغي لمن يليه في الدور أن يأتي ببيت يبتدىء بالحرف الذي انتهت به القافية، فمثلاً إذا قال أحدهم:

من يَهنْ يسهُل الهوان عليه   مـا لجرح بمـيّـت إيـلام

فعلى الذي يليه أن يأتي ببيت شعر يبدأ بحرف الميم وهكذا دواليك. وكانت تصادف المتسابقين أحياناً حروف قليلة الاستعمال في بداية البيت الشعري كحرف الدال مثلاً، مما يحثهم على حفظ المزيد من الأبيات ليظهروا مقدرتهم العالية في حفظ الشعر.

تعددت النشاطات الأدبية في البيت والتي كانت تفصح عن قابلياتهم الأدبية وهي وسيلة للتسلية وازجاء الوقت أيضاً. قامت نازك مع أخوالها بإصدار مجلة بيتية عائلية أطلق عليها اسم (الشاعر) عام ١٩٣٦. وقرروا أن يصدروها مرتين في الشهر، ولكن لم يصدر منها سوى عدد واحد. ونشرت نازك فيها قصيدة من قصائدها المبكرة واحتوت على قصيدة لجميل ومقال وطني النبرة لمنير الملائكة.

بدأت نازك تنظم الشعر في المناسبات وتقوم أحياناً بتلحينه وغنائه. فقد ولدت مرة جارتهم طفلة فما كان منها إلا أن نظمت قصيدة بميلادها ولحنتها. وظلت هذه العادة ملازمة لها في سنواتها التالية. وكانت تشارك في وضع الأناشيد والأغاني في المناسبات التي تقام في البيت الكبير في العاقولية. ففي إحدى احتفالات عيد الملائكة الذي يقيمونه في ١٦ تموز دعوا عدداً كبيراً من الأهل والأقارب والأصدقاء كباراً وصغاراً. ابتدأ الحفل بنشيد من نظم جميل ونازك وتلحينهما يرحبان بالضيوف:

مرحباً بالقادمين بالضيوف الماجدين
مذ أتيتم حفلنا كمل الأنس لنا
مرحباً بالشرفاء بالكرام النجباء
فيكم مِنّا دنا كلّ سعد وهنا
فيكمُ تمّ الهنا فيكمُ لنا المنى
فيكمُ صارالفنا(٥) أرحبا... أهيبا
مرحبا... مرحبا

كان ذلك عام ١٩٣٥، وأعد الصغار تمثيلية شاركت فيها نازك وأخوالها وخالتها الصغيرة رياض التي كان لها من العمر خمس سنوات. أقاموا المسرح قرب الحديقة الوسيطة (البقجة) وجعلوا السرداب غرفة لتبديل الملابس. تناول موضوع التمثيلية قبض الشرطة على مجموعة من اللصوص ومحاكمتهم وسجنهم، ومن ثمة هربهم من السجن ومعرفة الشرطة بذلك. كان الحاضرون يشجعونهم ويصفقون لهم ويضحكون أحياناً من أغلاطهم. فعندما ذهبت رياض لتبلغ الحاكم بهروب اللصوص لم تستطع أن تلفظ كلمة لصوص فقالت (أصوص) بدلاً منها، مما أثار ضحك الحاضرين الذي ينم على الحب والملاطفة.

والى جانب نظم الشعر تمكن حب الأغاني والموسيقى من قلب نازك وملك عليها مشاعرها، ولم تكن بذلك فريدة بين آل الملائكة، كان أخوالها يحبون الموسيقى ويتعلمونها. فقد درس خالها الكبير الشاعر عبدالصاحب الملائكة العزف على الكمان على يد رجل يهودي كان يأتي الى البيت مرتين في الأسبوع. أما أخوالها أنور وجميل ومنير فيعزفون على الكمان والعود والمندولين وقد تعلموا هم بأنفسهم العزف على هذه الآلات، وقد ظهرت ميولهم الموسيقية في حفلة ختان أخوال نازك الخمسة التي أقيمت عام ١٩٣٥ في العاقولية. ومن عادة الناس أن يتفاءلوا بالرقم سبعة، ولكي يكمل هذا العدد أتوا باثنين من أولاد الأكراد الذين يعملون في خان الأسرة وتم ختانهم معاً. وكان ختان

---

(٥) أي فناء الدار.

الأولاد من المناسبات التي تفوق أهميتها والعناية بها أيام الأعياد المعروفة. ففيها تعزف الموسيقى وتتعالى الزغاريد والتصفيق وتوزع الحلويات كالحلقوم والملبس والحامض حلو وتقام مأدبة طعام فخمة. وقد قام الأولاد باحياء هذه الحفلة بآلاتهم الموسيقية وظلوا يعزفون ويغنون حتى الصباح بحضور جميع العمات والخالات وأولادهم بنين وبنات وباتوا ليلتهم في العاقولية. ولما رأى الصبيان إعجاب الحاضرين بمواهبهم الموسيقية وتشجيعهم لهم، قاموا بعد مدة وجيزة بتكوين فرقة موسيقية - غنائية كانت نازك من بين أعضائها، وأخذوا يقيمون الحفلات للأسرة في البيت في المناسبات وبدونها لغرض التسلية والترويح على النفس.

كانت أسرة الملائكة تقوم بسفرات الى الأقارب القاطنين خارج بغداد، ويصاحبهم عدد من سكنة البيت القديم في العاقولية. في عام ١٩٣٥ دعتهم خالتهم نظمية (أم الدكتور قيس كبه) لزيارتها في بيتها في الفلوجة حيث يعمل زوجها المرحوم عبدالحميد كبه قاضياً حاكماً للمنطقة. قضوا عندها زهاء أسبوع، وأقام زوجها وليمة لوجهاء البلدة على شرفهم. وكان معروف الرصافي من بين الذين حضروا هذه الدعوة. أثار مجيء الرصافي اهتمام نازك وفرحت برؤية شاعر العراق الكبير. غير أنها لم تستطع أن تنعم بسماع حديثه وجهاً لوجه لأن مجتمع الفلوجة محافظ للغاية ومحدود الأفق ولا يمكن أن يسمح بظهور النساء أو البنات في حضرة الرجال ناهيك عن الجلوس معهم. ولم تقدر نازك أن تراه إلا من خلف الستارة، وكان ذلك حدثاً مهماً في صباها الغض.

في عام ١٩٣٦ قامت مجموعة من آل كبه والملائكة بسفرة الى سامراء، الى الدار التي تمتلكها عائلة جدتها الشاعرة هداية. وصار اللقاء مناسبة لمباراة واسعة في نظم الشعر واظهار المواهب بين الحاضرين وسط جو من البهجة والمزاح والضحك والأحاديث المتنوعة. فنظمت نازك قصيدة وكذلك فعلت جدتها وخالها جميل. اختارت نازك احداها وهي أكثرها ملاءمة للانشاد ولحّنتها وغنتها وأخذ الجميع يغنونها طربين جامعة بهجة الألحان وانطلاق النفوس الى جمال السفر والترحال.

نشأت عندها قبل هذه الفترة عادة تدوين يومياتها مع خاليها جميل ومنير. كان خالها جميل في الصف الرابع الابتدائي وقد وجه معلم اللغة العربية التلاميذ الى أن يبدأوا بكتابة مذكراتهم كل يوم ويسجلوا بذلك تاريخ حياتهم. لم يكن الصغار يدركون ما الذي ينبغي عليهم أن يكتبوه. فصار يذهب أحدهم الى المغسلة ويغسل وجهه ويديه ويسجل ذلك في دفتر مذكراته، ومن هذه البدايات الساذجة التي كانت أقرب الى اللهو منها الى الجد تكونت عندهم عادة مهمة في تسجيل وقائع حياتهم. وبدأت نازك بتدوين يومياتها منذ ذلك الحين وداومت عليه طيلة حياتها. كانت تكتب إضافة الى شؤونها الخاصة القضايا العامة التي تقع في البلاد وكذلك مشاعرها حيال شؤونهم العائلية، ونظمها القصائد.

فرحة الشعر الأولى

أدركت نازك منذ صباها ضرورة توسيع ثقافتها وتنمية مداركها لترفد موهبتها الشعرية بنتاجات نوابغ الشعراء وأن تتعرف إضافة الى ذلك على مختلف حقول المعرفة من أدب وتاريخ وفلسفة. كان والدها يوفر لها سبل المعرفة وأدواتها، فمكتبته عامرة بأمّات الكتب العربية والدواوين القديمة والحديثة. وهو الى ذلك يهتم بما يجد في حقول العلم والأدب عن طريق المجلات المصرية واللبنانية بالدرجة الأولى، إضافة الى العراقية منها. وتقول احسان في هذا الشأن:

«... وقد التزم الوالد أبو نزار بتزويد أفراد أسرته بثقافة أدبية عصرية جادة فكان يوفر لهم أسبوعياً وشهرياً أهم الصحف والمجلات الثقافية والأدبية من عراقية وعربية وفي مقدمتها مجلات: الرسالة، الرواية، الكاتب المصري، الكتاب، المقتطف، السياسة، المقطم، العرفان، الأديب، الآداب... الخ، إضافة الى المجلات المسلية الخفيفة مثل الهلال، المصور، الاثنين، اللطائف. وبالطبع فقد كانت الأسرة على اتصال يومي بالصحف العراقية على اختلاف أنواعها. أما عن الكتب فإن الأستاذ صادق كان معتاداً على اقتناء أحدثها وأفضلها، وعنه أخذ أبناؤه نزار ونازك وإحسان خصلة عشق الكتاب، وتقويمه كأثمن كنوز الدنيا جميعاً»[1].

احتلت أمها منزلة أثيرة متميزة في حياتها. لم تكن تجمعهما الرابطة الوثقى الحميمة التي تربط بين الأم والابنة وحدها وإنما رابطة الفكر والحلم والأماني المشتركة. فكلتاهما تحلمان بمملكة الشعر السحرية التي تحوم غير بعيد عن سماء حياتهما وتتطلعان اليها بفرح وقلق وتوق وتسجلان

(١) إحسان الملائكة، **نازك الملائكة في سطور**، مطبوعة على الآلة الكاتبة. ص ١.

كلماتهما وأبياتهما وقصائدهما الأولى على صفحاتها. وتتحدث نازك عن والدتها فتقول:

«أما والدتي فقد كان لها أثر واضح في حياتي الشعرية، لأنني كنت أعرض عليها قصائدي الأولى فتوجه اليها النقد وتحاول ارشادي، ولكني كنت أناقشها مناقشة عنيدة فقد لاح عليّ منذ مرحلة الثانوية التأثر بالشعر الحديث، شعر محمود حسن اسماعيل وبدوي الجبل وأمجد الطرابلسي وعمر أبو ريشة وبشارة الخوري وأمثالهم، بينما كانت هي تعجب بشعراء أقدم كالزهاوي على الخصوص فقد كان شاعرها الأثير. وكان اهتمامها بالشعر القديم أكبر من اهتمامي، ولذلك كان تأثيره في شعرها أبرز، ولكن ذوق أمي نفسها بدأ يتطور كما يلاحظ من يدرس شعرها الذي طبعتُ المنشور منه بعد وفاتها في ديوان سميته «أنشودة المجد»، وقد بدأت أمي تتجه نحو الشعر الحديث الى درجة ملحوظة وكانت تعجب على الخصوص بشعر ابراهيم ناجي وصالح جودت. ولكن اتجاهاتي الشعرية بقيت مختلفة عن اتجاهاتها بسبب معرفتي للانكليزية والفرنسية وكثرة قراءاتي لشعرائهما. ومع ذلك فقد بقينا أنا وهي صديقتين، فكانت تقرأ لي قصائدها وأقرأ لها قصائدي، حتى وفاتها عام ١٩٥٣ وهي في الثانية والأربعين من العمر رحمها الله رحمة واسعة»(٢).

ومما زاد من تقاربهما قلة فارق العمر بينهما الذي لا يتجاوز الأربعة عشر عاماً. وكانت هذه الأعوام تنحسر وتقصر وتتقلص كلما تقدمت نازك في العمر واكتسبت وعياً وثقافة وإدراكاً. وكانت نازك تتمتع بميزة عن أمها في أنها غير مسؤولة عن شؤون المنزل ووقتها ملك لها، بينما كانت والدتها أماً لسبعة بنين وبنات ومشاغلها البيتية لا تنتهي وعليها أن تفكر بحاجاتهم جميعاً وتلبي ما يطلبونه منها في أمورهم اليومية. ولهذا لم تستطع دائماً أن تختلي في غرفة منعزلة وتنظم الشعر على مهلها. غير أن ينبوع الشعر كان ينفجر فجأة في روحها ولا يكترث لانغمارها في العمل وكانت تحرص على تدفقه وأن لا تذهب دفقاته هباء، فتنادي على

---

(٢) نازك الملائكة، لمحات من سيرة حياتي وثقافتي. ص ٢.

احدى بناتها وتستحثها لتسرع وتجلب لها قلماً وتسجل الأبيات على ورقة علبة السكاير أحياناً وهي في المطبخ منهمكة في الطبخ أو غسل الصحون وتنظيف الخضار. كانت لا تسمح لنفسها أن تحقق ذاتها على حساب أسرتها فتستمر في العمل المنزلي وتتعجل في الوقت ذاته في تسجيل ما يعنّ لها من أبيات مخافة أن تتوارى سريعاً من ذهنها. وقد كتبت كثيراً من أشعارها على هذه الشاكلة. هكذا هي حال المرأة عندما تريد أن لا تدفن امكاناتها في أعماق نفسها، عليها أن تصارع وتستنزف قواها في شؤون التدبير المنزلي ولا تُبقي إلا وقتاً نزيراً لحياتها الروحية، تستلّه من أوقات الراحة في النهار أو في هجعة الليل.

ظلت نازك وأمها تحلمان في أن يصل شعرهما الى درجة من الجودة يصلح معها للنشر في المجلات أو الجرائد، وقد تحقق حلمهما في السنة نفسها ونشرتا في المجلة عينها. كانت الأم هي الأولى في النشر وتلتها الابنة. حدث ذلك في عام ١٩٣٦، فقد توفي في تلك السنة الزهاوي الشاعر الكبير، كانت أم نازك شديدة الحب لأفكاره التقدمية ودعواته التي لا تعرف الكلل للتوجه نحو العلوم والتقنيات الحديثة ونبذ التقاليد البالية والعمل على اعطاء المرأة حريتها وتعليمها، فكانت وفاته صدمة موجعة للأفكار التحررية التي تؤمن بها. أحست انها فقدت إنساناً عزيزاً على قلبها وعقلها فتفجر ألمها بهذا المصاب قصيدة رثاء عاطفية. وعندما قرأها زوجها عرف أن شاعريتها قد أينعت وحان وقت إطلاع الناس عليها. أخذ القصيدة الى مجلة (الصبح) وظهرت فيها. وتذكر نازك هذه الحادثة المثيرة لها ولوالدها والتي رسخت في ذهنها لأنها من ذكريات العمر الجميلة التي تنطبع في الذهن بقوة لا تمحى فتقول عن أمها:

«وإنما بقيت شاعريتها كامنة فلم تتفجر بأول بيت من الشعر إلا بعد أن بلغت الثامنة والعشرين من عمرها. وكان ذلك يوماً مشهوداً ما زلت أتذكره، ففي ربيع عام ١٩٣٦ نهضت أمي ذات يوم في ساعة مبكرة من ساعات الفجر وانغمست في الكتابة بسرعة وحدّة كأنها تتلقى الهاماً من الملأ الأعلى. واستفاق أبي من النوم ـ كما أخبرنا فيما بعد ـ على صرير القلم وخشخشة الورق فسألها مندهشاً عما

تفعل وعندما لم تعطه جواباً عاد الى النوم. ثم فاجأته في الصباح بأن وضعت بين يديه قصيدة في رثاء الشاعر جميل صدقي الزهاوي. وكان قد توفي في تلك الأيام فاهتزت لوفاته نفسها بسبب حبها لشعره وكان هذا مطلع تلك القصيدة الأولى:

أجهش الشعر باكياً ينعاكا ... حين داعي الموت الزؤام دعاكا

وقد سعِد أبي سعادة عظيمة بهذا التفجر المفاجىء، وراح يتلو القصيدة على كل زائر يزورنا، وما كان أكثر زوارنا في تلك الأيام العذبة الجميلة. ثم دفع بالقصيدة الى مجلة كانت تصدر في تلك الأيام هي مجلة (الصبح) فنشرتها في عددها الصادر يوم ١٩٣٦/٤/١١»[٣].

ومنذ هذا التاريخ بدأت قصائدها تظهر على صفحات (الصبح) وغيرها من المجلات.

غمرت نازك فرحة كبرى لهذا الحدث المهم، فأن تكون أمها شاعرة أمر عظيم ورائع يملأ القلب سروراً وفخراً. ووجدت الى ذلك إنسانة قريبة الى نفسها تلازمها معظم الوقت في البيت، فمشاغلها داخل البيت وليست خارجه كما هو شأن والدها، والفتاة أقرب الى أمها منها الى أبيها وأكثر قبولاً لنقدها وملاحظاتها وانسجاماً مع نفسها. وتكمل نازك حديثها السابق عن أمها قائلة:

«وكنت أحبّ الشعر وأنظمه كلّما استطعتُ، ولذلك رحت أتابع قصائد والدتي وأنظر اليها في إكبار وإعجاب. ورحت أعرض عليها منظوماتي فتبذل لي التوجيه والنقد وترعاني بالمحبة والتشجيع»[٤].

وذات يوم فريد في حياة نازك أطلعت أباها على قصيدة نظمتها، وكان يشجعها على قرض الشعر ووضع الأناشيد والأغاني، غير انه دهش هذه المرة من مقدرة ابنته ذات الثلاثة عشر ربيعاً والتي مازالت في الصف الأول المتوسط من نظم قصيدة بهذا المستوى فقال لها وقد تملكته الدهشة والفرحة والحيرة:

---

(٣) أم نزار الملائكة، أنشودة المجد. بغداد، ١٩٦٥، ص ٨.
(٤) المصدر نفسه، ص ٨.

ـ نازك لا يمكن أن تكوني أنت التي نظمتها!

ـ لقد نظمتها أنا نفسي.

وجّه لها عندئذ بضعة أسئلة جعلته يتأكد أن القصيدة من نظمها حقاً، وما إن اطمأن الى ذلك حتى أخذها منها وأرسلها الى مجلة (الصبح)، وكانت أول قصيدة تنشر لها. نقلتها تلك القصيدة من صبية شأنها شأن غيرها من الصبايا الى شاعرة صدقت فيها تنبؤات أهلها في أنها فتاة موهبة، يمكن أن يعلقوا الآمال ويتوقعوا لها مستقبلاً باهراً وأن تكون من شاعرات العرب اللواتي حفرن أسماءهن في ذاكرة التاريخ. أشعرها نشر قصيدتها بعظم مسؤوليتها تجاه موهبتها وأن عليها أن ترفدها بالمعرفة والقراءة بلا انقطاع. وكانت نازك ذات همة عالية ولها القدرة على الانكباب على الكتاب لفترة طويلة، فاستطاعت أن تنمي قابلياتها وتوسع مداركها. لاشك أن علاقات والدها الواسعة بالصحف والاذاعة سهّل عليها النشر الذي يجد غيرها صعوبة في تحقيقه. وكان ظهور اسمها تحت القصيدة بحروف مطبوعة على صفحة المجلة موضع فرحة كبرى فريدة لم تعرف لها بعد مثيلاً في حياتها الغضة. لقد ملأت البهجة حناياها وكادت تطير من فيض السعادة التي غمرتها.

غير أن هذا الشعر المبكر الذي كشف النقاب عن قابلياتها الشعرية ومدها بالقوة والثقة وأشعرها بتميزها وتفردها وحقق أمنيتها في النشر، صار في نظرها بعد سنوات غير جدير في أن تجمعه في ديوان شعر، ولم يجد طريقه الى الظهور في ديوانها الأول «عاشقة الليل». وتشير الى ذلك قائلة:

«غير أنني أهملت هذا النتاج المبكر ولم أدرج منه شيئاً في مجموعاتي الشعرية المطبوعة، لأنني بقيت أنظر اليه على أنه شعر الصبا قبل مرحلة النضج»(٥).

والى جانب حب الشعر والمعرفة كان حب الوطن يعمر النفوس ويلهبها حماسة. كان الأب صادق الملائكة يتابع باهتمام الحركات

(٥) نازك الملائكة، لمحات من سيرة حياتي وثقافتي. ص ٣.

التحررية والمظاهرات في البلدان العربية وسعيها لقيام الوحدة العربية وكسر أصفاد الاستعمار سواء أكان انكليزياً أم فرنسياً أم ايطالياً. كان التلويح بتقسيم فلسطين وإقامة دولة يهودية على أرضها يقضّ مضاجعهم ويدمي نفوسهم وكانت حماستهم عظيمة للقضية الفلسطينية والمظاهرات والثورة التي حدثت فيها. وتقول احسان عن أبيها:

«عرف الأستاذ صادق بمشاعره الوطنية الملتهبة، وكان من أبناء جيل النهضة العربية وقد تأثر أشد التأثر بالنزعات القومية الحديثة، وكان يتابع باهتمام جميع الحركات الوطنية في العالم العربي، ومن أهم الشخصيات التي كانت تثير اعجابه شخصيتا الزعيمين الوطنيين سعد زغلول ومصطفى كمال...»(٦).

ومن أولى الأحداث التي وقعت في البلاد وأثارت في نفس نازك وأترابها شعوراً بالحزن موت الملك فيصل الأول في جنيف (١٩٣٣). وقد اهتز الشعب العراقي لهذا الحدث وخرج الناس في مظاهرات وعلى وجوههم أمارات الحزن والشك في أسباب موته واعتقدوا انها من تدبير الانكليز. وصار مطلع قصيدة عامية للملاّ عبود الكرخي من الهوسات التي شاعت على ألسنة الجماهير:

يا سفينة التايهة وطَرها الفلكْ
مات فيصل يا غريب، اذكُر هَلَكْ

والمقصود بالغريب الانكليز الذين يطلب منهم الشعب بهذا الكلام أن يرحلوا الى أهلهم وديارهم، فقد تعاظم ضيق الناس باحتلالهم بعد موت الملك فيصل. وكانت هذه الحشود الغاضبة تمرّ في شارع الرشيد وتصل هتافاتهم الى مسامع الناس في بيوتهم فتثيرهم. وكانت أسرة نازك تذهب الى البيت الكبير في العاقولية في مثل هذه المناسبات، وتشاهد عن كثب ما يجيش في قلوب الناس من سخط وتفجع، وتشاركهم قلبياً مشاعرهم.

---

(٦) إحسان الملائكة، نازك الملائكة. ص ٦.

الغناء والعزلة والفلسفة

كان الغذاء الفكري الذي تزودت به نازك في سن مبكرة يؤتي غرسه في نفسها مع مرور كل سنة. وأحست بمظهر من مظاهره في ازدياد البون بينها وبين البنات والطالبات في المدرسة وصارت تشعر بالبعد عنهن وتضيق ذرعاً بعقليتهن المحدودة وعدم وجود طموح وآمال عليا لديهن، وأخذت تتقلص دائرة اللواتي ترتاح لهن وتجد تجاوباً معهن، وتشير الى ذلك قائلة:

«كنت ميالة الى الانعزال منذ طفولتي بسبب احساسي الدائم بأنني أختلف عن سائر البنات اللواتي في سني، فأنا كثيرة المطالعة، محبة للشعر والغناء، جادة قليلة الكلام، بينما هن لا يطالعن ولا يعبأن بالفن، وليس لهن من الجد في الحياة إلا يسير، كما انهن كثيرات الكلام لا يسكتن أبداً. وكان هذا كله يصدمني. وكنت أعتزل المجتمع لكي أقرأ وأنظم القصائد المتتالية، وكثيراً ما كنت أقف في حديقة بيتنا الخلفية ساعات متوالية وأغني بأعلى صوتي أغاني عبدالوهاب الذي كنت أعجب بغنائه وكانت عمتي المولعة بي تقول لي مندهشة: «انك تقفين هنا تغنين وتعبدين الأشجار». وعندما بلغت السادسة عشرة أصبحت أعد العزلة فضيلة الشاعر وحرية الانسان المفكر، ونبذت المجتمع وانطويت على نفسي، ولكني بعد الثلاثين أصبحت أجد سعادة في الصداقة ومعرفة الناس وتذوق ما في شخصياتهم من جوانب جميلة»[1].

وإذا أخذت نازك في هذا العمر المبكر تميل الى العزلة والانطواء على

---

(١) نازك الملائكة، لمحات من سيرة حياتي وثقافتي. ص ١٨.

الذات، فقد كان لهذا المنحى أصوله الراسخة في نفوس عائلتها، والتي تتجلى في القيم العليا التي شبت عليها، سواء تأتت لهم عن طريق الايمان الديني الصادق الذي لا يتمسك من الدين بمظاهره وإنما يأخذ بجوهره الداعي الى الخير ونبذ الأنانية والرياء والكذب، أو عن طريق الأدب والشعر وما يحمله من مثل وضيق بوجه الحياة الصدِئ وملامحها القبيحة. وكان والداها نموذجاً لها في قيمها الروحية والوطنية التي كانت تستمد منها غذاءها اليومي منذ وعيها الأول للحياة. فلا غرو أن تنمو هذه الغرسة المباركة فيها وتتجلى في هذه الصورة. وقد ذكرت نازك وجود شيء من هذه الخاصية في والدتها فقالت عنها:

«ومثاليتها هذه هي السبب في أحزانها التي يعرضها شعرها العاطفي، فقد كانت تصطدم عند الناس بالأثرة وسوء الخلق والابتذال والغدر وقد نظمت غير قليل من الشعر في هذا المعنى. وكانت تحس أن طموحها نحو المثل العليا أعظم من أن تحتمله الحياة فكانت تكثر من مخاطبة قلبها في الشعر تلومه على إغراقه في التطلع الى الآفاق العالية...»(٢).

غير أن عزلتها تلك كانت تتلاشى عندما يزورهم مثقفون وأناس ترتاح لهم نفسها. فقد كان والدها على صلة بالأدباء والمثقفين ورجال الفن، يدعوهم الى زيارته في البيت حيث تجري القراءات الشعرية والمناقشات الأدبية والأخبار السياسية وتتوارى الأحاديث اليومية الرتيبة، فتشدها تلك المجالس وتسجل انطباعاتها عنها وتواريخها في مذكراتها.

كان تعرّف نازك على تلك الشخصيات الأدبية يشكل متعة فكرية كبيرة لها. فالتعرف اليهم شخصياً بعد أن تعرفت الى أسمائهم ونتاجاتهم على صفحات الكتب والمجلات كان يلبي مشاعرها القلبية ويشعرها بلذة روحية. وتشير الى ذلك إشارة عابرة عندما تتحدث عن أمها في المقدمة التي كتبتها لديوانها «أنشودة المجد»:

«وما أكثر ما كان أبي يحب شعر أمي ويفخر به. وكم من مرة سألها

---

(٢) أم نزار الملائكة، أنشودة المجد. ص ١١.

أن تقرأه بصوتها الخجول الواطىء أمام أصدقائنا من الأدباء والمدرسين الذين كان بيتنا عامراً بهم في تلك الأيام، ومنهم الشاعر الدكتور محمد مهدي البصير ذكره الله بالخير...»[٣].

إلى جانب الأدباء والشعراء وحديث الكتب بدأت محاولات نازك الأولى في فهم أسرار الوجود في فترة مبكرة من حياتها. شرعت تطرح الأسئلة عن أشياء لا تستطيع أن تفقه مغزاها ولماذا صارت على هذه الشاكلة. كانت تفكر لماذا تشعر بالكآبة مثلاً، بينما عروقها تتفجر حيوية واقداماً على القراءة والدراسة والنشاط، ما هو سر سحر الليل والنجوم والسماء والأشجار والأنهار؟ لماذا تفرح الآن بشيء لا يعود له نفس القيمة عندها بعد ساعة من الزمن أو بعد يوم؟ ما أكثر الأسئلة الكثيرة المحيّرة التي لا تجد لها جواباً وتظل تتراكم في داخلها لتطل فجأة بعد مضي سنوات وسنوات من العمر دون أن يستطيع الزمن دفنها. وها هي تتذكر بعد مضي عقود من السنين حادثة من أيام الطفولة، عندما خرج جميع ساكني البيت الكبير ولم يبق فيه إلا هي وخالها جميل. وتتساءل قائلة:

«ولم ندر أنا وجميل كيف نبدد وحشة المساء فاخترعنا لعبة صبيانية رحنا نلعبها، وأحببناها حباً متحمساً حتى ملأنا ساحة المنزل الواسعة ضحكاً وقفزاً وصراخاً، وقد انسلخ الأصيل كله في جذل رائع. فلما كان اليوم التالي رحنا نعيد لعبتنا الجديدة ملتمسين متعة الأمس ولكن اللعبة لأمر ما، لم تمتعنا هذه المرة. حاولناها سدى، حاولنا الضحك، وقسرنا أنفسنا على المرح، وطبقنا الخطوات كلها ولكن دون جدوى، فقد استعصت اللعبة وكأنها فقدت روحها.

وأذكر أن هذا الحادث كان أول فلسفة خضنا فيها أنا وجميل، فقد جلسنا مكتئبين على درج السلم لا ندري ما نصنع. ولم أزل حتى هذه اللحظة أذكر كآبتي ونبرة صوتي وأنا أهتف: «جميل! لقد استمتعنا أمس بهذه اللعبة فلماذا لم نحبها اليوم؟» وفكر جميل

---

(٣) المصدر نفسه، ص ٩.

واجماً لحظات ثم أجاب: «لست أدري... لابد أن نكون نسيناها.. ولم يخطر لنا قط أن نبحث عن التغير في أنفسنا.

أية دلالة لهذا الحادث؟ انه كان رمزاً عميقاً للحياة كلها. فما يكاد الطفل يكبر حتى تفقد لعبة الحياة معناها الأول الذي كان ممتلئاً حماسة وجدة وألواناً. وكما جلس الطفلان جميل ونازك على درجة السلم بالأمس تجلس العجوز اليوم لترقب سأم موكب الزمان وتتساءل كئيبة عن لعبة الحياة التي فقدت متعتها واستحالت الى ملل رتيب»[٤].

كانت هذه التساؤلات تكبر وتتخذ شكلاً عميقاً مع تقدمها في السن مما جعلها تقبل على قراءة الكتب الفلسفية لعلها تجد فيها حلاً للألغاز التي تغلف أرواحنا وأجسادنا. وتقول في هذا الصدد:

«التفكير الفلسفي ـ عادة تملكتني منذ الصبا فقد كنت دائماً أحب أن أفلسف كل شيء وأغوص في حيثياته وأسبابه. وفي سنوات النضج أقبلت على قراءة الفلسفة وفي أيام الشباب أثّرت فلسفة شوبنهاور المتشائمة تأثيراً شديداً في نفسي»[٥].

إضافة الى كتب الفلسفة، كانت شاعرتنا تبحث عن معنى الوجود في دواوين الشعر بين سطور القصائد الكاملة أو أبياتها المنفردة. وقد كانت شديدة الاعجاب بقصيدة إيليا أبي ماضي (الطلاسم) فوجدت فيها صدى لتساؤلات انبعثت في نفسها عن أسرار الحياة الغامضة ولم تجد لها جواباً.

جئت لا أعلم من أين، ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟
لست أدري[٦]

---

(٤) د. جميل الملائكة، **رباعيات الخيام** (ترجمة) المقدمة بقلم نازك الملائكة. بغداد ١٩٥٧، ص (د ـ هـ).

(٥) نازك الملائكة، **لمحات من سيرة حياتي وثقافتي**. ص ١٨.

(٦) ايليا أبو ماضي، **الجداول**. دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٣٨.

وبين الشعر والفلسفة كانت الأغنية والموسيقى تروّحان عنها وتمدانها بالألحان والأنغام الجميلة التي تروي مواطن الظمأ في نفسها. ولم يكن الراديو قد دخل العراق بعد، إذ لم تفتتح إذاعة بغداد إلا في عام ١٩٣٥. وبعدها بدأت أجهزة الراديو تباع في الأسواق، وعندئذ خف صادق الملائكة لاقتناء واحد منها. ففي يوم الخميس ٦ أيار ١٩٣٧ اشترى راديو غرام من الحجم الضخم من نوع فلكو، موديل ١٩٣٦، واشترى معه أول اسطوانة وهي أغنية محمد عبدالوهاب (ياما بنيت قصر الأماني) من فيلم (دموع الحب). تجمعت الأسرة في ليلة الجمعة تلك وهي تقضي ليلة فريدة حافلة بالبهجة والفرح لدخول جهاز الراديو في حياتهم مما يلبي شيئاً من حاجاتهم الروحية في سماع الموسيقى والغناء. وكانت الفرحة تستخف الوالد أيضاً لأنه استطاع أن يدخل السرور الغامر في قلوب أعز الناس اليه: زوجه وبناته وبنيه. وكان صادق الملائكة يعيل عائلته من الراتب الذي يتقاضاه من عمله التدريسي وليس له مورد آخر سواه، لذلك لم يكن مطلق اليد في شراء ما يريد لأن عليه أن يفكر أولاً في الحاجات الضرورية لأسرته الكبيرة. غير أنه كان يعرف أن الراديو والغرام يعتبران من الضرورات في حياتهم كالأكل والشرب والدراسة والكتاب، وكانت زوجه على الأخص التي تظل في البيت مع العمة فاطمة والخادمة بعدما يذهب الجميع الى مدارسهم تستمتع بأخبار الراديو وأغانيه. وتتحدث نازك عن شغف والدتها به قائلة:

«وكان المذياع جزءاً حياً من حياة أمي فهي تحبه كل الحب، وما أكثر ما كانت تجلس اليه ساعات وأصابعها تلعب بإبرته في قلق تنتقل من محطة الى محطة بحثاً عن أخبار العروبة وفلسطين، فلا ترتوي قط. حتى إذا سمعت خبراً مثيراً انطلقت تنظم قصيدة متحمسة حارّة»[٧].

وفي الحقيقة صار الراديوغرام (جزءاً حياً) من حياة الأسرة كلها وإن كانت تختلف درجته من شخص الى آخر، فصاروا يقضون وقت الفراغ قربه ويسمرون وهم يستمعون اليه. وبدأ شراء الأسطوانات يتتالى بعضه

(٧) أم نزار الملائكة، أنشودة المجد. بغداد، ١٩٦٥، المقدمة ص ١٠.

إثر بعض. وكان أخوال نازك وعلى الأخص عبدالصاحب الملائكة يجلبون لهم الأسطوانات. وازداد حفظ نازك للأغاني. ومن الأسطوانات التي صارت في حوزتهم في تلك الفترة: «من غير ميعاد بيني وبينك» و«يا جارتي ليلى» و«لا كلمة» و«هو الدلال» و«يا ريتني أنسى» و«أنت وعذولي وزماني» و«الجندول» و«الكرنك» و«حبيت وشفت كتير» و«يللي زرعتوا البرتقال» و«يا ورد مين يشتريك» و«على بلد المحبوب» و«ما أحلى القمر» وغيرها.

وقد أخذت نازك عن أمها وأهلها الشغف بالأغاني وحبها منذ طفولتها كما هي حالها مع الشعر. وتشير الى ذلك قائلة:

«... وقد كان الغناء سعادتي الكبرى منذ طفولتي، وكنت أحبس أنفاسي إذا ما سمعت صوت عبدالوهاب أو أم كلثوم يحمله إليّ جهاز (حاكي - غرامافون) يدور في بيت الجيران. وكنت سريعة الحفظ لأي أغنية أسمعها، وكانت أمي لا تفتأ تندهش دهشة كبيرة عندما تسمعني أغني ومازلت أذكر صوتها في صغري وهي تتلفت وتقول: «يا الهي! من أين حفظت ابنتي كل هذه الأغاني؟ ومتى سمعتها، وكيف؟» ولم تكن تدري أنني كنت حين أسمع حاكياً يدور بأغنية أقف مسمّرة في مكاني حتى لو كنت في الشارع. وفي تلك الأيام البعيدة لم يكن المذياع قد دخل الحياة في العراق طبعاً، فكان الاستماع الى الأغاني لا يتم إلا عن طريق الأسطوانات ولم تبدأ إذاعة بغداد بالبث إلا في سنة ١٩٣٥ كما أتذكر يوم أن بلغت الثانية عشرة من العمر»[٨].

كانت نازك تحفظ عشرات الأغاني العراقية والمصرية منذ ذلك الحين، وصارت تحفظ المئات منها فيما بعد وتلازم الراديو ساعات من الليل والنهار.

لم تكن نازك عاكفة على تعليم نفسها فقط وتزويدها بالثقافة والموسيقى والأغاني، بل كانت تعنى بمن حولها من أخوات وأهل وصديقات. تقدم لهم مساعدتها عن طيب خاطر إذا كانوا بحاجة

---

(٨) د. نازك الملائكة، لمحات من سيرة حياتي وثقافتي. ص ٣.

اليها. فذات مرة كان خالها أنور متعباً وعليه أن يحضر دروس الغد، لكنه وجد نفسه غير قادر على الجلوس والدراسة، فاستلقى على السرير، وطلب منها أن تقرأ له، فخفت لمساعدته وأخذت تقرأ وتقرأ وكأن الدرس يخصها هي نفسها، غير أنها لاحظت بعد فترة انه لا يسأل ولا يعلق بكلمة فالتفتت اليه وألفته نائماً، وأخذت الأمر بهدوء وتابعت قراءتها مع نفسها بصمت.

نازك وأخواتها ووالدتها

في أواخر الثلاثينات صارت نازك فتاة يافعة معتدلة الملامح. عيناها بنيتان غير واسعتين، ذات نظرة وادعة ومتأملة، وأنف معتدل وجبهة عريضة ووجه بيضوي أسمر وشعر كستنائي وقامة متوسطة الطول غير ممتلئة البدن غير أنها تفيض بالعافية والصحة. كانت تقبل على الحياة إقبال المحبّ لها وتسعى بكل ما تملك من طاقة للاغتراف من كنوز الأدب والشعر وكل أنواع المعرفة وتصقل قدراتها على نظم الشعر وتجويده. كانت خجولاً للغاية، يبدو الهدوء على مظهرها الخارجي الذي قد يعتبره المرء ضرباً من البرود، غير أنها كانت في واقع الحال رقيقة المشاعر لدرجة قصوى، تخدش قلبها الحسّاس أبسط كلمة لدرجة تبكيها أحياناً. ذات مرة عندما كانت طالبة في الثانوية تقدمت منها طالبة من زميلاتها في الصف وقالت لها دون أي سبب: «إنني أكرهك». ذهلت نازك من هذا الحقد الذي لا تستحقه، وعندما عادت من المدرسة الى البيت كانت مشاعرها تغلي من غِل الناس فانخرطت بالبكاء وهي تقول ماذا فعلت لها حتى تكرهني. ومع ذلك لم تعلق في نفس نازك أية بغضاء لها لأنها تقدر على الحب وحده ولا تستطيع أن تكره. ودارت الأعوام وسافرت نازك الى الخارج والتقت مصادفة بتلك الطالبة. فأقبلت على نازك تقبلها وتقول لها كيف نطقت بتلك الكلمات وكيف لم تعترضي على كلامي أو تجادليني! وتأسفت على طيشها الفائت، وسامحتها نازك على ما بدر منها في سنوات مراهقتها.

إضافة الى ذلك كانت تتمتع بالصدق التام وتكره الكذب والنميمة. فإذا سمعت أخواتها يذكرن أحداً بسوء، فانها تطلب منهن أن يكففن عن ذلك ولا يتكلمن على الناس، فإن لم يسكتن فانها لا تطيق صبراً

وتغادر الغرفة. ان روح الوئام والتفاهم تجمع بينها وبين أختها احسان التي تمتلك اهتماماتها الفكرية وآمالها نفسها في الحصول على ثقافة متشعبة عميقة في مجال الأدب والفن، وستظل أقرب أخواتها الى روحها عندما تكبر وأكثرهن إدراكاً ومشاركة لها في تقويم قصائدها وكتاباتها. وقد اعتادت نازك أن تبثها ما في دخيلة نفسها من أمان وهموم وطموحات. وكانت احسان تعتبر نازك، في تلك الأعوام، معلمتها المطاعة فلا تجادل في آرائها لاعتقادها بأنها على صواب ورشاد. وقد تعلمت منها تسجيل يومياتها عندما كان لها من العمر اثنتا عشرة سنة، فأخذت تكتب عن الكتب التي تقرؤها والأفلام التي تراها والأحداث اليومية في البيت والمدرسة. كانت احسان تصبو الى أن تكون مثل أختها الكبرى، ولذلك انكبت على المطالعة وصارت تقرأ كل ما تشير به نازك عليها من كتب، وتحاول قرض الشعر. وقد نشرت أول قصيدة لها في جريدة (الحوادث) البغدادية في شباط ١٩٤٥ واسمها (عيد النبي)، وبدأت بترجمة بعض القصائد الموزونة عن اللغة الانكليزية، غير انها تركت نظم الشعر فيما بعد وانصرفت الى الكتابة النقدية والترجمة.

أما بقية أخواتها فكن يتشاجرن أحياناً فيما بينهن، ونازك تدعوهن الى التسامح والتصافي ولو أنها لا توفق دائماً إلى إقامة الوئام فيما بينهن، ولاسيما مع أختها سعاد الأصغر من نازك بأربع سنوات. كانت سعاد فتاة جميلة، ملوّنة العينين بيضاء البشرة، تميل قامتها الى الطول. تميزت على أختيها الكبريين بفهمها لأخلاق الناس وتصرفاتهم، فقد كانت تستمد أفكارها عنهم مما تراه في الواقع بعيداً عن مثاليات أختيها، نازك وإحسان، وتعرف كيف تتعامل معهم وتفرض رأيها عليهم. ونظراً لهذه الصفات العملية التي اتصفت بها، فقد صارت تساعد أمها في تصريف شؤون المنزل وأعماله منذ صغرها، وصارت ذات خبرة ومعرفة به مما جعلها مؤهلة لادارة أموره في سني شبابها. وكانت تتميز بالجرأة وعدم السكوت عن حقها إذا غمطه أحد، ولا تغضّ النظر عن الاساءة. فعندما كان الأطفال يلعبون بالكرة في الشارع وتسقط مصادفة في بيتهم فإنها تأخذها منهم لكي يكفوا عن اللعب قرب دارهم. وقد

جمعت عدة كرات وأعادتها بعد فترة من الزمن لأولئك الصغار الذين تعود لهم. وكانت سعاد معتدة بنفسها تشاكس أخويها نزار وعصام ولا تنجو من مماحكاتها تلك حتى نازك الهادئة. ومما يعزز هذه الصفة فيها محاباة والدها لها الذي تستنجد به عندما تتجاوز حقوقها وتتعدى على غيرها، فيخف الى مساندتها، مما يثير حفيظة والدتها فتطلب منه أن يعاقبها وليس أن يفعل العكس.

تختلف سعاد عن أختيها بعدم إقبالها على المطالعة وكانت ضعيفة في دراستها، وذات مرة لم تنجح في الصف الثاني الابتدائي مما أزعج والدتها فوبختها وطلبت من أبيها أن يعاقبها على كسلها. كانت سعاد بدورها خائفة أن يزجرها والدها ويقرّعها، غير أنه عندما سمع بذلك غادر البيت ثم عاد اليه ومعه درّاجة هوائية اشتراها هدية لسعاد. غضبت أمها من هذا التصرف الذي وجدت فيه تشجيعاً لابنتها على كسلها وتقصيرها. غير أن الوالد قال لأمها، أردت أن تكتشف تقصيرها من ذات نفسها وليس بتأثير خارجي عليها، ولهذا خصصتها دون أختيها الناجحتين بالهدية. وقد شعرت سعاد فعلاً بأن والدها يسخر منها عندما عاد الى البيت حاملاً الهدية. وكان أفضل عندها بكثير لو أنه زجرها أو ضربها إذ لما أصابها ما أصابها الآن من خجل وحياء.

علّمت نازك أختيها الصغريين، لبنى وسها، على التعامل باحترام فيما بينهما منذ نعومة أظفارهما، فإذا تجاسرت احداهما على الأخرى واستعملتا كلمات مثل (وليج، حقيرة) فإنها تغضب منهما، وقد اضطرتا الى ترك مثل هذه العادة وغيرها نتيجة تأثيرها فيهما. وقد سعت نازك الى توجيههما فكرياً ونجحت مع سها، أما لبنى فلم تجد بها ميلاً الى المطالعة وإنما تحب تدبير المنزل ولذلك صارت تساعد أمها في شؤون البيت عندما كبرت.

أحبت نازك كثيراً أختها الصغرى سها التي ولدت عام ١٩٣٥. وكانت طفلة جميلة بيضاء البشرة ذات عينين نجلاوين سوداوين مشرقتين بالفطنة ومتحفزتين. وقد دللتها نازك، وكما توسم أبواها فيها الشاعرية والموهبة عندما كانت طفلة غرّة، توسمت نازك في أختها

الصغرى النبوغ وتوقعت أن تبذها في شاعريتها مستقبلاً، وأحست بالسعادة تملأ حناياها لهذه النبوءة، ولم يساورها قط الشعور بأنها قد تكون منافسة لها، لأن نازك كانت لا تشعر بالأثرة والغيرة من الآخرين، ناهيك عن أهلها. ومن شدة غبطتها بموهبة سها قامت بتوثيق أحداث طفولتها وتسجيلها في دفتر خاص، حتى لا يفوت شيء من تفاصيل طفولتها ويغمرها النسيان. وقد جاء في تلك المذكرات في يوم الاثنين ٣٠ حزيران/يونيو ١٩٤١ ما يلي:

«اني أعلم جيداً، ان هذه الطفلة الصغيرة المحبوبة، ستكون في مستقبلها الباسم ان شاء الله درة لامعة في سماء الشعر وكوكباً مؤلقاً في دنيا الموسيقى وعالماً كاملاً من النبل والوداعة وسمو الخلق، فلا غرو إن قمت بتدوين هذه المذكرات عن طفولتها.. هذه الطفلة التي سيأتي اليوم الذي يتمنى فيه الناس أن يفهموها ويدرسوا مدى أثرها في نفسية الشاعرة الموسيقية»(١).

وأخذت تدربها على حفظ الشعر وسماع الموسيقى، وكانت أذنها تلتقط اللحن في الحال وتحفظ الأغاني بسرعة تفوق عمرها مما يثلج صدر نازك ويجعلها أكثر اقبالاً على تعليمها. وما كان أشد فرحة نازك عندما سمعتها في يوم السبت من شباط/فبراير ١٩٤٢ تتلو أبياتاً من قصيدة ايليا أبي ماضي، فأخذت تسألها ضاحكة كيف لم تبصر طريقها. وترويها نازك على الشكل التالي:

«جلسنا بعد العشاء يومنا هذا نسمر فراحت سها تقول:

كيف أبصرت طريقي؟ لست أدري

ولماذا لست أدري؟ لست أدري

فقلت لها: ماذا؟ ألم تبصري طريقك بعينيك اليوم في الصباح؟ فقالت: نعم! رأيته بعيني! فقلت لها وكيف تم ذلك؟ فقالت هكذا: - وراحت تبحلق بعينيها - فقلت لها: «إذن لماذا يقول هذا الشاعر كيف أبصرت طريقي؟» فردّت بسرعة: هذه فلسفة!! فضحكنا جميعاً ودُهشنا لذكائها فقالت: نعم! هو فيلسوف!»(٢).

---

(١) يوميات نازك عن أختها سها، ١٩٤١ - ١٩٤٥.
(٢) المصدر نفسه.

وفي الحقيقة كان تأثير نازك في سها طاغياً عندما كبرت. ومع انه كان لها تأثير مشابه في أختها احسان غير أن فارق الأعوام الكبير بينها وبين سها جعله أكثر قوة. كانت سها تقتدي بنازك في كل شيء، وتنفذ ما تطلبه منها وتقرأ ماتعطيه لها من كتب حتى إذا كانت لا تقدر على فهمها ولكنها تقرؤها ارضاء لأختها الكبرى قدوتها ومثلها الأعلى في الحياة، وصارت تدريجياً تتقمص شخصيتها، فتميل الى الحزن والكآبة - كما كان شأن نازك آنذاك - وهي الصبية الجميلة التي تبسم لها الدنيا حيثما أدارت وجهها وتطلعت اليها. فكل ما في حياتها وما حولها يبعث على السرور والانطلاق والمرح والضحك ملء القلب والبصر. لكن الكآبة لابد أن تكون جليلة الدلالة مادامت نازك تتصف بها، وقد حاولت سها نظم الشعر في صباها، غير أنها لم تواصله فيما بعد. وكان عمرها أربع عشرة سنة عندما نظمت أول قصيدة وترسمت فيها خطى نازك في مشاعر الأسى والحزن، وعنوانها «يأس»، وهذا مطلعها:

لماذا أعيش وقلبي جريح   وما زلت أحلم أن أستريح
بروحي ألم بقلبي ندم   بعيني ظلام أبى أن يبوح

وقد سمعها صديق من أصدقاء والدها كان موجوداً في البيت عندما قرأتها فتعجب من نبرة الحزن فيها وتساءل من أين جاء هذا اليأس للشباب وهو الفرح والمسرة؟ غير أن ما تعرفه سها انها كانت تقلد نازك في كل شيء لاشعورياً في بعض الأحيان ولحبها الكبير لها في أحيان أخرى.

لا غرو في أن تكون سها على هذه الحال، فقد كانت نازك هي التي تشرف على توجيهها وتعليمها الشعر والأغاني وحب الموسيقى التي وجدت فيها ميلاً جارفاً لسماعها والترنم بها لدرجة انها أخذت تستعملها أحياناً لتهدئتها. وتقول نازك في المذكرات التي كتبتها عن طفولة سها:

«وقد يدهش القارىء أن يعلم أنني اتخذت من الموسيقى دواء لبعض الحالات الطارئة على نفسية سها.. ومن ذلك انها كانت تبكي يوماً فأردت أن أسكتها فجئت وجلست الى جانبها ورحت أغني أغنية تحبها حتى سكتت بعد قليل وسألتني أن أبدأ من أولها لتغني معي...

وفي يوم الأحد ٢٥ أيار/مايو ١٩٤١م أخذت سها تبكي وغنيت فلم تسكت فعمدت الى طريقة أخرى.. أخذت أغني المقطع التالي:

حين ألقى الليل للنور وشاحه — وشكا الطل الى الرمل جراحه

بصورة خاطئة.. فسكتت سها بسرعة ونظرت إليّ ثم هتفت: [يا حيّالة أنت تعرفين لكن تريدين تقشمريني...] وأصررتُ على أني نسيتها تماماً حتي راحت سها تغنيها وهي تقول: [أنت تعرفين... ولكني أريد أن أغني معك..]».

وكانت تعلم أختها منذ طفولتها بعضاً من أبيات أو قصائد الشعراء الذين تؤثرهم وتحبهم. فقد علمتها من قصيدة محمود حسن اسماعيل البيتين التاليين:

أقبلي فالجراح ظمأى وكأس الـ — ـحب ثكْلى والشعر ناي معطلْ
أقبلي قبل أن تميل بنا الريـ — ـح ويهوي بنا الفناء المعجّل

وكان عمر سها أربعة أعوام وعندما بلغت الخامسة علمتها سبعة أبيات من قصيدة أمجد الطرابلسي التي مطلعها:

أيها الساهرون للكيد في دهـ — ـم الليالي يا خيبة التدبير

وظلت تعلمها عيون قصائد الشعراء الذين تحبهم نازك وتحفظ لهم مثل محمود حسن اسماعيل وبدوي الجبل وعلي الجارم وعمر أبو ريشة وأمجد الطرابلسي وكتبت تلك القصائد في مذكراتها لسها.

كان نزار يميل الى تعلم اللغات منذ صغره، وعندما كبر أخذ يشتري القواميس والكتب ويتعلم بواسطتها، بل كان حتى عندما يسير في شارع الرشيد ـ وهو الشارع الرئيسي في بغداد آنئذ ـ يتطلع الى اليافطات والقطع المثبتة عليها أسماء المحلات والأطباء والشركات ويحفظها. أما عصام فكان يميل الى العناية بأمور البيت ويدرس بصورة اعتيادية.

منذ هذه الفترة المبكرة في حياة الأسرة بدت القابليات الأدبية والشعرية والموسيقية عند بعض البنات، وصار الوالدان يتوقعان مستقبلاً لامعاً لهن يبرزن فيه كشاعرات أو أديبات ولاسيما نازك ثم إحسان ونزار وسها. وكانت الأم فرحة بأفراد أسرتها الكبيرة وبمواهبهم. غير أن هذه

الفرحة كان يشوبها الخوف عليهن من العيون الحاسدة، فليس بالأمر اليسير أن يعيش كل البنات والبنين المولودين في تلك الأعوام التي تفتقر الى الخدمات الطبية والنظافة. فالموت بين الصغار كان شائعاً اعتيادياً لقلة الأطباء والجهل بالقواعد الصحية ونقص التغذية، لذلك كانت أم نزار تتملكها الوساوس والخوف من حسد الآخرين لها. ويتجلى ذلك في سلوكها أحياناً. فإذا طلب بعض الجيران أو الناس أغصان الياس من بيتهم ليستعملوها فيما ينذرون من نذور عندما لا يعيش لهم أولاد أو يموت معظمهم، بينما بيتها عامر بالصغار، فإنها تفضل أن يقطعوا الياس دون علمها. أما الثياب العتيقة التي يطلبونها في هذه الحالة كي يستعملوها لهذا الغرض نفسه، فإنها لا تعطيهم إياها خوفاً من أن يصابوا بالحسد.

وإلى ذلك كانت تعتبر أداء عادات معينة في بعض المناسبات فرضاً واجباً لا محيد عنه لكي تسير حياة بناتها وأبنائها على ما يرام. ومن تلك المناسبات الاحتفال بعيد الربيع. فقد اعتادت أن تخصص لكل طفل أكلة من الحلويات عند ولادته وعليها أن تصنعها في عيد الربيع، وإذا تلكأت في ذلك أو لم تستطع صنعها لسبب من الأسباب فكانت تتطير من شر يحيق بأحد أفراد أسرتها. وكانت قد نذرت لنازك عند ولادتها أن تصنع لها لوزينا ولنزار بقلاوة ولسها سمسمية ولسعاد كرزات وغيرها. فكانت تشتري أو تصنع جميع هذه الأصناف وتضعها في صينية كبيرة. وتبتاع لكل ولد أبريقاً صغيراً ولكل بنت مشرية، وفي احدى سنوات الحرب العالمية الثانية لم يكن لديها ما يكفي من السكر لصنع كل هذه الحلويات، فأخذت تبكي خشية أن تموت احدى بناتها إذا لم تؤد لها النذر الذي لها بذمتها منذ ولادتها.

كان الاحتفال بالسنة الهجرية الجديدة من المناسبات التي يفرح لها الصغار وينتظرونها بشوق لكي يتناولوا أطايب الطعام التي يصنعونها بهذه المناسبة ويرسلون بعضاً منها الى الجيران والأقارب ويستلمون مثلها من الأهل والمعارف. كان ينبغي أن يعرفوا باديء ذي بدء متى دارت السنة وعلى أي شيء، على بقرة أو ديك أو غيره. وخبر دورة رأس السنة يأتيهم

عادة من الكاظمية أو النجف وعندئذ يقبلون على أكل الحلويات. لم تكن نازك في هذا العمر تحب الحلويات مثل اخواتها اللواتي يتناولنها بشهية كبيرة، وكانت تشبع بسرعة، ومعتدلة في تناول الأطعمة، واعتادت العمة فاطمة التي تساعد أمها في الطبخ أن تخصها هي ونزار بأطايب الطعام.

ومن العادات التي كانت أم نازك لا تحيد عنها مهما كانت الظروف المادية التي تمر بها الأسرة، خياطة ملابس جديدة لجميع أبنائها وبناتها في عيدي الفطر والأضحى، لأنها تتشاءم من لبس الثياب القديمة في هذه المناسبة. وكانت هي التي تقوم بنفسها بخياطة الملابس وأحياناً يقتضيها الأمر أن تسهر حتى طلوع الفجر كي تنتهي من خياطتها جميعاً وتكون جاهزة في صباح العيد. أما الأحذية فقد اعتادت أن تشتريها من اسكافي أرمني توصيه عليها مسبقاً، وعندما يأتي الى البيت يجلب عدداً أكثر مما يحتاجونه لتكون أمام الجميع فرصة للاختيار، فيأخذون في قياسها على أرجلهم وشراء ما يعجبهم منها وكانت الأم تضع عند طرف سرير كل طفل ملابسه ليجدها كاملة عندما ينهض في الصباح ليرتديها. لم يكن الأب يقر هذه العادة القديمة في شراء ملابس جديدة كاملة كل عيد ولا يجد أية ضرورة لها، لاسيما أن عائلته صارت كبيرة وأصبحت هذه العادة تكلفه مادياً وتؤثر نفقاتها على ميزانية العائلة، ناهيك عن التعب والارهاق الذي تتعرض له زوجه سليمة. غير أن أم نازك لم تكن ترضى على اعتراضاته ولا تقبل بها وتغتاظ من كلامه بشأنها. كانت تجد في أدائها طمأنينة لهواجسها المتشائمة التي تؤرقها في حالة الامتناع عنها.

كان الصغار يؤيدون أمهم في إصرارها على شراء ملابس جديدة لهم لأن فرحة العيد تظل ناقصة بدونها. ان تلك الحركة الدؤوب المتمثلة في شراء الأقمشة والشرائط والجواريب والأحذية وتنظيف البيت بأكمله من جدرانه ونوافذه وأرضه وكل الزوايا، تشعرهم بانقطاع وتيرة الحياة اليومية الرتيبة وتغير ايقاعها. كانت الدار تشهد حركة لا تكل، حيث يتجمع عدد كبير من النساء والصغار لعمل (الكليجة) فيأخذون في دق الجوز وتنظيف التمر وصنع العجين في قوالب صغيرة متنوعة الأشكال

والزخارف. وفي العيد تبدأ سلسلة من الزيارات للأقارب والمعارف والجيران ويتسلم الصغار العيدية من آبائهم ولا يأخذونها من غيرهم. وتمتد مائدة الطعام بما تحمل من أصناف لذيذة كالدجاج والكباب الشامي ومرق الفسنجون أو الطرشانة مع الرز وكبة حامض، وكانت أم نازك تشعر بالطمأنينة على أولادها وترتاح نفسها رغم التعب الذي يحسه جسمها من جميع هذه الأعمال الاضافية التي يقتضيها العيد والتحضير له، فقد كانت شديدة الخوف عليهم وتتوتر أعصابها لأبسط الأسباب بشأنهم. وتشير نازك الى هذه الخاصية فيها قائلة:

«وكانت حياة أمي شعلة من العواطف لا تهدأ قط، فهي شديدة الحب لنا نحن أولادها، كثيرة القلق علينا من أن يصيبنا شيء بحيث تصهر نفسها صهراً إذا ما تأخر أحدنا في المدرسة دقائق عن الموعد. فإذا عدنا جميعاً ورأتنا حولها انطلقت إما في نظم الشعر وهو عملها الأثير أو الاستماع الى الراديو»(٣).

---

(٣) أم نزار الملائكة، أنشودة المجد. ص ٦.

سير الزمن والتضلع بالثقافة

كان ايقاع الحياة اليومي يتبدل أمام ناظريها عاماً بعد عام، فيزيد من وعيها ويجعلها أكثر تحفزاً على التطلع نحو العوالم المجهولة الواعدة التي تلوح في الأفق البعيد، وفي الوقت نفسه يترك فيها شيئاً من الأسى على ما فات ومضى. كانت تنتظر أن تنتهي من مرحلة الدراسة الثانوية عام ١٩٣٩، وأن تذهب الى رحاب الكلية بأساتذتها المرموقين ومكتباتها الكبيرة ونشاطاتها الثقافية التي تشهدها قاعاتها كالقراءات الشعرية والخطابات والتمثيليات. زد على ذلك انها ستتعرف على نماذج جديدة من الناس والطلبة وسيكون المجال أوسع لتعلم اللغات الأجنبية والموسيقى وغيرها من المواضيع التي تهواها نفسها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت الحياة القديمة تنسحب وتتراجع في كثير من جوانبها وتتلاشى في جوف الماضي لتصير تاريخاً، فالدار القديمة في العاقولية، مرتع الطفولة والصبا، ستزال من الوجود. فقد أمرت الدولة باستملاكها عام ١٩٣٨ وتم هدمها بعد ما ينيف على العام لتقوم على أنقاضها ساحة واسعة ويزداد عرض الشارع القريب منها وتبنى بناية تتماشى مع نوع المباني الجديدة التي أخذت تظهر أكثر فأكثر مع انتقال البلاد من الحكم التركي الى الحكم الوطني تحت الهيمنة البريطانية.

ولم يجر التغير على الصعيد العائلي وحده، بل كانت تقع أحداث تهز العراق كله، ومن أبرزها في تلك الفترة هو موت الملك غازي البالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً بحادثة اصطدام سيارة، فاجتاح القطر غليان هائل لأن الشعب اعتقد على الفور أن موته كان من تدبير الانكليز ومكائدهم. التهبت مشاعر نازك الوطنية لهذا الحادث وخرجت مع اخواتها وأخوالها يقودهم السيد الشاعر عبدالصاحب الملائكة الى نادي

المعلمين الذي يشرف على الشارع مباشرة في باب الأغا (شارع الرشيد). كان الناس يتوجهون اليه فرادى ومجموعات والكثير منهم يرتدون الملابس السوداء، وكانوا يلطمون الصدور ويبكون ويولولون حزناً على الملك القتيل. كان موته مأتماً لكل العراقيين، وأثار مزيداً من البغضاء والحقد على المستعمرين في نفوسهم. وأثر هذا الحادث في نفس نازك الحساسة المتأججة بحب الوطن وترك فيها آثاره الدامية.

بدأت حياة آل الجلبي - الذين ينتمي اليهم آل الملائكة - تتغير في تلك المرحلة. فبعد أن كانوا يزاولون مهنة التجارة التي توارثوها عن آبائهم وأجدادهم، أخذ شباب الأسرة ينخرطون في التعليم ويمارسون مهنة التدريس. فقد كان خالها الشاعر عبدالصاحب الملائكة يدرس في مدرسة (الرصافة) الابتدائية ودرّس عمها ناظم الملائكة اللغة الانكليزية في المدرسة المذكورة نفسها. وكان أبوها صادق الملائكة من أوائل أبناء العائلة الذين قاموا بالتدريس في المدرسة الجعفرية والثانوية المركزية.

أدى تغيير الوضع الاقتصادي للأسرة الى تبدل في نمط تفكيرها وتقاليدها السابقة. فبدأت نساء الأسرة تتوجه الى العمل خارج جدران البيت. وأول مجال زاولت فيه المرأة العمل كان حقل التعليم. وقد عملت عمتا نازك - عائشة وبتول - مدرستين في مدارس بغداد، وشرع الجيل الأصغر منهما يسير على خطاهما، فاشتغلت نازك بالتدريس بعد تخرجها وكذلك احسان وسعاد.

ومع المشاركة في العمل خارج البيت بدأ النضال ضد مظاهر القيود المفروضة على المرأة، وأولها الحجاب المتمثل في العباءة السوداء التي تتلفع بها المرأة ولا يظهر منها إلا وجهها - وكان غطاء الوجه (البوشي) منتشراً في تلك الفترة أيضاً - كانت نازك من أوائل البنات اللواتي تركن العباءة. لا شك أن والدها هو الذي شجعها على ذلك ولولاه لما استطاعت وحدها أن تقدم على مثل هذه الخطوة. وامعاناً منه في تحدي هذا التقليد البغيض الى نفسه اشترى لها قبعة لتضعها على رأسها بدل العباءة، وخرج برفقتها خشية أن يتعرض أحد لها بالأذى، فقد كان السفور في تلك الفترة يشكل خرقاً كبيراً للتقاليد الاجتماعية ولاسيما

عندما يصدر عن بنات الأسر المتنفذة والمعروفة في المجتمع كآل الجلبي. أما أم نازك فظلت ترتدي العباءة في الشارع فقط عندما تخرج لأداء بعض الزيارات، غير أنها لا ترتديها في البيت في حضرة الأقارب والأصدقاء الذين يترددون عليهم. كانت نازك منذ فتوتها تتألم من امتهان حق المرأة في التصرف وفق سجيتها وفرض أصفاد الحجاب والجهل عليها مما جعلها تعنى فقط بزينتها وملابسها بدل أن تعمل على تطوير امكاناتها الذاتية وشخصيتها.

في تلك الأثناء كانت نازك تواصل نظم الشعر، وصارت قصائدها تظهر على صفحات مجلتي «الصبح» و«فتاة العراق». وكانت نازك من أولى الفتيات اللواتي سُمع صوتها في إذاعة بغداد. ففي ٣٠ تموز/يوليو ١٩٤٠ ألقت أول قصيدة لها من محطة الاذاعة. ويعتبر هذا حدثاً في توجّه المرأة نحو مجالات عمل الرجل. فقد كانت صبيحة الشيخ داود أول مذيعة عراقية لا تحفل بالتقاليد المحافظة المتزمتة واقتحمت هذا المضمار الذي كان وقفاً على الرجال وتبعتها نازك في ذلك، وكان سماع صوت نسائي من الاذاعة شيئاً نادراً لقلة اسهام المرأة في الحياة العامة.

من الأمور التي كانت تستهوي نازك نظم الشعر المشترك مع أمها وخالها جميل الملائكة. وقد تحدثت نازك عنه في المقدمة التي كتبتها لديوان أمها فقالت:

«ومن أحب الذكريات الى قلبي، تلك الأوقات الكثيرة التي كنا نقضيها أنا وأمي في قرض الشعر المشترك ومعنا في تلك الحالات كلها خالي جميل «الدكتور جميل الملائكة» وكان ذلك أكثر ما يقع في أيام العطلة الصيفية، فيحضر جميل مع الصباح ويقضي النهار لدينا فما نكاد ننتهي من الغداء حتى نجتمع ثلاثتنا في ركن بارد من المنزل وفي يد كل منا قلم وأوراق، ثم نأخذ بنظم ثلاث قصائد مشتركة...

ومهما يكن فإن الظهيرة كانت تنصرم وقد نظمنا ثلاث قصائد نقرؤها على أبي واخوتي عندما نجتمع لشرب الشاي عصراً. وأحياناً كانت القصيدة الواحدة تمتد الى جلستين بسبب طولها

وكثرة ضحكنا وسمرنا وجدلنا خلال النظم. وكان الملاحظ أن الأهل يميزون أسالينا عندما نقرأ عليهم الأبيات فيحزرون أبيات أمي من أبيات جميل وأبياتي إلا في النادر»[1].

ومع أن هذا الشعر يكاد يكون مرتجلاً ووليد الساعة إلا أن كثيراً منه تميز بجودته، ووجد بعض منه سبيله الى النشر رغم أن ناظميه كانوا ما يزالون في بداية مسيرتهم الشعرية. وقد نشرت جريدة (العالم العربي) نموذجاً منه في عددها الصادر في ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤١ تحت عنوان (بين روحي ودنياي!..). وكانت أم نازك هي التي اختارت هذا العنوان؛ وكتبت أدناه أبياتاً منه وقد أوضحت الجريدة الحروف بقولها: «وبهذه المناسبة نبين هنا أن حرف (أ) يعني أم نزار و(ج) يعني السيد جميل الملائكة، و(ن) يعني الآنسة نازك الملائكة، وفي أعداد قادمة سننشر بقية القصائد»:

أ ـ بين روحي ووحدتي وادكاري   أنا في بحر حيرة موّار
ج ـ كلما طفت حولهن بدا لي الـ   ـكون لغزاً قد حفّ بالأسرار
ن ـ طال يا رب بي سؤالي فحتا   م أواري في ليله أشعاري؟
أ ـ قذفت بي دنياي في رحبه الشا   سع حتى أبعدت في تسياري
ج ـ وإذا بي في غيبة اللجج الهو   ج أمني عيني بلمح مناري
ن ـ يا مناري أشرق عليّ فقد جـ   ـن ظلامي مذ غيبة السمار!

كانت تقوم في الجزء الخلفي من البيت غرفة لصيقة به ومنخفضة ينزلون اليها ببضع درجات، وبجوارها الحديقة الخلفية تظللها أشجار النخيل وتقيها من حرارة الشمس في الصيف. كان الشعراء الثلاثة يلجأون الى هذه الغرفة عندما يأوي الآخرون الى النوم وقت القيلولة وتفرغ أم نزار من أعمال المطبخ، وتترك المشاكل المنزلية جانباً، ويأخذ الجميع يتحدثون حديث الأدب والكتب والأغاني وينظمون الشعر المشترك حيث يختار كل منهم موضوعاً وينظم مطلع القصيدة، ثم يتبادلون الأوراق ويضيف كل منهم الى ما نظم الآخر بيتاً واحداً وهم بين التفكير والضحك والجدل.

---

(١) أم نزار الملائكة، **أنشودة المجد**. بغداد ١٩٦٥، ص ١٣ ـ ١٤ ـ ١٥.

وما عدا الشعر المشترك، كان يخطر ببال نازك، الذي لا يكل عن البحث، أشياء طريفة يداخلها السرور وهي تقوم بها وتضحك لها. من هذه الطرائف انه كان يحلو لها أحياناً جمع الكلمات العاميّة المترادفة والمتعلقة بمعنى واحد، وترتبها حسب الحروف الأبجدية مكوّنة منها ما يشبه القاموس، فتأخذ على سبيل المثال الكلمات العامية العراقية التي تخص الشتيمة أو السباب وتبدأ بالحرف نفسه مثل (دماغ سز، ودثو، دهري، دبنك) وغيرها. وكان خالها جميل يذكرها في بعض الأحيان بالكلمات التي تنساها فتسرع الى تدوينها وهي تضحك للحصيلة الوفيرة التي تخرج بها بعد هذا البحث والجمع.

وإلى ذلك كانت نازك تحفظ كثيراً من الأغاني الشعبية. وكانت تغنيها مع خالها جميل، وأحياناً ينظمان أبياتاً يحاكيان فيها نموذج الأغنية والمأخوذة معظمها من النوع الذي يطلقون عليه اسم الحِسكة، وأحياناً يغنيان (الهجع) مثل (البيضة تنطي فلوس والسمرة تركب). وكانت سليمة باشا وعفيفة اسكندر من المغنيات العراقيات اللواتي كانت تحبهن في تلك الفترة.

ومن الأمور التي كانت موضع اهتمامها نقاوة اللغة العربية وحرصها على تعلمها وفق قواعدها السليمة. فاللغة العربية تشكل جزءاً من عالمها الروحي وابداعها الشعري. وكانت تتوق الى أن تشغل مكانتها اللازمة في الحديث اليومي بدل اللهجة العامية التي طغت عليها وسارت على ألسنة الناس بدلاً عنها. وقد أرادت تطبيق ذلك بادىء ذي بدء داخل بيتهم.

سعت بوصفها الأخت الكبرى أن تحمل أخوتها على الحديث باللغة العربية الفصحى فيما بينهن وشجعها أبوها على ذلك وساعدتها أختها إحسان أيضاً. أخذت تصلح لهم التعابير والجمل التي يرتكبون أغلاطاً فيها. ولم تتوقف عند هذا الحد وإنما فرضت عقوبة على من يخالف ذلك. فعلّقت صندوقاً على الحائط فيه فتحة صغيرة لرمي النقود منها. وفرضت على كل من لا يتمسك بالكلام الفصيح أو يخطىء سهواً أو عمداً أن يرمي أربعة فلوس فيه (عانه) من يوميته حتى لا يسهو عن

الحديث بالفصحى مستقبلاً. وتعد الأربعة فلوس في ذلك الزمن نقوداً كثيرة بالنسبة للأطفال. وصارت الصغيرتان لبنى وسها تحسنان الكلام بالفصحى رغم صغر سنهما والذي طبقته منذ عام ١٩٤٠. وتتحدث نازك في المذكرات التي كتبتها لأختها سها في ١٦ كانون الثاني/ديسمبر ١٩٤٢ فتقول:

«بدأنا منذ أكثر من سنة ونصف بالتكلم بالفصحى في البيت، فبدأت سها ذلك معنا ومازالت في تقدم وإن كانت في تقدمها أبطأ من لبنى التي أظهرت ذكاء غريباً في هذا المضمار».

وتعطي في مكان آخر نماذج لأحاديثهم باللغة العربية:

«سها ـ احسان.. أعطني القلم.. أعطني إياه..

احسان ـ ماذا؟!... كيف تقولين لي أعطني؟!

سها ـ ها ... عفواً... أعطيني القلم...

نازك ـ وكيف تقولين لنزار إذا أردت منه فلوس.

سها ـ (بضجر).. إي... أقول لنزار: أعطني فلسا وأقول لاحسان: أعطيني عشرة فلوس.

وضحكنا ضحكاً شديداً من سها وهي تنطق الجملة الأخيرة لما فيها من طرافة تدل على ذكائها».

ومع أن الصغار أفادوا كثيراً من هذه المحاولات في تقوية لغتهم، غير أن اللهجة العامية ظلت سائدة على ألسنة الأسرة وتغلبت فيما بعد على كل المساعي الهادفة الى فرض اللغة الفصحى.

يمثل مطلع الأربعينات فترة اجتهاد وجد مكثفة في حياة نازك الثقافية فتحها أمامها الدخول الى الكلية. فقد دخلت دار المعلمين العالية في فرع اللغة العربية بعد أن أنهت الدراسة الثانوية في ١٩٣٩[٢]. وبدأت تدرس

(٢) ورد هذا التاريخ في، **لمحات من سيرة حياتي وثقافتي**، وأظنها دخلت الكلية عام ١٩٤٠ لأنها تخرجت منها في ١٩٤٤، فليست مدة الدراسة في الكلية خمس سنوات وانما أربع سنوات. وهذا يعني أنها تخرجت من المدرسة للعام الدراسي ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠.

عند أساتذة لهم منزلتهم الثقافية في الحياة العامة كالدكتور محمد مهدي البصير والدكتور مصطفى جواد. كانت تستفيد من علمهم الوفير ومن الكتب التي يشيرون على الطلاب بقراءتها. ورغم الهدوء الذي تتسم به نازك وعدم حبها للظهور وابراز تفوقها في الصف فقد لفتت أنظار الأساتذة اليها بمعرفتها الواسعة باللغة العربية وعلومها وآدابها.

كان شغف نازك بنحو اللغة العربية وصرفها كبيراً. فدراسة النحو لا تعني مجرد تضلع باللغة العربية وإنما يشكل متعة فكرية لها، ولهذا أقبلت عليه إقبال المحبة له، العازمة على معرفة دقائقه وما خفي عنها في بطون الكتب القديمة. لقد شجعها أبوها كدأبه دائماً على الاستزادة من علوم اللغة العربية التي يحبها والضليع فيها. وتقول نازك في هذا الصدد:

«والحق أني كنت ولم أزل شديدة الولع بالنحو وقد فرش لي أبي طريقاً ممهداً رائعاً حين وضع بين يدي مكتبته التي كانت تحتوي على متون النحو وكتب الشواهد جميعاً. ولذلك كان من الطبيعي تماماً أن أكون الطالبة الوحيدة بين طلبة قسم اللغة العربية التي اختارت رسالة لمرحلة الليسانس في موضوع نحوي: هو (مدارس النحو) وكان المشرف عليها أستاذي الكبير العلامة الدكتور مصطفى جواد الذي كان له في حياتي الفكرية أعمق الأثر رحمه الله وجزاه عنا نحن تلاميذه أجمل الجزاء، ولم تزل رسالتي هذه في مكتبة كلية التربية وعليها تعليقات بالقلم الأحمر كتبها الدكتور مصطفى جواد في حينه»[٣].

حفزت أجواء الكلية قوى نازك الابداعية وجعلتها أكثر اندفاعاً وحمية في نظم الشعر، وصارت تشارك في القراءات الشعرية التي تقيمها الكلية ويتلو فيها الطلاب نتاجاتهم الشعرية. وأحست نازك بتأجج عواطفها الوطنية نتيجة المد الثوري الذي شهدته البلاد عام ١٩٤١ على أثر حركة مايس التي قادها رشيد عالي الكيلاني وهبّ فيها الجيش والفلاحون للجهاد ضد الانكليز. وأخذت تنظم القصائد الوطنية الحماسية، وتشير نازك الى هذه الفترة قائلة:

---

(٣) نازك الملائكة، لمحات من سيرة حياتي وثقافتي. ص ٢.

«والواقع أنني أقبلت على نظم الشعر إقبالاً شديداً منذ عام ١٩٤١، يوم كنت طالبة في الكلية، فقد دخلت في ذلك العام بداية نضجي الروحي والعاطفي والاجتماعي، فضلاً عن انه العام الذي شهد ثورتنا القومية العظيمة التي هزت كياني هزاً عنيفاً وهي ثورة رشيد عالي الكيلاني على نوري السعيد وعبدالاله والانجليز، وكنت أتفجر حماسة لتلك الثورة ونظمت حولها القصائد المتحمسة التي لم أنشر منها أي شيء، فسرعان ما انتصر الحكم البوليسي في العراق ودخل عبدالاله على دبابات الجيش البريطاني ونصبت المشانق للأحرار، ولم يعد في العراق من يستطيع التنفس. ولكننا أنا وأمي استمررنا ننظم القصائد الثائرة سراً، ونطويها في دفاترنا الحزينة»(٤).

وما خلا الشعر كانت قوى ابداعية أخرى تجيش بين حنايا نازك وتستحثها لتفسح لها المجال للظهور وعلى رأسها الموسيقى والغناء اللذان يملكان عليها جوارحها وعواطفها. أرادت نازك أن تدرس الموسيقى على أيدي المتضلعين بها وتروي ظمأ روحها وتوقها الجارف لهذه المعرفة الفنية الرفيعة. وكانت النظرة الاجتماعية المتزمتة حيال اسهام المرأة في مثل هذه الفنون تحول دون موافقة أبيها على هذه الدراسة. فلم يكن بوسعه أن يخرق التقاليد الصارمة في أي مجال يشاء، غير أن رفضه لطلب ابنته لم يبعث فيه الراحة. لم يكن يريد أن يقف عائقاً أمام ميولها وهواياتها ولا يريد في الوقت نفسه أن يثير عليه سخط الأهل والأقارب، واستنكارهم. ومع ذلك فقد وضع أخيراً رغبة نازك فوق جميع الاعتبارات الاجتماعية وسمح لها بتحقيق طموحاتها في هذا المضمار الموصود دونها، ودخلت نازك عام ١٩٤٢ معهد الفنون الجميلة في فرع العود، وأخذت تدرسه مساء وهي مازالت طالبة في الكلية، وتتحدث عن ذلك فتقول:

«أما العزف على العود فقد كان أمنيتي منذ صغري، وحين رأى أبي حرقة تشوقي الى هذه الدراسة، وافق بعد تردد طويل على أن أدخل معهد الفنون الجميلة لأدرس على يد الفنان الكبير الموسيقار محيي

---

(٤) المصدر نفسه، ص ٣.

الدين حيدر الذي كان اسمه الفني في المعهد «الشريف»، ولهذا الفنان طريقة فريدة في العزف والتدريس عليها أثر موهبته الفنية العظيمة وله في العراق اليوم تلاميذ معروفون من الموسيقيين مثل الأستاذ سلمان شكر والأستاذ جميل بشير وسواهما... وكنت أنا أجلس في صف العود مسحورة، وكأني أستمع الى صلاة. وكان الشريف يكرر علي أن لي سمعاً موسيقياً حساساً وموهبة ظاهرة، ولكنه كان خائفاً علي أن يجرفني حبي للشعر، ويبعدني عن الموسيقى. وهو ما حدث بالفعل، فأنا اليوم معروفة شاعرة، وليس لي صوت معروف في الموسيقى على أي شكل من الأشكال، مع أنني مازلت حتى اليوم أعزف لنفسي لكي يصحبني العود وأنا أغني ألحان عبدالوهاب وأم كلثوم وفيروز وعبدالحليم حافظ ونجاة. وهو انصراف محدود، غير ما كان أستاذي يتوقع مني، ولعله كان ينتظر أن أكون عازفة مشهورة في الاذاعات ومؤلفة ألحان»(٥).

كان الشريف محيي الدين حيدر يتكلم اللغة العربية بصورة ركيكة مكسرة. فهو تركي الأصل أشقر الشعر أبيض الوجه وضخم البدن مهيبه، له محيا الملوك وجبروتهم في فرض إرادته على طلابه. وكانت نازك تهابه وتتمرن في البيت مدة طويلة حتى لا تأتي خطأ في عزفها أمامه.

ورغم أن كل وقتها كان ملك يديها فقد وجدته ضيقاً لكثرة قراءاتها الخارجية ودراستها وعزفها وتطلعها الى المزيد من توسيع أطر ثقافتها في مجالات أخرى جديدة كالتمثيل وتعلم اللغات الأجنبية التي تمكنها من التعرف على الأدب الأجنبي في مظانه. أما التمثيل فقد رفض والدها طلبها باديء الأمر رفضاً قاطعاً فقد كان محرماً اجتماعياً على الفتيات حتى ولو كان لمجرد تحقيق هواية ذاتية دون أن تقوم بممارسته بالفعل. غير أن المصادفة خدمتها في هذا المجال. فقد طلبوا من والدها في معهد الفنون أن يدرس مادة اللغة العربية في فرع التمثيل الذي كان يرأسه الأستاذ المعروف حقي الشبلي، فأعرب له صادق الملائكة عن رغبة ابنته في دراسة التمثيل وبيّن له مخاوفه أيضاً. طمأنه المرحوم حقي الشبلي انها

---

(٥) المصدر نفسه، ص ٦.

ستكون تلميذة عنده وتحت اشرافه فوافق والدها على دخولها فرع التمثيل. وكانت فرحة نازك عظيمة أشعرتها بالغبطة والسعادة. كان عاملان يستحثان نازك الى دخول التمثيل، الأول يتمثل في رغبتها أن تحسّن طريقة القائها لقصائدها بحيث يكون لها وقع مؤثر في السامعين، بينما اعتادت أن تتلوها بشكل لا تعرف معه كيف تلون نبرة صوتها مع تغير الايقاع والمعنى مما يفقد القصيدة شيئاً من قوتها ونضارتها. والعامل الثاني يتمثل في توقها لدراسة مفردات منهج قسم التمثيل التي أدهشها غناها بعد أن تعرفت عليها. أرادت أن تدرس أعمال كبار المسرحيين الأغريق والاطلاع على الأدب اليوناني بشكل مفصل. غير أن نازك لم تبق في فرع التمثيل أكثر من عدة أشهر وذلك لتعارض أوقات دراسة العود في المعهد نفسه مع ساعات دراسة التمثيل.

كانت نازك تريد الاغتراف من مناهل المعرفة التي تراها قربها. فما إن عرفت أن القسم الانكليزي بدأ يدرس اللغة اللاتينية ضمن مفردات منهج عام ١٩٤٢ حتى اجتاحتها رغبة عارمة في دراسة هذه اللغة والتعرف على آدابها بلغتها الأصلية. لم يكن قسم اللغة العربية يدرس هذه المادة ضمن منهجه، فقررت نازك أن تدرسه عند مدرس اللغة اللاتينية وطلبت منه أن يسمح لها بحضور درسه. غير أنه اعتذر واستغرب في الوقت نفسه من طلبها، فما الذي يضطرها الى تحمل التعب في مادة غير مقررة في قسمها! لم يستطع أن يدرك غرض نازك العلمي من وراء ذلك. غير أن اعتذار أستاذ اللغة اللاتينية لم يفلّ من عزيمتها، فذهبت الى العميد وشرحت له الأمر ولما رأى توقها الكبير لتعلم اللاتينية سمح لها بحضور تلك الدروس. وما إن تعلمت شيئاً منها حتى أخذت تحاول كتابة مذكراتها بها ونظمت باللاتينية نشيداً بسيط العبارات. استطاعت فيما بعد أن تواصل دراستها بمفردها ومن ثمة في الولايات المتحدة عندما دخلت جامعة برنستون. وكتبت حول هذه اللغة تقول:

«وقد أعجبت أشد الاعجاب بشعر الشاعر اللاتيني «كاتولوس» وحفظت مجموعة من القصائد له مازلت أترنم بها أحياناً في وحدتي فأجد سعادة بالغة في ترديدها. والواقع أني أجد في اللغة

اللاتينية نفسها سحراً يجتذب كياني كله ولست أعرف سر هذا الافتتان بلغة يكرهها الطلبة عادة وينفرون منها أشد النفور»[٦].

الحقيقة ان تعلم اللغات لم يقتصر على نازك وحدها في العائلة، فقد كان أخوها نزار موهوباً في سرعة تعلم اللغات بمفرده، فكان يستعين بالكتب والقواميس ويستغني عن المدرس إذا لم يظفر به. وهو أول شخص في العائلة دخل قسم اللغة الانكليزية بعد أن كانت نازك واحسان قد دخلتا قسم اللغة العربية. واستطاع وعمره لا ينيف على الخمس والعشرين سنة أن يتعلم تسع لغات حديثة وقديمة.

أما اللغة الانكليزية فقد اهتمت بتعلمها منذ المرحلة الثانوية، وصار بوسعها عندما أصبحت طالبة في الكلية أن تقرأ شكسبير وبايرون وشللي وكيتس بلغتهم، ومع ذلك بذلت مزيداً من الجهد لإتقان اللغة الانكليزية، فدخلت دورة لدراسة الشعر الانكليزي في المعهد الثقافي البريطاني. وفي عام ١٩٥٠ اجتازت امتحان الـ (Proficiency) الذي رسب فيه معظم المتقدمين، وكثير منهم من المتفوقين في قسم اللغة الانكليزية في جامعة بغداد.

بدأت نازك بتعلم اللغة الفرنسية عام ١٩٤٩ بواسطة كتاب فرنسي أهداه عمها لها ولنزار. وانكبت على تعلم الفرنسية بجد واستطاعت أن تقرأ بهذه اللغة فيما بعد قصص الفونس دوديه وموباسان وغيرهما. غير أنها لم تستطع إجادة النطق بهذه اللغة لأنها لم تتعلمها في البداية على يد مدرس. ومع انها دخلت بعدئذ دورة في المعهد الفرنسي العراقي غير أن لفظها لم يتحسن كثيراً وظلت تعاني من ناحية النطق غير الصحيح.

أغنت هذه الحقبة من التضلع باللغات الأجنبية والتزود بثقافة عميقة ومتنوعة من الأدبين العربي والغربي وتعلم العزف على العود وفهم أصول الموسيقى، أغنت كلها عالم نازك الفكري والروحي وجعلتها من أثقف شعراء جيلها مما وجد له تجسيداً في الدراسات الأدبية المتعددة التي كتبتها في اللغة والشعر والنقد المسرحي والروائي وفي ترجمة نماذج من الشعر

---

(٦) المصدر نفسه، ص ٧.

الأجنبي، بعضه لم يقيّض له أن ينشر، وفي القصص والحوارايات. ولو أن نازك بقيت تتمتع بصحتها وعافيتها فربما كان لها صوت اليوم في عالم الرواية وربما أكثرت من وضع القصص القصيرة والطويلة. فقد بدأت في عام ١٩٧٧ بكتابة رواية كان في نيتها أن تسميها (ظل على القمر) ولم تكملها.

هكذا تنطوي أيام

ومع تلك المشاغل الدراسية الواسعة التي أخذت نفسها بها من تعلم اللغات والموسيقى والتمثيل، كانت نازك لا تني عن نظم الشعر وتجويده. وشعرت انها بدأت تخرج من مرحلة التجريب الى مرحلة النضج وبوسعها أن تفكر في جمع قصائد مما نشرته ونظمته وأن تخرجها في أول ديوان يصدر لها.

ربما يخيل للمرء أن نازك كانت منغمرة كلياً في الدراسة والشعر ولا تجد وقتاً تعيش فيه حياة الناس اليومية المألوفة فإن اتساع اهتماماتها الثقافية يستنزف كل ساعات يومها. الحقيقة انها كانت تجمع بين الكتابة والعلم والحياة اليومية التي تجد فيها غبطة وراحة لنفسها، فتشارك في سفرات العائلة وتلك التي تقيمها المدرسة التي تدرس فيها وتذهب الى السينما والحفلات وتزور مع إحسان ديزي الأمير وأختها نعمت وفاطمة الحسني وصديقاتها الأخريات.

كانت تشاهد في السينما النتاجات المسرحية والروائية لكتاب كبار قام بتمثيلها ممثلون مشهورون. ففي فترة (١٩٤٥ - ١٩٤٧) شاهدت أفلاماً مثل «دكتور جيكل ومستر هايد» الذي مثلته نجمة السينما انغريد برغمان و«لمن تقرع الأجراس» رواية همنغواي التي مثلها غاري كوبر وانغريد برغمان، و«ربيكا» تمثيل لورنس أوليفيه و«صورة دوريان غراي» لأوسكار وايلد و«الليدي هاملتون» تمثيل لورنس أوليفيه وفيفيان لي. وكانت تشاهد الأفلام المصرية أيضاً مثل «رصاصة في القلب» مسرحية توفيق الحكيم وتمثيل محمد عبدالوهاب، وغيرها من الأفلام. كانت رؤية الأفلام تلبي حاجتها الروحية الى الفن، وكان يطيب لها أن ترى الروايات

التي قرأتها مجسدة على شاشة الفيلم وترى كيفية فهم المخرج لها وتصوره لشخصياتها، مما يثير خيالها ويعطيها صورة جديدة عن الكتاب. ولا شك أنها لم تكن تذهب بمفردها وانما مع اخوتها.

أما الحفلات فكان اقبالها عليه أقل لأن مستواها الفني لم يكن مرضياً وكانت قليلة نظراً لضيق النشاطات الفنية ومحدوديتها. ففي ٩ آذار/ مارس ١٩٤٥ أقيمت حفلة رقص شرقي في جمعية بيوت الأمة وأحيتها المغنيات المعروفات آنذاك سليمة باشا وعفيفة اسكندر ونرجس شوقي. ولم يعجبها غنج الراقصات وحركاتهن.

كانت نازك تقرأ كل ما يصدر من كتب جديدة في الشعر والأدب والفلسفة التي تصل الى العراق. واعتادت أن تشتريها من (المكتبة العصرية) ومكتبة (مكنزي) والأولى مشهورة بكتبها العربية والثانية بالانكليزية. وكانت لها هواية خاصة بكتب النحو ك(شذور الذهب) لابن هشام و(مغني اللبيب) وكانت تقرأ الكتب الفلسفية ولاسيما أعمال نيتشه وشوبنهور وجورج سانتيانا وجون ديوي. هذا إضافة الى الكتب الكلاسيكية في الأدب والشعر التي كان يتغذى بها فكر مثقفينا.

ومن الأمور التي كانت نازك توليها اهتماماً خاصاً هو توجيه أختها الصغرى سها للقراءة المثمرة والتي توسمت فيها أن تكون شاعرة لامعة، وكانت تدعوها (سوسو) تحبباً ودلالاً لها. وطلبت منها نازك أن تناديها باسم (مهاة) وهي المفرد من كلمة مها ولم تكن تحلو لها كلمة (باجي) المتداولة بين الناس والتي تنادي بها صغيرات العائلة كبيراتها. اعتادت نازك أن تعطي سها كتباً ذات مستوى عال لا تتناسب مع سنها، فكانت صعبة الفهم عليها ومع ذلك لا تتوقف عن قراءتها برمتها ارضاء لأختها. ان رضا نازك هو فوق كل اعتبار عندها. ولهذا قرأت وهي في العاشرة من عمرها (الالياذة) و(الأوديسة) و(عودة الروح) و(يوميات نائب في الأرياف) لتوفيق الحكيم. وكانت سها تهتم بعدد الكتب التي تقرأها ولا يهمها ان فهمتها أو لا. غير أن نازك تسألها أحياناً وتناقشها لتعرف ما الذي استطاعت أن تفهمه فتوجز لها أحداث الكتاب ومحتواه. ومن الكتب التي كانت تأمل أن تفيدها عباراته (أوراق الورد)

لمصطفى الرافعي لجمال أسلوبه وسعة خياله. وكانت كتب المنفلوطي العاطفية أقرب الى نفس سها ولهذا أقبلت على قراءة (النظرات) و(العبرات) بشغف.

قرأت سها كثيراً من كتب توفيق الحكيم غير أنها لاحظت أن نازك امتنعت عن اعطائها كتابه (الرباط المقدس) وغلب سها حب الفضول بشأنه وسبب تجاهل نازك له، أرادت أن تعرف محتواه وما ينطوي عليه من أشياء لا تقرها أختها. وفي عصر ذات يوم خرجت نازك من البيت، فانسلت سها الى مكتبتها وتناولت منها (الرباط المقدس). أخذت تقرأه وهي تتمشى رائحة غادية من بيتهم الى بيت جدهم الذي يقع الى جانبهم. وعادت نازك وسألتها بصورة عفوية:

ـ أي كتاب تقرأين؟

ـ الرباط المقدس.

ـ من سمح لك أن تقرأي هذا الكتاب؟

ـ لكنك سمحت لي بقراءة توفيق الحكيم!

ـ إلا هذا الكتاب!

ثم جرّته بقوة وغضب من يدها ودخلت البيت وهي في غاية العصبية. وعاقبت سها على ذلك بأن امتنعت عن الكلام معها مدة يومين أو ثلاثة، وكانت تعرف أن هذا يحز في نفس أختها أكثر من أي عقاب آخر. غير أن موقف نازك زاد من فضول سها. كانت تعرف فتاة تكبرها بسنتين وأكثر منها إدراكاً وخبرة للحياة، فأخبرتها بما حدث وأرادت له تفسيراً. لكن الفتاة قالت على الفور سأحصل على هذا الكتاب ونقرأه معاً. رفضت سها ذلك فما دامت أختها منعتها عن قراءته، فينبغي أن تفعل ذلك.

وعندما كبرت سها فهمت سبب غضب نازك، فقد عرفت أن مرد ذلك هو روحانية نازك ومثاليتها ونفورها من قضايا الجنس والزواج. كانت تؤمن بالحب المثالي العذري الذي يقاسي فيه المحب من اللوعة

والعذاب دون أن يمني نفسه بوصال الحبيب. فالوصال يحول الحب السامي الى حدث مادي وعادي.

كانت رواسي هذا الموقف قائمة في التربية البيتية نفسها، حيث لا يأتون على ذكر الزواج والحياة الزوجية في حضرة الفتيات، ويعتبرون من نقص التربية وقلة الأخلاق أن تسمع البنات مثل هذا الكلام. وإذا تقدم أحد لخطبة فتاة منهن فإن الوالدين هما اللذان يدرسان الموضوع بينهما وإذا كان الخطيب موضع رضاهما فعندئذ يفاتحان الفتاة ويسألانها إن كانت توافق أو ترفض، وكان من عادة بعض النسوة أن يطرقن الباب بحجة طلب الماء وهدفهن رؤية الفتيات من أجل أن يخطبن واحدة منهن. وكانت أم نازك لا تسمح لبناتها بإعطائهن الماء وتذهب لايصاله لهن بنفسها لأنها تدرك الغرض الذي جئن من أجله.

وبلغ أمر النفور من الزواج عند نازك أن شكلت في النصف الثاني من الأربعينات جمعية ضد الزواج ضمت أختها احسان والقاصة ديزي الأمير وأختها نعمت. كن يلتقين في البيت أو يتمشين على شاطيء دجلة قرب شارع (أبو قلام) ويجلسن هناك على مقعد ويتحدثن عن السينما والأفلام والأغاني والكتب التي قرأنها. أما مشاعرهن الداخلية فكن يلزمن الصمت حيالها لأنها من الأسرار التي ينبغي أن تظل دفينة في قمقم النفس. غير أن هذه الجمعية تصدعت وانسلت منها منتسباتها وكانت أخت ديزي الأمير أول من تزوجت منهن في عام ١٩٤٨.

اعتادت نازك أن تقضي مع صديقاتها ساعات جميلة، وكانت لطيفة المعشر، يتلون ما حفظن من شعر محمود حسن اسماعيل الذي كانت نازك معجبة به قبل علي محمود طه، ويتحدثن عن الأبيات الشعرية أو الكلمة التي تتصف بالجمال أو القبح ويتكلمن على أدباء وشعراء المهجر كجبران خليل جبران وإيليا أبي ماضي وغيرهما، ويتطرقن الى الخلود والحب والحياة. وقد نظمت ذات مرة قصيدة ببعض تلك المواضيع التي كن يتحدثن عنها وأهدتها الى صديقتها ديزي الأمير ولكنها وضعت الحروف الأولى من اسمها لأنها لم تأخذ موافقتها المسبقة على ذلك

وخشيت أن تحرجها إذا كتبت الاهداء صريحاً، والقصيدة عنوانها (خرافات) صدرت ضمن ديوان (شظايا ورماد) وكتبت في مقدمتها:

«هدية الى صديقتي د. أ. تحية لذكرى مساء فلسفنا فيه كل شيء حتى الكراسي والمناضد والستائر»[1].

كانت نازك متزمتة حيال العلاقة بالرجل ونظرتها محافظة، وقد التزمت بهذا الموقف المتشدد حتى عندما تقدمت في السن وصارت لها مكانتها الشعرية المرموقة. فظلت متمسكة بالتقاليد الاجتماعية الصارمة. فذات مرة في بيروت دعاها الناقد احسان عباس لتناول الغداء تكريماً لها. غير انها وجدت صعوبة في قبول تلك الدعوة والذهاب بمفردها. واستشارت صاحباتها اللواتي كن قربها، وهما القصاصتان ديزي الأمير وسميرة عزام وكذلك الأستاذة الجامعية صبيحة عزام، فقلن لها بصوت واحد ينبغي أن تذهب بالتأكيد، ومع ذلك فإنها لم تذهب الى الدعوة خشية أن يعتبر أن سلوكها هذا يتسم بشيء من التحرر غير المستحب.

اتصفت نازك بالتشدد أيضاً إزاء اهتمام المرأة بزينتها واقتناء الثياب الكثيرة ومراعاة المودة. وكانت هذه الصفة طبعاً فيها لم تأخذه عن أمها التي كانت تميل الى العناية بمظهرها، فتلف شعرها بتسريحات جميلة وتصرف مدة في وضع المكياج، بحيث انها كانت تقضي ساعة كاملة لتهيئة هندامها وزينتها إذا أرادت أن تخرج لزيارة أحد مما يثير حفيظة زوجها على هذا التأخير. وكانت نازك تحث أخواتها على البساطة وعدم وضع الأصباغ على وجوههن أو استعمال الأحذية ذات الكعب العالي، بل انها استاءت عندما خُطبت أختها سها واستعملت الكحل لتجميل عينيها والاصباغ لوجهها وقالت لها: «أنت أحلى كثيراً بلا مكياج». وقد أخذت نازك نفسها بهذا المسلك وظلت تؤثر البساطة والجمال الطبيعي على كل ما هو مصطنع ودخيل على جمال المرأة.

كانت نازك تنعى على المرأة ميلها للتأنق والاسراف فيه أحياناً لأنه

---

(١) نازك الملائكة، **شظايا ورماد**. بغداد ١٩٤٩، ص ٦٩.

يؤدي الى استلاب شخصية المرأة والابتعاد عن تحكم عقلها في سلوكها، هذا إضافة الى حاجتها المستمرة الى مزيد من المال الذي ينبغي أن تصرفه على هذه الأمور مما يكون له تأثيره السلبي على حياة العائلة المادية. وقد تبلورت هذه الآراء في ذهنها وكتبت عنها داعية المرأة الى الالتفات الى جمال آخر فيها:

«انه جمال ينبع من الروح الكبيرة المستوعبة والذهن الحر المرن والقلب النابض الرقيق، وهو جمال الخلق الكريم والعذوبة والخشوع لله والنزاهة وكبر النفس. وهذا الجمال لا علاقة له بالملابس والحلاّق لأنه يتألق على وجه كريم وعيون حنون معطاء، وهو يلمع على الشعر البسيط المسترسل الذي لا يهينه الحلاّق بالعبث به. هذا هو الجمال فتعريفه انه البساطة الانسانية والفطرة كما خلقها الله حية روحية متفتحة.

وأما التأنق فما أتفهه. وما أشد إذلاله لروح الانسان. التأنق هو الوسائل المصطنعة التي يظنونها تؤدي الى طريق الجمال. أو لنقل انه الجمال المزيف المصنوع بالوسائل الآلية وسواها. فبدلاً من أن تعتمد الفتاة على مرونة ذهنها وسعة ثقافتها وجمال روحها ورقة ابتسامتها نجدها تعتمد على كثرة ملابسها والتصنع في شعرها»[٢].

ظلت نازك تؤثر البساطة وتكره الركض وراء الأزياء الجديدة وما يتبعها من احتياجات أخرى كالحقائب والأحذية وملحقات الزينة كالأقراط والقلائد والأساور. وكانت حتى في المناسبات تتجنب شراء مثل هذه الأشياء كهدايا وتشتري ما له قيمة ثقافية. فقد أهدت لأختها سها السيمفونية الناقصة لشوبرت في عيد ميلادها السادس عشر، وهكذا كانت تفعل في الأعياد وغيرها من المناسبات.

ان حب الشعر والأدب كان يبعث في نفسها الأسى على فقدان مبدعيه حتى لو كانت غير متحمسة لهم. انه يذكرها بالدنيا الفانية وبزوال كل من عليها. وها هي الأخبار تنقل موت الرصافي في ١٦

(٢) نازك الملائكة، التجزيئية في المجتمع العربي. مقال (مآخذ اجتماعية على حياة المرأة العربية). بيروت. دار العلم للملايين، ١٩٧٤. ص ٥.

آذار/مارس ١٩٤٥ والذي اهتز له محبوه ومريدوه، وفي ١٤ آب/ أغسطس ١٩٤٦ تناقلت الاذاعات وفاة العالم والأديب الانكليزي هـ. جـ. ويلز.

ومع الأحداث الخاصة تهز انتصارات وهزائم الدول في الحرب العالمية الثانية العالم وتطرح مجدداً مستقبل البلاد العربية في كل قطر من أقطارها. وكان الناس يعانون من كابوس الغلاء والتموين والتقنين في المصروفات، وكانت الحماسة تعمر النفوس بامكانية التحرر والحصول على الاستقلال وجلاء الجيوش الانكليزية عن البلاد. كان الناس ينتظرون ميلاد عالم جديد بعد الحرب وتلتهب نفوسهم حماسة. هكذا كان الوضع في الأربعينات حيث طحنت فيه الحروب العالم.

كانت نازك تعيش هذه الأحداث وتأخذها الحماسة تارة والقنوط تارة أخرى وتواصل في الوقت نفسه دراساتها وعملها المدرسي ونظم الشعر. وتشارك بالسفرات العائلية والمدرسية التي تنقلها الى ربوع الطبيعة التي تشعر بالسعادة بين جنباتها. ففي عطلة نصف السنة قامت في شباط/ فبراير ١٩٤٧ برحلة مع مجموعة من زميلاتها في المدرسة وأختها احسان الى مدينة البصرة في الجنوب. وتجولت في أقضيتها ونواحيها كأبي الخصيب والزبير، وقامت بجولة في زورق بخاري في شط العرب ملتقى دجلة والفرات حيث يتحول مصب النهرين الى ما يشبه البحر ويتخذ منظراً جليلاً خلاباً بمياهه اللامتناهية وجرفه الترابي وطيوره التي تحوم صائحة أو صامتة فوقه.

وكانت نازك تسرها الزيارات العائلية خارج مركز بغداد بعيداً عن البيوت المتجاورة، حيث تستطيع أن تستمتع بجمال الطبيعة وتقضي ساعات بين أحضانها. ففي ٤ نيسان/أبريل ١٩٤٧ زارت عائلة الملائكة دار محمد شرارة في الرستمية. وكانت الرستمية ناحية معمورة بالبساتين وأشجار النخيل والدفلى والتكي، وكانت السكينة الريفية تعمر جنباتها. وتقوم فيها مدرسة دار المعلمين الريفية التي كان محمد شرارة يدرس فيها اللغة العربية. وقد أعجبت نازك بهذه الطبيعة الهادئة البعيدة عن ضوضاء المدينة وتجولت في أرجائها.

وفي تموز /يوليو ١٩٤٨ شاركت أختها إحسان وأخاها نزار في رحلة الى شمال العراق، فقد أقامت كلية دار المعلمين العالية، التي كانت احسان طالبة فيها، مخيماً صيفياً في سرسنك، حيث الجبال والأشجار الباسقة والينابيع المتفجرة وشلال (كلي علي بك). بهر جمال الطبيعة الجبلية نازك وملك عليها حواسها لدرجة أشعرتها انها تحيا في الجنة. وعندما عادت الى بغداد ظلت تتحدث عن ذلك الجمال الفتان الذي يأسر الروح والقلب وكانت تود أن تزور تلك البقعة الرائعة مرة أخرى. ومن النزهات الجميلة التي تحبها نازك قضاء أوقات المغرب والسهرة أيام الصيف في نهر دجلة. فقد كان ينخفض ماؤه صيفاً وتظهر في وسطه أرض رملية رطبة يسمونها (جزره) ينصب فيها ما يشبه الخيمة (الجرداغ). كانت العائلة وأقاربها وأصدقاؤها يزورون هذا المكان البارد الجميل مساء ويخوضون بأرجلهم في مياه دجلة الضحلة العذبة ويتناولون العشاء فيه ويسمرون ويغنون ويجلبون معهم الآلات الموسيقية التي يجيدون العزف عليها كالمندلين والكمنجة التي كان أخوال نازك يجيدون العزف عليها. وتحت قبة السماء الزرقاء والنجوم المتلألئة والقمر المضيء والهواء البارد بعد حرارة النهار والماء الرقراق يطيب السمر والغناء وترتاح الروح وتشعر بروعة الطبيعة. وقد وصف جميل الملائكة (خال نازك) أمسية من تلك الأماسي في قصيدة عنوانها (ليلة ٢٦ حزيران) نشرها في مجلة (العالم العربي) في ٧ تموز/يوليو ١٩٤٢ جاء فيها:

فيا للكمنجة والمندلين ... وللعود والناء والزامر
إذا انسجمت في الجميع اللحون ... فهلهن بالنغم السائر
وقد ألف الدف ما بينهن ... فبوركت «حمدان» من ناقر
وسرنا بمستعذب الأغنيات ... نطيف على الشاطىء الدائر

هكذا كانت تمر ساعات وأيام الراحة فتعيد البهجة الى النفوس وتخلصها من رتابة الحياة اليومية وتمدها بقوة جديدة للإقدام على العمل ومواصلته بجد ومثابرة.

الديوانان الأولان والشعر الحر

وجدت نازك ان بحوزتها مجموعة كبيرة من القصائد التي انتقتها من نتاجها الشعري الوافر والتي حظيت برضاها من حيث المستوى الفني، فجمعتها في ديوان وطلبت من أختها احسان ان تكتب لها مقدمة ودفعتها إلى المطبعة. صدر ديوانها الأول «عاشقة الليل» في يوم الثلاثاء المصادف ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر١٩٤٧، فتلقفه القراء بين معجبين ومتعجبين من حزن بنت الرافدين وكآبتها وتشاؤمها. وكتبت الجرائد والمجلات عنه، ولفت النظر إلى عائلة الشعراء التي تسكن في شارع (أبو قلام). ولعل البعض رأى في نازك صورة أخرى من غادة (الكاميليا) الشابة الجميلة العليلة الحزينة. ووصلت مجلة «آخر ساعة» المصرية تصف بيت الملائكة فتقول:

«بيت بسيط كأنه عش العصافير.. بعيد عن ضوضاء بغداد... تنبعث منه آهات من قلوب عذراء تذكرنا بآهات الأخوات أميلي برونتي وآن وشارلوت شاعرات انكلترا...»[1].

أثارت نازك بحزنها، بعشقها الليل، بتبرمها من العيش في (وادي الجيل) بـ(نغمات مرتعشة) خيال الشعراء والكتّاب. حيرتهم هذه الفتاة الحالمة وأثارت قرائحهم الشعرية. وفي مجلس أدبي التأم شمله في دار الملائكة في آب/أغسطس ١٩٤٨، ارتجل المجتمعون أبياتاً وقصائد يعبرون فيها عن مشاعرهم. فارتجل الشاعر محمود الحبوبي النجفي أبياتاً موجهة إلى شاعرتنا، جاء فيها:

---

(١) مجلة، آخر ساعة، عدد ٧١٧. ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٩.

أعاشقة الليل هاتي الضحى ... بياناً بديعاً وشعراً رفيعا[٢]
روائع أبياتك الساحرات ... تفيض بياناً وتجري دموعا
فطوراً ترينا هجير الحياة ... فنشجى وطوراً ترينا الوجيعا

كانت نازك وأمها لا تحضران عادة مثل هذه المجالس التي يقتصر فيها الحضور على الرجال فقط. وسلموا هذه الأبيات لها بواسطة أحد أخويها، فارتجلت نازك تحتها الأبيات التالية وأعادتها لهم:

أغاريد من شاعر أم عبير ... ترش سحائبه آلهة
أحس وراء المعاني الحياة ... وأسمع ترنيمة تائهة
وفي كل بيت شعور محا ... صدى كل أغنية تافهة
شذاها فتى لا يحس النشيد ... ويرسمه صورة شائهة

أنعشت هذه الأبيات الحاضرين فأخذوا يرتجلون الشعر مطرين بيت الملائكة، بيت الشعر والشعراء. وأخذ الحاضرون من الشعراء يرتجلون الشعر وهم الاستاذ عبد الرسول الجشي والعلامة عبد الوهاب الصافي والاستاذ هادي محيى الخفاجي والأستاذ صالح عبد الغني كبه وشاركهم صادق الملائكة في ارتجال الأبيات. تمنى الشاعر عبد الوهاب الصافي ان يديم الله هذه الدار والجلسات فيها فقال:

بيت الملائك لا برحت منارة ... للشاعرين وندوة الأدباء
فلقد قضينا فيك أجمل ليلة ... باللطف تشبه ليلة الإسراء

وقد جمعت هذه القصائد وأرسلت إلى أم نزار الملائكة، فردت عليها بأربعة أبيات ارتجلتها ثم بعثتها إليهم كما فعلت ابنتها نازك. وعندئذٍ اختتم صالح عبد الغني كبه هذا المجلس الأدبي مرتجلاً البيتين التاليين:

قالوا عكاظ مضى ودالت دولة ... للشعر قد رفعت أعز لواء
فأجبتهم كلا سيبقى خالداً ... بيت الملائك ندوة الشعراء

وقد صدرت مقالات حول الديوان في بعض المجلات العربية، تساءل معظمها عن سر الحزن والكآبة اللذين يخيمان على أجواء الديوان،

---

(٢) ملحق الغري، العدد ٢ (السنة الحادية عشرة) النجف. ١٢ محرم ١٣٦٩/١٩٤٨. كتب (ملحق الغري) وصفاً لتلك الجلسة ومنه اقتبسنا الأبيات المدونة.

وشطت ببعضهم الظنون لأنهم لا يعرفون البيئة الاجتماعية المتنورة التي تحيا شاعرتنا بين ظهرانيها. وقد حاول محمد شرارة ان يتلمس تلك الأسباب فكتب في مقال عنوانه «عاشقة الليل، وهل في الليل ما يعشق؟»:

«إذن ما هي بواعث هذا الأنين المتصل وهذه اللوعة المستمرة؟ وليس الجواب عن هذا السؤال بهيّن، فربما كانت وراء هذه اللوعة بواعث متصلة بالمجتمع من حيث الشكل ومن حيث الأوضاع والعنعنات البالية، ومن حيث الحكم وأساليبه الراجعة إلى أسخف عهود الاقطاع... وربما كانت متصلة بعاطفة ذاتية خاصة»(٣).

في أثناء انتظار صدور ديوان «عاشقة الليل» كانت ترد أنباء مفجعة عن ضحايا وباء الكوليرا الذي انتشر في مصر وأخذ يحصد الناس بالمئات ويتزايد عددهم يوماً بعد آخر. حاولت نازك ان تعبر عن حزنها بالشعر، ولكن الأبيات بدت لها قاصرة. فألقتها جانباً، غير انها أعادت المحاولة لأنها ما كانت تستطيع الشعور بالاستقرار والهدوء النفسي إذا لم تنفس عن كربها. ولم ترض من أبيات القصيدة الثانية أيضاً وتملكتها الحيرة من عدم مطاوعة الشعر لها. وفي صباح الجمعة المصادف ٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٧ ظلت مسترخية في فراشها تصغي إلى الأخبار التي ينقلها الراديو، فبلغ سمعها رقم آثارها، لقد وصل عدد الموتى إلى ألف في اليوم! اهتاجت نفسها واهتزت أحاسيسها فنهضت من الفراش وغادرته. تناولت قلماً ودفتراً وذهبت إلى منزل مجاور لها ما زال في طور البناء، فجلست فيه بعيداً عن ضوضاء بيتهم، وبدأت تكتب، فأسلست الأبيات لها قيادها، ولكنها خرجت بشكل جديد مغاير لما اعتادت ان تنظمه. طغت عليها الفرحة لأنها استطاعت أن تعبر عن مشاعرها بأسلوب يعتمد «الأشطر غير المتساوية الطول». وهكذا ولدت أول قصيدة نظمتها في الشعر الحر، وهي قصيدة (الكوليرا) التي كتبتها في بحر ساعة. أثارها الشكل الجديد الذي عبّر عن أحزانها وأخذت تردد:

---

(٣) مجلة **العرفان** اللبنانية، كانون الثاني/يناير ١٩٤٨.

الموت، الموت، الموت
تشكو البشرية تشكو ما يرتكب الموت.

ولم تستطع البقاء في خلوتها فقد كانت شديدة الانفعال، تريد ان يشاركها أحد فرحتها. عادت إلى البيت وأطلعت أختها احسان على القصيدة وكانت متلهفة لمعرفة رأيها لأن لها ثقة كبيرة بها وتأخذ بملاحظاتها التي تبديها على شعرها. وارتاحت نفسها عندما أعلنت احسان عن إعجابها الكبير بالقصيدة. وذهبت إلى والديها، فعرضتها على أمها، وبعد ان قرأتها تساءلت بفتور ينم على عدم الرضاء:

«ما هذا الوزن الغريب؟ ان الأشطر غير متساوية، وموسيقاها ضعيفة يا بنيتي»(٤).

وكان هذا أول جفاء وبرود يُستقبل به الشعر الحر الوليد. غير ان هذا الجفاء لا يعد شيئاً مع الاصطدام الذي حدث مع أبيها. دخلت إلى مجاز البيت الذي اجتمع فيه أبوها واخوتها وناولته القصيدة فقرأها، ولم ترق له قط وتوقع الاخفاق التام لهذا النمط من الشعر، ورد ساخراً ببيت من الشعر على تكرار كلمة الموت في القصيدة:

لكل جديد لذة غير انني وجدت جديد «الموت» غير لذيذ

وتعالى ضحك أخوتها عندما سمعوا هذا البيت وغضبت نازك وتوترت أعصابها وهزها موقف أبيها، فصاحت بحماسة وإصرار:

«قل ما تشاء. إني واثقة ان قصيدتي ستغير خريطة الشعر العربي»(٥).

كان هذا أول اصطدام قوي للشعر الحر بممثلي الشعر العمودي الثابت العماد شهدته نازك باديء ذي بدء في محيطها العائلي الصغير، ومن هذا البيت خرج إلى المجال الأوسع، إلى صفحات المجلات والجرائد حيث أخذ يخوض معركة غير متكافئة وهو ما زال لين العود. غير انه استطاع مع مرور الزمن ان يحتل له مكانة تليق به. لقد كانت قصيدة الكوليرا حدثاً

---

(٤) نازك الملائكة. لمحات من سيرة حياتي وثقافتي. ص ٤،٥.
(٥) المصدر نفسه. ص ٥.

مهماً في حياة نازك الشعرية شهد تفتح شاعريتها وتطور ابداعها. وتقول في هذا الصدد:

«ومنذ ذلك التاريخ انطلقت في نظم الشعر الحر، وإن كنت لم أتطرف إلى درجة نبذ شعر الشطرين نبذاً تاماً، أو مهاجمته، كما فعل كثير من الزملاء المندفعين الذين أحبوا الشعر الحر واستعملوه بعد جيلنا»(٦).

ومع مطلع عام ١٩٤٨ بدت امارات النكبة الكبرى التي حلّت بالعرب جلية دامية، فقد تمّ تقسيم فلسطين وإقامة دولة اسرائيل فوق أرضها. فألهبت هذه الفجيعة النفوس وخرجت مظاهرات الاحتجاج مطالبة بوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين وأضربت الكليات وشهد العراق حالة غليان تأججت فيها المشاعر الوطنية إلى درجة قصوى احتجاجاً على صمت الدول العربية بما حلّ بفلسطين من تقسيم واحتلال. وفي ٥ أيار/مارس ١٩٤٨ انسحبت القوات البريطانية من فلسطين وفق خطة مرسومة مع الصهيونية، وذهبت جيوش سبع دول عربية إلى فلسطين لتحريرها! وازداد السخط والغضب في النفوس وتطوع الناس وخصوصاً الطلبة للقتال والجهاد. وما ان مرّ أقل من شهر على انسحاب القوات البريطانية حتى أعلنت الهدنة في ١٢ حزيران/يونيو ١٩٤٨ بين العرب والصهاينة.

كانت نازك وأمها تتقطعان ألماً وهما تسمعان الأخبار وهي تزف أنباء الهزائم صباح مساء. لقد فشلت الجيوش العربية في طرد الصهاينة وتواردت أنباء الأسلحة الفاسدة التي زوّد بها الملك فاروق الجيش المصري والتي كانت لا تنطلق من المدافع أو ترتد على الجنود المصريين! وتعالت الأصوات الساخطة الملتاعة لهذه الهزيمة المريعة، وقال شاعر:

سبعون مليوناً وسبع ممالك وجيوشها يا خيبة الإحصاء!

هذا ما كان يثير العرب. وعاد الجيش العراقي مكسور الجناح وصارت عبارة (ماكو أوامر) التي كان الجنود العراقيون يستخدمونها رداً على

---

(٦) المصدر نفسه. ص ٥.

سؤال الفلسطينيين، ماذا جئتم تفعلون هنا، لماذا لا تقاتلون؟ وصارت (ماكو أوامر) موضع تندر وسخرية مؤلمة يستعملها الناس في حديثهم وتنوّه بها الصحف. وتشير نازك في مقدمة ديوان (أنشودة المجد) إلى معاناة أمها والتي هي جزء من معاناتها قائلة:

«وبمقدار هذه الثقة العظيمة بالعرب كانت خيبتها وعذابها عندما فشلت سبعة جيوش عربية في طرد الصهيونية من فلسطين، ومع انها كانت تدرك أن أسباب الفشل سياسية فلا تتصل بشجاعة الجيوش وحماستها، إلا ان عذابها لم يهدأ فكانت قصيدتها النارية التي استقبلت بها وصول اللاجئين إلى بغداد وفيها نراها أول مرة في حياتها تفقد الثقة بالعرب أو تكاد فتصيح وهي تبكي وتتأوه وتصرخ:

كفرتُ بمجدك يا أمتي	ومـا المجـد إلاّ صـراع ودم
كفرتُ بما ندعي من إباء	ومن كبرياء وبقيا عِظَمْ
شككت شككت فكيف أردّ	على القلب جانحه المنحطِمْ؟»[٧]

كانت هذه صرخة كل العرب الذين راعهم ما لحق بفلسطين من ذلّ ونكبات وتشرد. غير أن هذا السخط كان لا بد من إعادته إلى قمقمه وكبته. وبدأت فترة عصيبة في حياة البلد، فأعلنت الأحكام العرفية وصودرت الحريات التي تمتع بها الشعب بعد إحباط معاهدة (بورتسموث) التي أرادت بريطانيا فرضها على العراق بدل اتفاقية ١٩٣٠. وقد أدت المظاهرات الدامية التي سقط فيها كثير من الضحايا إلى إلغاء تلك المعاهدة وسقوط الحكومة. غير ان عهد الحرية لم يدم طويلاً، وعاد الوضع إلى أقسى مما كان عليه في السابق.

وكانت حياة عائلة الملائكة تسير في مجراها اليومي في خضم هذا الجيَشان الوطني والاضطهاد الذي تعيشه البلاد، تتألم النفوس وتلزم الصمت المفروض على الجميع وتستمر المجالس الأدبية والزيارات وتتبّع الكتب الجديدة. فقد زار بيت الملائكة الدكتور عبدالرحمن بدوي والشاعرة دعد الكيالي والمنولوجست العراقي المشهور عزيز علي

(٧) أم نزار الملائكة. أنشودة المجد. بغداد. ١٩٦٥. ص ١٢.

وتمتعت عائلة الملائكة بأغانيه الهزلية وبالسخط المبطن الذي تنطوي عليه بعض أغانيه.

ونزلت بالعائلة نكبة عرف فيها أبناؤها للمرة الأولى وجه الموت الكالح. فقد مرضت العمة فاطمة التي ربت الصغار جميعهم، ومن قبلهم أمهم عندما تيتّمت في طفولتها. وكان مرضها ثقيلاً، توفيت على أثره في يوم الاربعاء ٢١ كانون الثاني/يناير ١٩٤٨. ترك موتها فراغاً كبيراً في حياتهم ولوعة في نفوسهم، وكانت صدمة أم نازك كبيرة بها لأنها كانت بمثابة الأم الرؤوم لها.

وكانت أنباء الإذاعات والجرائد تحمل أخبار الموت المخيفة، الموت قتلاً واغتيالاً لرجال سياسيين ولبعضهم مكانة مرموقة متميزة. ففي يوم الجمعة ٣٠ كانون الثاني/يناير ١٩٤٨ فاجأ أحد البوذيين المهاتما غاندي وأرداه قتيلاً بأربعة عيارات نارية. وفي العام نفسه أغتيل برنادوت مبعوث الأمم المتحدة في فلسطين، والنقراشي رئيس وزراء مصر. وجاءت الأنباء عن وفاة الشاعر علي محمود طه في ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٩ وقبل ذلك التاريخ نعت الصحف موت الكاتب ابراهيم المازني. وكانت أنباء الموت تثير مشاعر نازك وتملأ قلبها حزناً وغماً وهي ترى ما يجري في العالم من حولها وكيف يتهاوى الناس أمام سلطة الموت وقوته وقسوته.

كانت نازك قد جمعت قصائدها لإصدار ديوان شعر ثانٍ. وفي ٢٨ حزيران/يونيو صدر (شظايا ورماد)، طبع في بغداد ورسم غلافه الفنان العراقي الراحل خالد الرحّال. وكان كما جاء في الإهداء الذي كتبته على النسخة التي أعطتها لإحسان:

«حصاد سنتين من أيامي أهديه إلى أختي العزيزة إحسان بكل ما فيه من جنون الشظايا وذبول الرماد».

وفي اليوم التالي من صدور الديوان غادرت نازك العراق مع مجموعة من صديقاتها في سيارة شركة نيرنو المعروفة آنذاك وتوجهت إلى لبنان في أول سفرة لها خارج العراق.

تركت المقدمة التي كتبتها لديوانها (شظايا ورماد) أثرها الطيب في

لفت النظر إلى طبيعة الشعر الحر الذي نظمت به بعض قصائد هذا الديوان. ونعت فيها على الشعراء أسلوب نظمهم:

«ما زلنا نلهث في قصائدنا ونجرّ عواطفنا المقيدة بسلاسل الأوزان القديمة، وقرقعة الألفاظ الميتة...».

ووجدت:

«... ان اللغة العربية لم تكتسب بعد قوة الايحاء، التي تستطيع بها مواجهة أعاصير القلق والتحرق التي تملأ أنفسنا اليوم».

وبيّنت ان الشاعر أو الأديب هما اللذان يطوران اللغة لأنهما يملكان الإحساس المرهف للألفاظ ومعانيها وهذا ما لا شأن للغوي به. ولهذا فإن (شظايا ورماد) احتوى على «لون بسيط من «الخروج» على القواعد المألوفة» لأن «هذا الاسلوب الجديد في ترتيب تفاعيل الخليل يطلق جناح الشاعر من ألف قيد» وتناولت بعض القصائد التي نظمتها وفق الاسلوب الجديد لتبيّن ما فيها من إيجاز وعدم تكلف وسهولة التعبير وجمال الألفاظ وأوضحت في الوقت نفسه انه:

«وينبغي ألاّ ننسى ان هذا الاسلوب الجديد، ليس «خروجاً» على طريقة الخليل، وانما هو تعديل لها، يتطلبه تطور المعاني والأساليب خلال العصور التي تفصلنا عن الخليل»[٨].

كانت هذه المقدمة بمثابة البذرة التي نمت منها دراساتها ومقالاتها التالية حول الشعر والشعر الحر. ومنذ عام ١٩٥٠ بدأت تولي اهتماماً متزايداً للكتابات النقدية. وكانت قد تمكنت في هذه الفترة من اللغة الانكليزية لدرجة صارت تكتب بها بطلاقة. وفي موسم النشاط الثقافي الذي أقامته كلية الآداب في جامعة بغداد ألقت نازك محاضرة باللغة الانكليزية عن شعرها في ٢٦ شباط/فبراير ١٩٥٠. وألقى الأديب الانكليزي جيمس ليفر محاضرة عنوانها: (الطبيعة في الشعر الانكليزي) في قاعة كلية الآداب أيضاً، حضرتها نازك مع أختها احسان. وكانت نازك لا تفوت المحاضرات التي يلقيها المثقفون العرب أو الأجانب في

(٨) نازك الملائكة. شظايا ورماد. ص ٣ - ٥، ٨، ١٠.

بغداد فقد استمعت إلى محاضرة الشاعر والأديب الانكليزي وصديق عائلتهم ديزموند ستيوارت التي ألقاها في كلية الآداب أيضاً.

وقامت بينها وبين المثقفين الأجانب علاقات ودية. فقد كانت تزور مع أختها إحسان مس بلين في بيتها الكائن على شاطىء دجلة في الصالحية وتدور بينهم أحاديث ومناقشات حول الأدب والرسم، فقد كانت مس بلين تدرس الرسم في المجلس البريطاني في العراق. وكانت تزورهم في دارهم في الكرادة. ففي أيار/مايو ١٩٥٠ تناولت مس بلين ومستر ديزموند ستيوارت الشاي عندهم في بيتهم في أبي قلام ودارت أحاديث ممتعة حول الحياة والشعر والانسان.

كانت نازك تتطلع في تلك الفترة إلى الآفاق البعيدة عبر البحار والمحيطات، للسفر إليها والدراسة فيها وإشباع ظمأ الروح إلى رؤية ثقافة وحضارة وعوالم جديدة، والتعرف على حياة الناس في مجتمع مغاير في تطوره ومفاهيمه وقيمه لمجتمعها. وقد ملك هذا التوق عليها جوارحها منذ ان حصلت على شهادة الليسانس من دار المعلمين العالية ولم تكن لتقنع بها وحدها. كانت تريد ان تحصل على شهادة الماجستير فالدكتوراه. وظل هذا الأمل يحدوها حتى تحققت لها فرصة الدراسة في الخارج.

الرحلة الدراسية الأولى

في صيف ١٩٥٠ تحققت أمنيتها العلمية فقد حصلت على زمالة دراسية من مؤسسة روكفلر. بقيت قضية أخرى مهمة معلقة لبعض الوقت أثارت قلقها ومخاوفها، وهي الحصول علي قبول في جامعة كمبردج في انكلترا لأن تقديم الطلب إليها جاء متأخراً. وظلت تنتظر الجواب وهي تشعر بالضيق يغشى حنايا نفسها. وفي أواخر تموز/يوليو عرفت من السيد كيت الذي يعمل في المعهد البريطاني والمسؤول عن قبولها في الجامعة بأنه تلقى برقية تعتذر فيه الجامعة عن قبولها في السنة الدراسية الحالية لعدم وجود مكان. كان وقع هذا النبأ مؤلماً للغاية عليها لدرجة فقدت معها شهيتها للطعام. غير ان نازك تحاول دائماً كتم أحزانها وتملك زمام نفسها، فظلت تظهر بمظهرها الهادىء الذي يعرفه بها أفراد عائلتها، لأنها تكره ان تبعث الحزن في نفوس أهلها بسبب قضاياها الخاصة.

غير ان السيد مارشال مسؤول مؤسسة روكفلر وعدها ان يبذل أقصى جهده ليحصل لها على مقعد دراسي في كمبردج. وطمأنها بأنه سيوفدها في السنة المقبلة إن فشلت مساعيه للعام الدراسي الحالي. لم يبعث هذا الوعد الراحة في نفسها، بل انه شكل صدمة لها، لأن عليها ان تنتظر سنة أخرى في العراق! لقد هيأت ذهنها للدراسة في الخارج، ولم تعد تطيق صبراً على تأجيلها والانتظار مجدداً.

وبين هذه الهموم المقلقة والتأرجح بين الأمل واليأس، واصلت نازك دراسة اللغتين اللاتينية والفرنسية وظلت تحفظ قوائم تصريف الأفعال وتغير نهايات الأسماء اللاتينية. وفي الوقت نفسه بدأت بكتابة ملحمة

أدخلت فيها أساطير عربية واغريقية وبابلية، ووجدت انها بدأت بمرحلة جديدة في تطور شاعريتها.

باءت جهود السيد مارشال بالفشل في الحصول على مقعد دراسي لها في جامعة كمبردج، غير انه استطاع ان يحصل لها على قبول في جامعة برنستون في ولاية نيوجرسي في أميركا. ومع انها كانت تفضل الدراسة في كمبردج وفي انكلترا، غير انها ارتاحت لهذه النتيجة وداخلها سرور كبير لاستطاعتها الدراسة في الخارج للعام الحالي.

في ٢٥ أيلول/سبتمبر ذهبت بسيارة تاكسي مع أفراد عائلتها إلى المطار الصغير الذي كان يقع غير بعيد عن مركز العاصمة في ذلك الوقت. وبعد إجراء معاملة السفر من تسليم الحقيبة وتأشير جواز السفر، وقف أهلها يودعونها بضمها بين أذرعهم وتقبيلها. وأخذوا يلوحون لها بأيديهم وهي تدخل الطائرة. بدت أمارات الوجوم على بعضهم وسالت الدموع على خدود البعض الآخر وتصبّر قسم منهم كيلا يثيروا شجونها، فهي تفارق بيت طفولتها ويفاعتها لأول مرة وبمفردها دون رفيق معها، ولمدة أشهر طويلة. وما ان بدأت الطائرة بالاقلاع حتى جاشت لوعة الفراق بين حناياها وهي تنظر إلى أيدي أهلها الملوحة لها من بعيد وخنقتها الدموع. وحين صارت الطائرة في الجو أطلقت لنفسها العنان فانخرطت في بكاء حار ومن خلال غبش الدموع لاحت لها وجوههم وأيديهم المعبرة عن عواطفهم الفياضة نحوها.

أقلتها الطائرة من بغداد إلى بريطانيا بادىء ذي بدء، ومكثت هناك بضعة أسابيع، تعرفت فيها على معالم البلد الثقافية والأثرية، وقد نظّمت لها مؤسسة روكفلر هذه الزيارة. أعجبتها كثيراً جامعة كمبردج وأكسفورد، اللتان كانت تحلم في الدراسة في واحدة منهما. ظلت زيارتها لانكلترا راسخة في ذهنها حتى بعد ان غادرتها إلى أميركا، بل انها كانت تتصور نفسها أحياناً وهي في أميركا انها ما زالت في انكلترا التي أسفت على فراقها وأحست لها بوحشة.

ومن انكلترا أبحرت نازك عبر المحيط الأطلنطي على متن باخرة ضخمة متوجهة إلى اميركا. كانت روحها ونظرها يرتويان من جمال المحيط بمياهه الداكنة اللون المترامية التي تبدو لا نهاية لها ولا شاطىء. وكانت نازك تهوى السفر وتتوق إلى رؤية البلاد النائية. وها هي ذا تتطلّع إلى ما حولها وتتأمله بفرح وإرتياح تخالطهما تلك الدهشة التي تخلقها الرؤية الأولى لما كان مجهولاً لبصرها.

وما ان قطعت الباخرة مسافة من الطريق حتى هبّت عاصفة هوجاء، لم يشهد لها المحيط وأميركا من قبل مثيلاً إلاّ في عام ١٩٣٨. غير ان ربان الباخرة كان يمخر عباب المحيط بعناد وثبات، رغم ان الباخرة كانت معرضة لأن تجتثها العاصفة وتبتلعها الأمواج لولا ضخامتها ومهارة بحّارتها. لم تدرك نازك مدى الخطر الذي كانت فيه إلاّ عندما وصلت إلى نيويورك. هناك قرأت الجرائد واطلعت على مدى الخسائر الجسيمة التي سببتها العاصفة ووصلت إلى مئات الملايين من الدولارات، وكانت الجرائد تنشر باستمرار الصور والأخبار عنها حيث تتزايد الأضرار الناتجة عنها كل يوم.

كان المطر يهطل بغزارة في نيويورك، والجو بارداً والثلوج تتساقط في أماكن أخرى من الولايات المتحدة عندما جاء موظف من مؤسسة روكفلر وأوصل نازك إلى محطة قطار بنسلفانيا في يوم من أيام أواخر تشرين الثاني/نوفمبر استقلت القطار المتوجه إلى برنستون، واتخذت لها مقعداً قرب النافذة وأخذت تتأمل المناظر الطبيعية الجديدة عليها والقطار يطوي المسافات وعجلاته تضج وتهدر وبدا كأنه مارد عملاق يندفع ويتلوى وينهب بشجاعة آلاف الكيلومترات ويخلفها وراءه. شد جمال الطبيعة ناظري نازك ولا سيما منظر الثلج المهيمن على كل شيء، الراقد فوق الأرض الخالية وعلى الأشجار والبيوت والمتراكم على أطر النوافذ والسقوف، عالم أبيض ناصع بارد لم تشهد له مثيلاً من قبل. أثار فيها هذا المنظر الغبطة وأشعرها بجمال الحياة، وكانت تشعر بالراحة والسرور لأنها سترى المزيد والمزيد مما يملأ روحها بالجمال.

عندما وصل القطار المحطة وجدت في استقبالها البروفسور فيليب

حتي، رئيس قسم الدراسات الشرقية في جامعة برنستون برفقة زوجته. جاء بسيارته الخصوصية لاستقبالها، وفرحت نازك بمجيئهما وتعرفها عليهما وبلطفهما الجم وتقديرهما العالي لها. وضعا حقائبها في السيارة وتوجها بها حالاً إلى جامعة برنستون. ما إن استراحت قليلاً وتناولت طعام الغداء معهما حتى أخذ يعرّفها على اساتذة الجامعة الذين ستحضر محاضراتهم ومعظمهم من الانكليز، وكانوا يحددون لها على التو المادة الدراسية لها، وبينهم عدد كبير من كبار الأساتذة. وتقول في هذا الصدد:

«وقد أتيحت لي في هذه الفترة الدراسة على أساطين النقد الأدبي في الولايات المتحدة مثل: ريتشرد بلاكور، وآلن داونر، وآلن تيت، ودونالد ستاوفر، وديلمور شوارتز وكلهم أساتذة لهم مؤلفات معروفة في النقد الأدبي كما عرفوا بأبحاثهم في مجلات الجامعات الأميركية وسائر الصحف الأدبية»[١].

كانت نازك تصغي إلى هؤلاء الأساتذة اصغاء المتلهف للعلم والمشوق للانكباب على الدراسة التي كانت تحلم بها لسنوات وسنوات، وهي في بغداد. وأول ما لفت انتباهها هو المكتبة الضخمة الواسعة بطوابقها المتعددة وتدفئتها الممتازة ووسائل الراحة المتوفرة فيها بحيث تجعل الطالب متفرغ الذهن للدراسة وحدها. وشعرت في الجامعة مرة أخرى بهول العاصفة التي عاشتها وهي في طريقها إلى أميركا. فقد كان البروفسور حتي يقدمها في أغلب الأحيان للمسؤولين والناس بأنها الآنسة نازك الملائكة التي كانت تعبر المحيط الاطلنطي في أثناء العاصفة. وترى في أعينهم أمارات الخوف والدهشة، ويزداد وعيها بمدى الخطر الذي كانت فيه. وعندما وصلت إلى برنستون رأت آثار العاصفة فيها قوية مدمرة. فقد اجتثت مئات الأشجار الضخمة المعمرة من جذورها وكسرت أبواب الدور والنوافذ.

تعرفت نازك على أبنية الجامعة من أقسام دراسية وإدارية ومطعم ونادٍ.

---

(١) نازك الملائكة. لمحات من سيرة حياتي وثقافتي. ص ٨ - ٩.

كانت جامعة برنستون صغيرة مقارنة مع جامعتي كمبردج وأكسفورد اللتين زارتهما في انكلترا. غير انها وجدت تعويضاً عن حلمها القديم في المستوى العلمي الرفيع للجامعة وفي جمال الطبيعة المدهش الذي سحر نازك بروعته وفي البناء ذي الطابع الريفي والأشجار المنتصبة على امتداد الشوارع.

إن من تقاليد جامعة برنستون ان تقبل الرجال دون النساء، وكانت نازك الطالبة الوحيدة فيها، مما كان موضع دهشة كل من يلتقي بها في الجامعة، وأحياناً يبتسم بعضهم ويقولون: أول فتاة في تاريخ برنستون!.. ولم يكن في ذلك امتياز لنازك، بل وضع أمامها بعض الصعوبات. فالفتاة الوحيدة في الجامعة والقادمة من بلاد الشرق الدافئة لن تجد لها رفيقة تربطها بها أواصر الود أو الصداقة أو قضاء بعض الوقت معها عندما تروم الراحة بعد العناء الذي تعانيه من الانكباب على الكتب لساعات طويلة.

إن البعد عن الوطن ومفارقة الأهل والانتقال إلى بيئة غريبة عليها تماماً لم يكن يسيراً حين وصلت إلى أميركا. ومما زاد الأمر تعقيداً عليها اشتداد آلام الزائدة الدودية التي أحست بها عند وصولها إلى نيويورك، وعندما راجعت الطبيب أخبرها بضرورة إجراء عملية استئصال لها. اضطرت إلى دخول المستشفى وأجريت لها العملية وهي بعيدة عن أهلها ووطنها. كانت تفتقد حنان أبويها واخوتها، وكأن عواطفهم نحوها جزء وثيق من عملية الشفاء وشعرت بالقلق والتشاؤم لإجراء عملية دون وجود أحد منهم قربها. صبرت على مضض على حُرقة الفراق، يشجعها ويستحثها أمل واحد هو الاغتراف من كنوز المعرفة التي تتعطش لها روحها مما يمكن ان يكون بديلاً لوحدتها وغربتها. غير أن هذه الحال تركت فيها آثاراً من الكآبة والاضطراب، فذهبت إلى عيادة طبيب نفساني ليساعدها على التخلص من معاناتها وقلقها.

ومع بدء الدراسة كان لا بد من تذليل الصعاب التي أخذت تواجهها وهي تحيا لأول مرة خارج عشها العائلي الذي لم تغادره من قبل مثل هذه المدة الطويلة، وأول قضية عليها تذليلها هي إعداد الطعام لنفسها مما لم تعتد عليه سابقاً. كانت أمها قد أعفتها منذ صغرها من الأعمال المنزلية

التي تقوم بها أخواتها وبضمنها الطبخ لكي توفر لها وقتها وتنصرف كلياً إلى نظم الشعر والقراءة. وهنا، في أميركا، وجدت فجأة انها بحاجة إلى معرفة الشؤون المنزلية، وتمنّت لو ان أمها علّمتها بعضاً منها كي تستطيع ان تطهو بنفسها ما دام لا يمكن الحصول على الطعام الجاهز في الغرفة التي استأجرتها في برنستون. ووجدت انها لا تعرف الألف من الباء حتى في قضايا الطعام الأولية كصنع الشاي مثلاً. غير انها تغلبت على هذه المشكلة ووجدت لها حلاً بتناول الفطور في غرفتها، فصارت تشتري كميات من الخبز والجبن والزبدة، إضافة إلى البسكويت وتعلمت تهيئة الشاي. أما الغداء وهو الوجبة الرئيسية، فتتناوله في مطعم الجامعة، وبقي العشاء وعليها ان تعده بنفسها أو تتعشى في أحد مطاعم المدينة قبيل عودتها إلى غرفتها.

كانت الوحدة تؤلمها وتحز في نفسها. ففي جامعة برنستون الرجالية لن تجد صديقة لها. كانت بحاجة إلى فتاة أو امرأة تصاحبها عند الخروج إلى شوارع المدينة أو متاحفها، وتشاركها في التمتع بجمال المناظر الطبيعية التي أسر قلبها. غير انها لم تجد أنيساً سوى الرسائل التي ترسلها إلى أهلها وصديقاتها تبث فيها شكوى فؤادها، ولا سيما أختها إحسان التي كانت تتألم من روح اليأس والحزن التي تنطوي عليها خطاباتها.

ولا ريب ان الرسائل التي تتسلمها من أهلها هي الصديق الوحيد الذي يدفع عنها بسطوره الحبيبة شبح الوحدة والكآبة وتشدّ من عزيمتها وتمدها بالقوة، حيث تشعر ان أبويها وأخوتها ما زالوا يحيطون بها ويسندونها بعواطفهم وأشواقهم، بخوفهم عليها، وتمنياتهم لها بتحقيق أمانيها. كانت روحها تتغذى بمشاعرهم الرقيقة، وتتصدع من حولها جدران الوحدة عندما تمر عيناها على الكلمات الصادرة من أعماق نفوسهم. كانت تكتب عشرات الرسائل إلى والديها وأخواتها وتنتظر أجوبتهم بفارغ الصبر. وينزل كل خطاب تتسلمه منهم برداً وسلاماً على روحها المرهفة الملتاعة التي تحس ان أميركا نائية... نائية جداً عن الأهل وكأنها تقع في كوكب آخر غير كوكب الأرض.

غير ان نازك بعواطفها الفياضة المتأججة كانت تتألم من رد فعل أهلها الحزين على رسائلها ولا سيما أمها التي كانت تقاسمها اللوعة والشوق ويساورها القلق حين تفكر بابنتها البعيدة المحرومة من حنانها ورعايتها والعيش في كنفها. كانت الأم تتألم كلما تصورت نازك وهي تحيا بين الغرباء وتسمع كلاماً ليس فيه دفء أصوات لغتها التي ألفتها ولا ترى وجوه أبناء قومها السمراء وشعرهم الأسود. كان الخوف عليها يقض مضجعها ويعذب روحها. وكان كل هذا يؤثر في نازك عندما تقرأ رسائل أمها وترى حبها إليها وشوقها، فتنسى مشاعر القلق والكآبة ويصير همها الأول طمأنة أمها وتخفيف مخاوفها ووساوسها. فتكتب إليها قائلة ان معظم معاناتها مبالغة شعراء، وضرب من الشعر، لأن الشاعر ينتشي بالكلمات ويتلذذ بها، فهذا ديدنه ولا يجوز أخذها مأخذ الحقيقة والواقع. وعندئذٍ تحدث أمها عن جانب آخر من حياتها، عن مدى الرعاية التي يحيطها بها الناس الذين تعرفهم وعن السيد مارشال الذي سعى بنفسه لإرسالها إلى أميركا لأنه أراد لموهبتها ان تتغذى بثقافة أخرى.

كان السيد مارشال معجباً بموهبة نازك ويريد لها ان تتفتح على مداها. وعندما وصلت إلى الولايات المتحدة التقت به، وحدثها عن غرضه من المجيء بها إلى أميركا بصراحة ودون مواربة. أوضح لها انه بإلحاحه على سفرها إلى هنا أراد ان يؤدي واجبه للثقافة التي يجلّها ويحترمها. فهي فتاة ذكية موهوبة، وان فسح المجال أمامها للدراسة في مجال حضاري مغاير لمحيطها وبيئتها يساعد على ازدهار مواهبها ومدها بعطاء جديد. ولهذا يود ان يقول لها ان عليها ان لا تلتزم بمنهج الدراسة الجامعية شأنها شأن الطلاب الآخرين لأنها تختلف عنهم في نبوغها وامكاناتها. أراد لها ان تسترخي تماماً هذه السنة وتكتب القصائد وتتعرف على الحياة الثقافية، فتتردد على محاضرات الأساتذة الذين يعجبونها وتقرأ الكتب التي ترغب فيها دون التقيد بالمنهج الذي وضع لعموم الطلبة وليس للنابغين منهم.

لا شك ان مثل هذا الرأي لم يكن ليرضي نازك، فلم توافق السيد مارشال على عدم الاهتمام بالدراسة، بل استهجنته في قرارة نفسها ولو

انها عبرت عن ذلك بعبارات لطيفة مجاملة. ونازك بخلاف الكثير من الأدباء والشعراء كانت متفوقة دائماً في دراستها منذ المرحلة الابتدائية. وقد حلمت طويلاً بهذه المنحة الدراسية لكي تقضيها في عمل جاد دؤوب، فكيف يمكن ان تتقبل فكرة ان تأتي إلى أميركا لتسترخي! بدت لها هذه الفكرة خيالية لا يمكن ان تهضمها قط. ولم يرتح السيد مارشال بدوره من إصرارها على الدراسة المنهجية النظامية، وقال لها بلطف إذا فعلت فسوف أصاب بخيبة كبيرة. وظل يشرح لها هدفه من وراء مجيئها إلى أميركا وفصّل فيه القول. وأكد لها انه بوصفه المسؤول عن دراستها في مؤسسة روكفلر لن يبالي أبداً إذا لم تجتز الامتحانات، بل لن يعير اهتماماً حتى لرسوبها. فالغرض الأول من هذه السفرة هو ان تزدهر شاعريتها وتنظم الشعر.

جفلت نازك من مجرد سماع كلمة الرسوب، وتصورت انه لو حدث ذلك فعلاً فسوف يصيبها جزع قاتل. لم تستطع نازك حتى مجرد التفكير باقتراح السيد مارشال المتحمس لموهبتها بهذا الشكل الغريب عليها والذي لا يمكن ان تتجاوب معه. كان الشعور العالي بالواجب الذي شبت عليه يجعلها تحس بعظم المسؤولية حيال نفسها وأهلها ومعارفها ووطنها. فإهمال الدراسة يعني الاخلال بجميع هذه الالتزامات وبالدرجة الأولى بحق نفسها.

كان السيد مارشال يخشى ان لا تفهمه في ناحية أخرى مهمة عنده، كأن تتصور انه يريد انتزاعها من بيئتها العربية وان يغيّر شخصيتها العربية ويؤمركها. سألها إن كان يخطر ببالها مثل هذه الخواطر. لكن نازك لم يخالجها البتة وجود مثل هذه الدوافع عنده، وكانت واثقة من حسن نياته حين اختارها للدراسة في أميركا وأخبرته بذلك. أحسّ السيد مارشال بالارتياح عندما عرف رأيها الصريح وأفصح لها مجدداً عن دافعه الحقيقي من دراستها في الخارج. قال لها انه وجد فيها شخصية شرقية قوية العماد لا يخاف ان تجرفها الحضارة الأوروبية التي تبهر كثيراً من الناس، فهو متأكد من رسوخ تفكيرها وثوابت الثقافة العربية وطيدة فيها ولا يمكن ان تتزعزع في الجو الغربي، وإنما على العكس ستزداد صلابة ومعرفة وعلماً.

إن الذي يهمه هو ان يرى صحة رأيه في شخصيتها الشعرية العربية الأصيلة وقد تطورت وازدادت رسوخاً وعطاء، ولهذا كان يريدها ان توجه اهتمامها لهذا الجانب من حياتها بصورة رئيسية وليس للدراسة بالدرجة الأولى، هكذا كان يفكر هذا المثقف الغربي في مغزى وجود شخصية شعرية أصيلة في محيط غربي.

ومع ان الدراسة والاطلاع على مظاهر جديدة من ألوان الثقافة والحياة دون انقطاع كان يشدها، فإن الحنين إلى أحبائها في العراق لم تستطع ان تبعده الأجواء الجديدة المثيرة والجميلة والغنية التي تعيش فيها. كانت تتصورهم دائماً في ذهنها في حياتهم اليومية التي تعرفها جيداً: أخوها يعلق على حديث والديها في شؤون السياسة والأدب وهو يأكل، أختها سها تدسّ رأسها في الراديو وهي تصغي إلى الأغاني، وإحسان في ثياب البيت تشد رأسها بعصبة صفراء وتجلس إلى جانب الراديو تكتب رسالة إليها أو شيئاً آخر. كانت تتمنى ان تعيش يوماً من أيام الصيف الأخيرة الرتيبة التي كانت تعيشها معهم وهي تنتظر بفارغ الصبر نبأ حصولها على مقعد دراسي في كمبردج، تمنت ان تتطلع عصراً إلى الشمس والغبار وان تسمع صوت قبقاب سها وهو يرن في صحن الدار، ان يداعب أذنها حفيف الجريدة، وهي تخشخش بين يدي والدها، أو يترامى إلى مسمعها صوت حبل حبيبتها الصغيرة ميسون - ابنة عائشة - وهي تنط فوقه، ان تتناول العنب الأسود في الصباح الذي كانت تأكله وهي كارهة له، ان تتشاجر مع لبنى عندما تطرد الكلب من الغرفة وهي تريده ان يظل معها، ان تسمع أغاني محمد عبدالوهاب ومحمد فوزي وليلى مراد من الراديو، ان يرن جرس التلفون حاملاً صوتاً من أصوات الأحبة، ان تنام فوق سطح دارهم في ليالي الصيف الجميلة وتراقب السماء والنجوم وتتمتع بضوء القمر والهدوء المهيمن. رباه، ما أكثر الذكريات الصغيرة الحلوة التي تتمنى ان تعيشها مرة أخرى ولو لبرهة قصيرة من الزمن، ولكن هيهات! صار أهلها يتراءون لها في الأحلام أحياناً، فقد حلمت ذات مرة انها جاءت إلى بغداد ودخلت غرفة نومها مع أخواتها ورأت ان احسان قد تقدمت في تعلم الرسم وان لوحاتها معلقة على جدران

الغرفة. هكذا كانت نازك بعواطفها المتأججة تحس بلوعة الفراق وهي في غربتها.

طوت عجلات الزمن شهور السنة في دورانها اليومي بكل ما فيها من متاعب ومباهج وأشواق، ووجدت نازك نفسها تشد حقائبها وتستعد لرحلة العودة. ووصلت الباخرة التي أقلتها إلى ميناء الاسكندرية، وقضت اسبوعاً في مصر. وهناك اتصلت بأهلها بالهاتف وتحدثت معهم جميعاً وطمأنتهم على نفسها. كانت نازك بصحة جيدة وقد زاد جسمها امتلاء عما كانت عليه في العراق، وصارت أكثر استقلالية بعد ان تعلمت الاعتماد على نفسها في تسيير أمورها دون مساعدة أب أو أخ أو والدة. وفي ٢٥ أيلول/سبتمبر ١٩٥١ - وهو اليوم نفسه الذي غادرت فيه العراق قبل عام - وصلت إلى بغداد.

أخذ عشرات الزوار من الأهل والأصدقاء والمعارف يتوافدون على البيت بمناسبة عودتها إلى العراق، وبدأت الدعوات والولائم تقام لها ابتهاجاً برجوعها. وشعرت بالسرور، على وجه الخصوص، من الدعوة التي أقامتها جدتها (هداية) فقد أعادت إليها ذكريات الأيام الخوالي الجميلة، بما فيها من مرح وأنس وغناء ومزاح وعزف، فكانت ليلة من الليالي التي تمنت ان تحياها عندما كانت في ديار الغربة. قام خالها جميل بجولة في شوارع بغداد، فقد اشترى حديثاً سيارة له، وكانت السيارات الخصوصية قليلة جداً في تلك السنوات، وشعرت نازك بالفرح وهي تطوف شوارع العاصمة الحبيبة إليها وتتطلع إلى دورها ودكاكينها وتزداد نفسها غبطة.

غير ان نمط الحياة في الخارج في غرفة منفردة أنيقة الأثاث ذات مرافق وأجهزة حديثة جعلت نازك ترى الأمور المعيشية في العراق تفتقر إلى وسائل الراحة. وأحست قبل كل شيء بضرورة ان تكون لها غرفة مستقلة عن أخواتها، تتفرغ فيها للكتابة والقراءة ونظم الشعر دون ان يقلق راحتها أحد. وأبدت رغبتها في بناء غرفة منفردة لها تتحمل هي نفقاتها، وكان لها ما أرادت. فبعد وصولها بأسابيع قليلة، شرع العمال بقطع الأشجار الباسقة ومنها شجرة تكي وزيتون، أما شجرة السرو التي

نظمت بها نازك قصيدتها (الخيط المشدود في شجرة السرو) فكانت تقع في القسم الأمامي من حديقة البيت، وبقيت أشجار النخيل الخمس في مكانها ولم تقطع منها شجرة. بُنيت في هذا المكان غرفة واسعة للعمل الأدبي والراحة والنوم. ولم تكتف ببناء الغرفة بل طلبت بإدخال بعض التحسينات على البيت ولا سيما المطبخ ليتماشى أكثر مع المتطلبات العصرية التي أعجبتها في أميركا.

عادت نازك تعيش حياتها اليومية المألوفة: كتابة وقراءة وتدريس، واستقبال الضيوف. وأحياناً تستجد زيارات تخرج عن الطابع المألوف كأن تزورهم إحدى الشخصيات الأدبية المرموقة. فقد زارهم الأديب الكويتي ابراهيم العريض في آذار/مارس ١٩٥٢. وتقع في بعض الأحايين حوادث تثير أشجانها لبرهة من الزمن كوفاة الدكتور زكي مبارك مؤلف كتاب (ليلى المريضة في العراق) في مستهل العام المذكور آنفاً. غير ان أهم حدث عائلي، كان موضع إثارة للعائلة كلها وللأم على الأخص، هو سفر أخيها نزار للدراسة في أميركا في ٢٣ تموز/يوليو ١٩٥٢ فشعر الجميع بثقل الفراق.

لم تبهر نازك مظاهر الحياة الغربية، ولذلك بقي شكلها الخارجي بسيطاً كما كان عليه. فكانت لا تعير اهتماماً للثياب والزينة والحلي كالسابق رغم انها جلبت معها ملابس جميلة ظلت تلبسها فترة طويلة لأنها لا تعير بالاً لحداثة الأزياء. وبقيت تصرف نقودها بالدرجة الأولى على شراء الكتب والمجلات والاسطوانات. وكانت في الوقت نفسه تساعد والدها في مصاريف البيت كما هو شأنها منذ ان تخرجت من الكلية. لقد اغتنت روحها وفكرها في الخارج وتوسعت آفاق نظرتها للحياة، بينما حافظت على مظهرها المعتاد.

الفجيعة الكبرى

مع إطلالة عام ١٩٥٣ لاحت غمامة سوداء بعيدة في سماء العائلة وفي غفلة منها، فلم ينتبه إليها أحد من أفرادها، لأنها ما زالت في المدى النائي عن مجال الرؤية. وظل الجميع يعيشون حياتهم اليومية المألوفة من أفراح وهموم صغيرة وآمال كبيرة يحملها المستقبل المجهول إليهم. وقد اعتاد أفراد الأسرة ان يحتفلوا بعيد ميلاد كل منهم كباراً وصغاراً. وفي ٢٩ شباط/فبراير حل عيد ميلاد أمهم الخامس والأربعين والذي يحل مرة كل أربع سنوات، واحتفلوا به في ذلك العام في الأول من آذار/مارس ١٩٥٣. كانت الوالدة متوعكة الصحة وتبدو عليها علامات المرض فأراد أبناؤها ان يروّحوا عنها ويطردوا ظلال السقم والكآبة التي يتركها المرض في النفس، فقرروا أن يحتفلوا بهذا اليوم بصورة أكبر وأجمل من المعتاد. أعدوا لها مفاجأة تدخل السرور إلى نفسها، فاشتروا لها عدة هدايا صغيرة وغيّروا بعض أثاث غرفة نومها وشراشفها دون ان تحدس شيئاً من كل ذلك. وفي الساعة المقررة ذهبت نازك إليها وأخذتها إلى المكان الذي أعدوا فيه الاحتفال وتوقعوا الفرحة الكبيرة التي ستملأ نفسها وهي تنظر إلى هذه الهدايا وهذا الجهد الذي بذلوه من أجلها، غير ان ما حدث هو شيء مغاير تماماً لما ترقبوه. وتصف نازك تلك الوضعية التي وجدوا أنفسهم فيها في المقدمة التي كتبتها لديوان أمها (أنشودة المجد) فتقول:

«حتى إذا أكملنا كل شيء وبسطنا المائدة ذهبتُ إليها وقلت لها إننا قد أعددنا مفاجأة سارة واصطحبتها إلى حيث كان اخوتي مجتمعين حول كعكة الميلاد والشموع. وعندما دخلت الغرفة وأدارت بصرها في الأشياء وقع شيء لم يكن في حسابنا ولم يخطر لنا على بال،

فقد صاحت في جزع: «ماذا صنعتم؟ ما معنى هذا كله؟» فقلت لها: «انه يوم مولدك يا أمي الحبيبة ونحن سعداء بك وبه ولذلك أعددنا لك هذا الاحتفال». وما كادت تسمع هذا حتى شحبت شحوباً شديداً وتراجعت خطوتين وسقطت على أقرب كرسي وقالت في صوت رهيب:

- إني سأموت هذا العام. وهذه حفلة الوداع.

وقد حدث بيننا هرج ومرح واحتجاج، والتففنا حولها نتوسل إليها ان تكف عن هذا الحديث. ولكنها أبت وكررت عبارتها وأصرّت عليها ولم تسعد لا بالهدايا ولا بالشموع ولا بسرورنا. وقد خيّم الوجوم على الحفلة وأحسسنا كلنا بالانقباض وان كنا لم نصدق نبوءتها»[١].

ومنذ ذلك الحين أخذت أمارات المرض تزداد وبدأت صحتها تتدهور باستمرار، فشعر الجميع بالجزع والقلق من هذه الحال السيئة. أراد زوجها ان يأخذها إلى لبنان لعلاجها وتغيير الأجواء غير ان استفحال المرض جعله يؤجل الاقدام عليه. وعندئذٍ عرضها على كبار الأطباء في العراق وأجروا لها فحصاً بالأشعة لرأسها الذي تشكو منه ومن تأثيره في حواسها، فظهر انها مصابة بورم في الرأس فوق الجبهة تماماً. نصحها الطبيبان المشهوران كمال السامرائي وجاك عبود ان تسافر إلى لندن لإجراء عملية سريعة لها يقوم بها الدكتور جاكسون وهو من كبار الأطباء الأنكليز.. غير ان أم نازك لم تقتنع برأي الطبيبين. وعرضوها من جديد على لجنة تشكلت من أطباء كبار في اختصاصات مختلفة، وخرجوا بالنتيجة السابقة نفسها: لا بد من من إجراء عملية سريعة وإلاّ فإن الموت بانتظارها!

كان هذا النبأ صدمة كبرى لأفراد العائلة، فلم يخطر لهم على بال قط انها مصابة بمرض عضال يصعب الشفاء منه. وأخذوا يتابعون صحة الوالدة جزعين وهم يرونها تسوء يوماً بعد يوم. فقد أخذت حركتها

---

(١) أم نزار الملائكة، أنشودة المجد. بغداد. ١٩٦٥. ص ١٦. اعتمدت في كتابة هذا المقال كثيراً على مقدمة نازك لديوان أمها.

تثقل، وتضعف حاسة النظر والسمع وكان الشلل التام يتهدد مستقبلها القريب. ولم يجدوا مفراً من الاسراع في التحضير لسفرها رغم عدم ارتياحهم له. فحجزوا لها مكاناً في المستشفى الذي يعمل فيه الدكتور جاكسون وأعدوا جواز السفر وتذكرة الرحلة. وكان لا بد من مرافق لها يعنى بها ويدبر شؤونها. ولم يكن بين أفراد العائلة من هو أهل لهذه المهمة سوى نازك، لأنها تجيد الانكليزية وتعرف أنكلترا فقد زارتها سابقاً وعاشت سنة في أميركا، فعندها اطلاع على الحياة الغربية وتماسّ بها، فكان من الواضح انه ينبغي ان تقوم بالاشراف على والدتها. تحملت نازك هذه المسؤولية بقلب يطفح ألماً على حال أمها وقد تملكتها المخاوف والوساوس من احتمال ان يحدث ما لا تحمد عقباه لأمها. وتواصل كلامها عن هذا الموضوع في المقدمة فتقول:

«والله وحده هو العارف بما عانيت في تلك الليالي الداكنة الحزينة التي سبقت السفر فقد كان قلبي مثقلاً برؤى رهيبة ومخاوف لا وصف لها. وكنت أتقلب على سريري ساعات لا أنام ثم أكتشف ان سها مؤرقة مثلي، صامتة مثلي، فأصارحها بما في نفسي وتصارحني. وفي ليلة سفرنا حلمت انني أسير في شوارع لندن وأبحث عن تابوت أشتريه فلا أجد. وتشاءمت من الحلم وجزعت ولم أجرؤ ان أقصّه على أحد في البيت خوفاً على مشاعرهم»[٢].

اقترب يوم السفر وبدأ البيت يعجّ بالمودعين متمنين لها الشفاء والعودة سالمة إلى بيتها. وفي يوم الجمعة المصادف ١٩ حزيران/يونيو ١٩٥٣ خرج ما يزيد على خمسين شخصاً من الأقارب لتوديعها في المطار. كان ذلك التجمهر في المطار أشبه بالوداع الأخير الصامت لشخص لن يعود، كما شعر به الجميع وفي مقدمتهم نازك فقد كان «الوجوم مخيماً على الكل وكأنهم يشيعون جنازة» كما ذكرت نازك. وكان وداع جد نازك لها مؤثراً للغاية. فهو الذي أشرف على تربيتها بعد وفاة أبيها المبكر وهي ما زالت طفلة غرة، وكان شديد الحب لها. وجاء إلى بيتها ينتظرها قبل ان تغادر إلى المطار رغم سوء صحته. أصرّ ان يقرأ فوق رأسها أربعين

(٢) المصدر السابق. ص ١٧.

مرة ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلينا إلى ميعاد﴾ ظناً منه انه بهذه القراءة المكررة ستعود إليهم لا محالة. وكانت سيارة التاكسي واقفة عند الباب تنتظر في تلك الأثناء، والجميع واقفين ينتظرونه ان ينتهي من تلاوته. كانت ابنتها الصغرى سها منتفخة العينين من كثرة البكاء، وقد طلبت أمها ان تراها قبيل سفرها وتقبّلها غير ان أخواتها خشين من وسوسة أمهن عندما تراها بهذه الحال وتتصور أن شراً سيحيق بها، فمنعنها من الذهاب إليها.

إن كل هذه العواطف الحارة لم تخفف من حال الأم التي لم تكن راضية البتة عن القيام بهذه الرحلة. فقد تملكها اليأس من امكانية شفائها وأحست بالرهبة من هذه السفرة المفروضة عليها فرضاً. فقد حُملت على القيام بها تحت ضغط الأهل جميعاً الذين كانوا يجدون فيها بصيصاً من الأمل يتعلقون به لإنقاذ حياتها. وكان هناك أمر بعيد عن الطبابة يؤرقها، وقد أفضت بمكنون نفسها إلى نازك وهما على متن الطائرة. فقد كانت أم نازك تكتب قصائد كثيرة في فلسطين والعروبة وتكاد تشغل الحيز الأكبر من شعرها، وصارت تخاف من الأطباء اليهود ان يتقصدوا في إماتتها وان لا يحترموا شرف مهنة الطب الإنسانية. وقد سيطرت هذه الفكرة عليها لدرجة تصورت معها انها ستموت لا محالة. فقالت لإبنتها:

«وأنا يا نازك عدوة لهم وشعري كله حرب على اسرائيل والصهيونية. ولذلك أخشى انهم سيقتلونني فلا أرجع إلى الوطن»[٣].

ظلت نازك تقنعها وتطمئنها بأن هذا لا يمكن ان يحدث، وكانت نازك مرتاحة في سرها لأن أمها لا تعرف ان الطبيب الذي سيجري لها العملية يهودي، مما خفف من وساوسها. وقد عانت نازك معاناة كبيرة في هذه المصاحبة. فقد كانت ترتعش في داخلها على مصير أمها التي تحبها حباً جارفاً لا يقاوم ولا تستطيع ان تتخيل العيش بدونها. وتشفق

(٣) المصدر السابق. ص ١٩.

على نفسها إن نزلت بها نازلة وهي وحدها، ويأخذها القلق من نتيجة العملية ومن مسؤوليتها أمام والدها واخوتها. كل هذا زاد من ألمها ومخاوفها وتوتر أعصابها.

ما ان هبطوا في مطار لندن حتى وجدوا سيارة اسعاف في انتظارهم، نقلت أمها إلى المستشفى. ومن حسن حظ نازك ان خالها منير الملائكة كان يدرس في انكلترا، فجاء للوقوف بجانبها في هذه المحنة التي تمر بها. صاحبت نازك والدتها في أثناء وجودها في المستشفى وتمسكت بها والدتها وكأنها الخيط الذي يربطها بعائلتها وبالناس والحياة. وعندما نقلوها إلى ردهة العمليات رفضت ان تذهب دون نازك، وأخذوها مكرهة بمفردها، «ولذلك ظلت تصيح والنقالة تسير بها»:

«نازك... نازك... نازك...» فتردد ممرات المستشفى صدى الصوت»[4].

وسيظل هذا الصوت يرن طويلاً في ذهن نازك فيما بعد وترتعش له حناياها ويحز الألم في نفسها من صداه الحزين الواهن. بعد مضي أربع أو خمس ساعات قضتها في غرفة العمليات أخبرها الطبيب ان العملية قد نجحت، وأرسل لنازك الممرضة لكي تأخذها إليها وتراها، فذهبت بصحبتها والخوف والقلق يستبدان بها ودخلت الغرفة:

«وما كاد نظري يقع على أمي وهي ممددة على منضدة العمليات حتى أدركت انها قد ماتت. وكان منظرها رهيباً وفي وجهها عذاب لا أطيق ان أتخيله دون ان أتمنى الموت»[5].

نزل موت أمها كالصاعقة على رأسها وأخذت كلماتها بأنهم سيقتلونها ترن في أذن نازك كالمطرقة فتؤلمها وتثيرها. وانخرطت في بكاء حار وتمنت لو انها هي نفسها قد جاء أجلها قبل ان ترى مثل هذا اليوم المشؤوم. ومما زاد الطين بلة ان أحد أصدقاء عائلتهم وهو فلسطيني قال لها ان الطبيب بعد ان فتح رأس والدتها تركها ساعة

---

(٤) المصدر السابق ص ٢٠.
(٥) المصدر نفسه ص ٢١.

كاملة وذهب ليجري عملية أخرى في الردهة المجاورة. سحقها الألم وهي تسمع هذا الخبر. وقال لها الصديق ان بوسعها ان تقاضي الطبيب وترفع عليه دعوى. غير انها لم تكن تهتم بشيء الآن ما دامت أمها قد رحلت عن العالم وخلفتها وراءها.

ومما زاد في توتر أعصاب نازك انها لم تستطع حتى ان تستسلم لحزنها، فلا بد من التحضير لمراسيم الدفن. أخبروها بوجود مقبرة اسلامية خارج لندن وبوسعها ان تدفنها فيها أو تنقل جثمانها إلى العراق إن أرادت ذلك. قررت ان تدفن أمها في تلك المقبرة واستجمعت قواها لتوجه إلى الصديق سؤالاً يشق عليها التفوه به: أين هي أمها الآن؟ وكان الجواب مروعاً لها، إذ أخبرها انها ترقد في عنبر الموتى في انتظار انجاز معاملة الدفن وستظل فيه أربعة أيام. عصفت هذه الكلمات بروحها التي برّحها الحزن وهزت كيانها. وتذكر ذلك قائلة:

«وقضيت أربعة أيام رهيبة في لندن لا أقوى على النوم. وكنت أتعذب بفكرة (عنبر الموتى) الذي ترقد فيه أمي الحبيبة. وكانت كلماتها لا تفتأ ترن في سمعي: «- انهم سيقتلونني...»[٦].

وصارت تتصور أحياناً ان امها ماتت بسبب إهمال الطبيب لها.

ومن أعماق الأحزان التي عصفت بها، مدت نازك يدها المثقلة بالألم إلى قلم الحبر، وتناولت ورقة وأخذت تكتب في مساء يوم الجمعة ٢٦ حزيران/يونيو أي بعد اسبوع كامل من وصولها إلى لندن. كتبت إلى والدها رسالة تعزية تخبره بوفاة والدتها، وترجوه ان يتمالك نفسه ويسيطر على أحزانه اكراماً ولذكرى أمها التي تكره ان تراهم متألمين. وهنا تحدثت لأول مرة عن حتمية وفاة أمها وتقول فيها: «أرجو ان تكون واثقاً يا أبي الحبيب من بضعة أشياء: أولها ان أمي قد لقيت أعظم عناية من المستشفى ومني ومن منير، وقد كانت أيامها الأخيرة أعذب الأيام فماتت مبتسمة، هادئة، مرتاحة إلى حبّنا واعزازنا وهي تشملنا كلنا برضاها. وثانيها انها كانت «ميتة» تقريباً قبل ان نسافر بها إلى لندن، وقد رأيت بعيني

---

(٦) المصدر نفسه ص ٢٣.

«السرطان» الرهيب الذي قطعوه من رأسها، وكان بشهادة الأطباء أكبر سرطان مرّوا به في حياتهم الطبية، وقد أجمعوا على ان موتها كان منتظراً في أي لحظة - حتى دون عملية. لقد كانت ستموت سواء أجرينا العملية أم لم نجرها، لا بل ان موتها بالعملية كان أهون. فقد كان ينتظرها الجنون والعمى والصمم المؤكد في اسبوعين أو ثلاثة. كما ان جاكسون قال إن هذا السرطان قد عاش في رأسها بضع سنين ولم نشعر به إلاّ عندما بلغ نموه هذا الحد الفظيع وبدأ يضغط على الدماغ.

وثالث الأشياء ان من حسن الحظ أنكم لم تروها في أيامها الأخيرة، ويكفي ان أحمل أنا هذا الألم الأبدي في قلبي. الألم الأكّال العاصف، أنا التي رأيتها وهي تنازع «يا إلهي يجب ان تساعدوني يا أبي على النسيان».

في يوم الثلاثاء ٣٠ حزيران/يونيو تم دفن أم نازك. فقد نقل التابوت إلى (ووكنك) حيث يوجد الجامع الاسلامي. وكانت نازك تتمنى ان لا ترى أمها والتراب يُلقى فوقها. وليس من المعتاد ان تخرج النساء لدفن موتاهن. غير انها لم ترد ان تدفن أمها بين أيدٍ غريبة دون ان يحضر أحد من أفراد عائلتها، ولذلك وطنت نفسها على حضور مراسيم الدفن. وفي المقبرة لم تستطع ان تتحمل منظر دفنها، فانهارت قواها وأخذها بعض المشيعين إلى تل قريب من المقبرة، فجلست فوقه وأطلقت لدموعها العنان.

كان نبأ وفاتها قد وصل إلى أسرتها في العراق قبيل دفنها، وفي يوم الأحد ٢٨ حزيران/يونيو أقيمت الفاتحة على روح الفقيدة في بغداد، وكانت نازك ما تزال في انكلترا. ومما زاد من حزن العائلة على فقدهم لوالدتهم انها دفنت في أرض غير أرضها بعيدة عن أحبائها. وحصل كل ذلك رغماً عنها، فقد كانت كارهة لهذه الرحلة التي أجبرت عليها جبراً، وهذا ما حزّ في نفوس أفراد العائلة وجعلهم يشعرون بالذنب بعد هذه النهاية المفجعة.

نزل نبأ وفاتها كالصاعقة على رأس زوجها صادق الملائكة الذي كان

شديد الحب لها، فأخذ يجهش بالبكاء لمدة ساعتين متواصلتين واضعاً رأسه على المنضدة. وأدركت بناته هول وقع الصدمة عليه عندما كن يسمعن نحيبه وهو الرجل القوي الرابط الجأش، فإذا به يبكي بحرارة ولا يتمالك نفسه. لقد اعتاد ان يصيح من الباب عندما يعود إلى الدار. يا «بنت عمي» فتخف أم نازك لاستقباله، فيطلب منها ان تترك عملها مهما كان وان تجلس قربه، فمن سينادي الآن!؟

بدت عليه أمارات الكبر والضعف في بضعة أيام بعد موت أم نازك، ولاحت عليه التعاسة التي لازمته طوال الأعوام الستة عشر التي عاشها بعدها. وكان تقياً متمسكاً بالصلاة والصيام وقراءة القرآن. وعندما حلّت به هذه النكبة رأى ان الله أنزل به عقاباً شديداً دون ان يأتي ذنباً، وآلمه ذلك إيما إيلام، فكفّ عن أداء الصلاة والصيام منذ وفاة زوجه، وواصل قراءة القرآن وحده، فكان يُسمع صوته عالياً وهو يجوّد الآيات القرآنية في أثناء تلاوته لها. وانعزل في غرفته يقرأ ويكتب واعتزل الحياة ولم يستطع مرور الزمن ان يدمل جراحه وهو الذي يدمل أعمق الجروح. وتتحدث نازك عنه في مجرى كلامها عن جمع قصائد أمها في ديوان أصدرته في عام ١٩٦٥ فتقول:

«ولدينا اليوم حقيبة ملأى بأوراق أمي فيها مئات القصائد بخطها الرديء. ولا يستطيع قراءة خط أمي قراءة كاملة إلاّ أبي، ولذلك تبقى هذه الحقيبة بعيدة عنا لا نستطيع فك رموزها. وقد حاولت عدة مرات، منذ وفاة أمي ان أجلس إلى أبي ليملي عليَّ شيئاً مما في تلك الأوراق فكان يُقبل على ذلك في استعداد كامل شاعراً بما عليه من واجب إزاء الفقيدة وشعرها. ولكن هذه المحاولات قد انتهت دائماً إلى الخيبة، فما يكاد أبي يتناول في يده أوراق أمي، ويرى خطها، حتى تتحدّر دموعه غزيرة حارة، ثم يبكي بكاء مريراً ينتهي إلى الصراخ. ولذلك عدلت نهائياً عن هذه المحاولة وتركت الحقيبة مقفلة... ولعل من اتمام الفائدة ان أقول إن حياة أبي قد انهارت بعد وفاة شريكة حياته ورفيقة عمره انهياراً كاملاً، فاعتزل الناس والدنيا في غرفته وغلب عليه التشاؤم المطلق، وقد رفض طيلة السنوات الأربع عشرة الماضية ان ينام في السطح وكأنه لا يحتمل ان ينعم

بالنسيم وضوء القمر بينما أمي تحت أطباق الثرى. وقد مرض هذا الصيف مرضاً شديداً لشدة الحر فتوسلت إليه ان ينام في السطح ريثما يشفى فكان جوابه نصاً:

ـ «أنام في السطْح؟ أفعل إذا رجعت أمك إلى البيت!»(٧).

هكذا استمرت حال الوالد الذي عاش كزاهد منكب على كتابة موسوعته (دائرة معارف الناس) وخارت قواه الجسدية وضعفت ذاكرته في النهاية.

تجللت كل نساء البيت بالسواد وساد الحزن العميق والصمت الموحش والكآبة بدل ضحكات وأحاديث الماضي المرحة وأغانيه البهيجة. كان صوت القرآن وحده يملأ آفاق البيت والشارع يعزي الناس ويذكرهم بالدنيا الفانية وان الموت حق على الجميع وان عليهم ان يتصبروا ويتحملوا مرارة الموت. لم يرض الوالد ان تأتي مُلاّية إلى الفاتحة لتندب المتوفاة ولم يقبل ان تدور النساء في حلقة ويلطمن صدورهن وخدودهن وينفشن شعورهن كما هي العادة في مآتم النساء. وغص البيت بالمعزيات، غير ان بعض نساء العائلة لم يرتحن لهذه الطريقة في بكاء المرحومة ولا سيما أمها هداية (جدة نازك) وأختها نظيمة (خالتها)، وأقمن عزاء آخر في بيت إحداهن على الاسلوب التقليدي في ندب الميت والذي يعبر بصورة أعظم عن احترام الراحلة وتقديرها حسب رأيهن.

استمرت الفاتحة في بيت نازك سبعة أيام، وبعد ذلك كانوا يطبخون الطعام مرتين في الاسبوع ـ الاثنين والخميس ـ ويوزعونه على روح الفقيدة في الجوامع للناس الفقراء. استمروا على هذه الحال أربعين يوماً، وكان الوالد خصوصاً متمسكاً بهذه العادة لأنه يجد في تأديتها راحة نفسية له.

عادت نازك إلى العراق بعد ان دفنت أمها، ووصلت بغداد على متن الطائرة في يوم الجمعة ٣ تموز/يوليو. واستغرقت هذه الرحلة المشؤومة اسبوعين، لقيت نازك فيها من العنت والحزن والتعب ما لم تره في

---

(٧) المصدر السابق ص ١٠.

حياتها قط. بدت كالمريضة ولاح انها تعيش أزمة نفسية عميقة. وتصف حالتها تلك فتقول:

«ثم عدت بالطائرة إلى بغداد، وحيدة لا رفيق لي إلاّ الدموع بعد ان دفنت رفيقة سفري الغالية. واستقبلني أهلي يكون في المطار وكانوا في جزع شديد عليَّ من ان أصاب بانهيار عصبي. والواقع انني احتملت العبء في لندن كل الاحتمال وانما بدأ الانهيار عندما وصلت منزلنا. فما كدت أدخل حتي بدأت أبكي وأبكي ولا أنقطع قط لا ليلاً ولا نهاراً وكنت أريد ان أكفّ عن البكاء وأحاول ذلك فلا أستطيع فكان عندي سيل من الدموع ينبغي ان تتدفق. ولم تقف دموعي إلاّ بحبوب مهدئة أعطاني إياها الطبيب. وقد بقيت عدة أشهر أصرخ في نومي كل ليلة فلا أسكت حتى توقظني أختي من النوم»(٨).

ظل يرن في أذنها صوت أمها الذي سمعته لآخر مرة في المستشفى وهي في طريقها إلى غرفة العمليات «نازك... نازك... نازك...» وكأنه صوت غريق يستغيث ويبحث دون جدوى عن منقذ له، ويتراءى أمامها وجهها المائت وتسمع حديثها فتصرخ وتتشنج في مكانها. وقد اضطر أبوها وأخوها عصام ان يضعا سريرها بين سريريهما وجعلها في الوسط كي يستطيعا ان يمسكا بها ويخففا من روعها.

لم يدم هذا الوضع أكثر من شهر بعد ان أشرف طبيب نفساني على علاجها. غير ان هذه الحال كانت بداية لمرض الأعصاب الذي عاد إليها بعد بضعة أعوام، وأخذ يزداد في النصف الثاني من الثمانينات حتى توقفت عن الكتابة تقريباً.

---

(٨) المصدر السابق ص ٢٤ ـ ٢٥.

الحياة تواصل سبيلها

بعد وفاة أم نازك كان لا مفر من إجراء تغييرات في الحياة البيتية السابقة. فلا بد ان تقوم إحدى الأخوات بالإشراف على شؤون المنزل وتسييرها. وكانت سعاد وهي ثالثة الأخوات الخمس تساعد أمها أكثر من غيرها في تصريف أمور الحياة اليومية، فقد كانت تميل إلى العمل المنزلي أكثر من الانصراف للدراسة، ولهذا تولت المسؤولية بعد أمها وصارت تساعدها أختها لبنى أيضاً التي كانت مثلها لا ترغب في مواصلة دراستها، وقد اكتفت كلتاهما بالحصول على الشهادة الثانوية ولم تواصلا تحصيلهما الجامعي. وكانت عندهم خادمة تدعى (أم اسماعيل) تقوم بأعمال التنظيف وغسل الصحون والملابس. أما نازك فكانت تقوم بترتيب البيت ووضع الأشياء في مكانها، وهي بطبيعتها تميل إلى التنظيم وتكره الفوضى. وكانت أخواتها لا يرغبن في إشراكها في الأعمال المنزلية ويحرصن في ان تتفرغ للقراءة والكتابة ونظم الشعر. وهكذا أخذت الحياة مجراها في دارهم بعد الفراغ الكبير الذي تركته وفاة أم نازك.

غير ان الأحزان أبت ان تتوارى وتكتفي بما تركته في نفوسهم من لوعة وحرقة. وعادت تحوم في أجواء حياتهم. ففي تلك الأثناء أخذت صحة جد نازك الحاج جعفر ـ والد أبيها ـ تتدهور وتسوء. كان كبير السن وقد آلمه مصاب وفاة أم نازك التي رباها ووضعها تحت رعايته منذ صغرها بعد ان توفي أبوها وهي ما زالت طفلة غرة، فكانت بمثابة ابنته ولم يعد يرغب في العيش من بعدها. كان معتل الصحة وقد ازدادت أمارات المرض عليه وصار يهذي ويتذكر أم نازك فيقول: «وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر». نقل إلى مستشفى (مير الياس) لينال العناية الطبية

اللازمة، غير انه لم يعش طويلاً. ففي ١٢ آب/اغسطس ١٩٥٣ توفي عن عمر يناهز الخامس والتسعين سنة ودفن في النجف ونعته الإذاعة العراقية.

تركت وفاته ألماً كبيراً في نفوس حفيداته اللواتي لم تبلّ جراحهن بعد ولا سيما في نازك واحسان اللتين كانتا تحترمانه وتحبانه وترتبط طفولتهما بروابط كثيرة بشخصه. فقد كان شاعراً قوي الشخصية محباً لحفيداته. كن يجلسن قربه على الأريكة ويصغين إلى أحاديثه الممتعة عن أسفاره البعيدة في بلاد الله النائية، وعن أجدادهم السالفين وعن الحياة المندثرة في الأزمان الماضية، كن يستأنسن بأحاديثه وسماع الأشعار التي يكتبها وبشخصيته القوية الجذابة وبخطه الجميل الدقيق عندما يكتب وبحنانه الذي يغمرهن به. وقد وقعت وفاته بعد أقل من شهرين على وفاة أم نازك فترك ألماً وفراغاً في نفوس الجميع.

هكذا مر صيف عام ١٩٥٣ مثقلاً بالأحزان والفجيعة من يد الموت الغادرة التي تخطف الأحباء في غفلة من الأهل. غير ان الزمن كفيل بإعادة الحياة إلى طبيعتها المألوفة، ودفع الألم إلى أركان غائرة غير مرئية في أعماق النفس، وهكذا بدأ كل فرد في العائلة يواصل عيشه السابق وهمومه وطموحاته.

عادت نازك إلى نشاطها الأدبي، واستهلت نتاجها الشعري بالحدث الذي هزّ حياتها وهو موت أمها فكتبت (ثلاث مراثٍ لأمي)، نظمتها في شهر آب/اغسطس ١٩٥٣ لتنفّس به عن لواعج روحها وقدمت لها بسطور قالت فيها:

> «قد يكون الشعر بالنسبة للانسان السعيد ترفاً ذهنياً محضاً، غير انه بالنسبة للمحزون وسيلة حياة. وقد كانت القصائد الثلاث التالية محاولة للتعزي لجأت إليها على أثر وفاة أمي في ظروف محزنة عانيت منها معاناة خاصة. ولم أجد لألمي منفذاً آخر غير ان أحبه وأغني له»[1].

---

(١) نازك الملائكة، قرارة الموجة. دار العودة. بيروت ١٩٧١. الطبعة الثالثة. ص ١١١.

وطفقت نازك تشارك في النشاطات الفكرية، وتحلل وتدرس المشاكل الاجتماعية كقضية المرأة والحالة التجزيئية في مفاهيم وأفكار الانسان العربي. وقد أقام الاتحاد النسائي العراقي اسبوعاً كاملاً لدراسة أوضاع المرأة وفسح المجال لفعالياتها. وقد شاركت في هذا الاسبوع شخصيات سياسية واجتماعية مهمة. ففي الندوة التي عقدت على قاعة الاتحاد النسائي في ٢٣ تشرين الأول/اكتوبر شارك السادة: كامل الجادرجي وصدّيق شنشل، ومصطفى كامل ياسين، ودافعوا عن حقوق المرأة وطالبوا بفسح المجال أمامها لتتفتح إمكاناتها.

وكانت نازك قد ألقت في ٢١ تشرين الأول/اكتوبر محاضرة على قاعة نادي الاتحاد النسائي عنوانها: (المرأة بين الطرفين السلبية والأخلاق) حللت فيها سبب حال الركود الذي تعيشه المرأة واستنارت بكتابة هذا البحث بالقانون والعلوم الحديثة، كعلم النفس والاجتماع، والأعراف والعادات القائمة. واستطاعت ان تكشف عن كثير من النقائص التي تظهر في سلوك المرأة نتيجة لفقدانها حريتها وكرامتها وكبت عواطفها، فقد جاء فيها:

«والحق ان أغلب الأحكام قد دأبت على تناول النتائج بمعزل عن الأسباب فدرست سلوك المرأة بمعزل عن الالزامات الفادحة التي تقيدها. وبحثت عن الأخلاق في حياة مخلوقة لا حرية لها من أي نوع، وتطلبت الشخصية حيث لا توجد إرادة، والتمست حاضراً حيث لا يوجد ماضٍ ولا تاريخ. وهذا قد كان موقف طائفة كبيرة من الفلاسفة والأدباء والمفكرين وهو موقف غير علمي تنقصه الرصانة والاتزان. فلا أخلاق من دون حرية كاملة في السلوك، ولا شخصية من دون أخلاق رصينة تدرك ذاتها، ولا انتاج في أي حقل من دون شخصية كاملة العمق واسعة الجوانب، نفاذة، تشخص ما تريد. وهذا لأن الحرية هي التي تنتج الأخلاق، والأخلاق هي التي تنتج الشخصية، والشخصية هي التي تنتج الفن والفكر والانسانية»(٢).

---

(٢) نازك الملائكة، **التجزيئية في المجتمع العربي**. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٧٤. ص ٤٠.

كان لهذه المحاضرة صدى كبير بين الفئات المتنورة، ومما زاد في انتشارها أن إذاعة بغداد أذاعتها كاملة، ثم نُشرت في مجلة «الآداب»اللبنانية.

بدأت نازك تتجه منذ ظهور (شظايا ورماد) في عام ١٩٤٩ إلى الكتابة النثرية إلى جانب الشعر. وقد ازداد إقبالها عليها بعد سفرتها الدراسية الأولى إلى الولايات المتحدة وتقول في هذا الشأن:

«بعد عودتي إلى العراق عام ١٩٥١ بدأت أتجه إلى كتابة النثر خاصة في النقد الأدبي»[٣].

ففي هذه الحقبة نضجت ملكاتها النقدية واغتنت بعد ذلك التماسّ المتين بالفكر الغربي والتعرف على آدابه عن كثب في السنة التي قضتها في جامعة برنستون. بلور كل ذلك قابليتها الفكرية القائمة على أساس رصين من دراسة الأدب العربي والتمكن من نحو اللغة العربية وصرفها، فانطلقت تكتب عن نشوء الشعر الحر وتبين امتداداته الاجتماعية والقضايا التي تعترضه وتدرس أساليب التكرار ودلالتها في الشعر، ومقالات كثيرة حول الشعر والنقد والمجتمع، ظهرت على امتداد الخمسينات في مجلتي «الآداب» و«الأديب» اللبنانيتين بالدرجة الأولى.

وقبل ان يمر عام على وفاة الوالدة بدأت الأفراح تأخذ سبيلها إلى بيت الملائكة. كانت الأخوات الخمس قد بلغن سن الزواج بدرجات متفاوتة، فبعضهن صار عمرهن يقضي بالتفكير الجاد بالزواج كنازك واحسان. غير ان نازك كانت ما زالت تحلم بالدراسة في الخارج والحصول على شهادة الماجستير، بل الدكتوراه أيضاً إن أمكن ذلك، وكانت احسان تدرس الرسم وتعرفت في معهد الفنون الجميلة على الرسام علي الشعلان واتفقا على الزواج، فعقد قرانهما في كانون الثاني/يناير ١٩٥٤ وحضرت هيئة المحكمة الشرعية إلى بيتهم، ووزع الشربت والحلويات وأضيئت شمعة كما تقتضي الأعراف الاجتماعية. جرى كل ذلك ضمن عدد قليل من الأهل ودون ضجة احتراماً لروح أمهم الراحلة.

---

(٣) نازك الملائكة، لمحات من سيرة حياتي وثقافتي. ص ٩.

ولم تكن إحسان شأنها شأن نازك تؤمن بتلك المراسيم ولكنها لا تستطيع ان تتحدى كلياً العادات الاجتماعية، فحافظت على بعض منها، ورفضت بعضها الآخر. ومن مظاهر عدم الرضوخ التام لها انها جعلت العصمة (حق الطلاق) في يدها.

لا شك ان هذه الفرحة الجديدة أدخلت عنصر التغيير في حياة البيت وجعلت أفراده يفكرون في دخيلة نفوسهن انهن سيبدأن الواحدة تلو الأخرى يتركن العش العائلي ويبنين داراً أخرى مستقلة. فالسنوات المقبلة تحمل في طواياها تبدلاً جذرياً في حياة كل منهن، والحياة الماضية التي عاشوها بأفراحها ومشاكلها الصغيرة وأمانيها بدأت تتزعزع لتحل محلها أخرى جديدة محاطة بالغموض والأحلام الجميلة والآمال المنعشة. وفي هذا العام نفسه ـ في ٢٥ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٤ ـ وُلد أول حفيد لصادق الملائكة، فأدخل فرحة غامرة على نفوس العائلة وصار موضع حديثها واهتمامها.

الغُربة الثانية

تكلل مسعى نازك في الحصول على بعثة دراسية في الخارج بالنجاح، فأرسلتها وزارة المعارف العراقية للحصول على شهادة الماجستير في الأدب المقارن. غير ان هذه السفرة لم تلق رضا عند أبيها، وكان لا يرغب في ان تغترب عن أهلها وبلادها مرة أخرى من أجل الحصول على شهادة عليا لن تزيد من مكانتها الأدبية شيئاً. غير انه لم يعترض سبيلها ولم يمنعها من السفر وسكت على مضض نزولاً عند رغبتها الكبيرة في مواصلة تحصيلها العلمي. وقد حزّ ذلك في نفسها المرهفة وودت ان تسمع منه كلمة يعرب فيها عن ارتياحه لسفرها.

كانت نازك تدرك ان شهادة الماجستير وحتى الدكتوراه لن تزيد من منزلتها الأدبية، فقد صارت مشهورة في العراق والعالم العربي وهي لم تتجاوز الثلاثين من عمرها. وكانت تضحك مازحة عندما سمعت ان بعض الدكاكين في منطقتي الكرخ والدهانة في بغداد علقوا صورها التي اقتطعوها من المجلات إلى جانب صور المغنيات والممثلات الذائعات الصيت. غير ان الدراسة العليا كانت من الآمال التي أترعت نفسها وذهنها منذ ان كانت في الجامعة، وكانت تريد ان تشبع هذا التوق الذي عاشته وحلمت بتحقيقه.

وهكذا شدّت الرحال مرة أخرى، وفي ٢ أيلول/سبتمبر ١٩٥٤ خرج أفراد عائلتها وأقاربها للمطار لتوديعها متمنين لها التوفيق وتحقيق الأماني. وقد عزّ عليها مفارقة أهلها والتغرب، ولكنها كانت تدرك انه لا بد لها من كبت عواطفها والسيطرة عليها للظفر بمرادها.

عندما وصلت إلى أميركا وتناولت القلم لتكتب إلى والدها شعرت

بالألم يحز فؤادها، فهذه أول مرة تكتب إليه وحده بدل ان تكتب لأبيها وأمها كما كانت تفعل من قبل وثارت أشجانها من جديد. وأحست بالقلق على أبيها أكثر من السابق لأنه يشعر بالوحدة والعزلة والكآبة بعد حادث وفاة أمهم الذي أثّر في نفسه تأثيراً عميقاً لم تستطع يد الزمن ان تخفف منه. وبقي هو السند الوحيد لهم في هذه الدنيا ومبعث الحنان والرعاية الذي يستظلون به.

سرعان ما لفّتها دوامة الحياة القائمة على العجلة والامتلاء والمتطلبات الكثيرة. لا شك ان نازك قد أفادت من رحلتها الدراسية الأولى إلى أميركا وعلمتها أشياء كثيرة، منها الاعتماد على النفس في كل الأمور التي تواجهها، فلم تعد مدللة كما هي حالها في بيت أهلها. وقد اعتادت ان تتعامل مع مختلف الناس وتعلمت كيف تسلك معهم وهي الغريبة عن أجوائهم وأفكارهم ونمط معيشتهم، وان تكبح جماح قلقها وتسيطر على مخاوفها.

إن تأدية واجبها العلمي كان يقع في أول المهام التي وضعتها أمامها، فانصرفت إلى الدراسة بجد يصل حد الصرامة في كبح ميولها الأدبية. كانت تنزع إلى نظم الشعر الذي هو الحياة عندها، غير انها تضطر للانصراف عنه بسبب قلة الوقت وضيقه. لا وقت للشعر! فيا لها من لوعة! عاشت معها هذه المعاناة طيلة فترة وجودها في الخارج. فالدروس تتراكم من حولها وتأخذ بتلابيبها، ولا بد ان تعمل من أجل الحصول على شهادة الماجستير مهما كلف الأمر من عناء وتؤجل نظم الشعر الذي يأبى ان يصغي لصوت العقل. غير انها أخذت في أثناء وجودها في أميركا توطن نفسها على صرف النظر عن الحصول على شهادة الدكتوراه نتيجة ذلك الصراع الداخلي الذي تعيشه بين التفرغ للشعر أو الشهادة. وأدركت ان الشعر بالنسبة لها أهم بكثير من الدكتوراه.

لم تقتصر نازك على الدراسة وحدها، فقد كانت متطلباتها الروحية متنوعة وكثيرة ووجدت لها مجالاً للارتواء في جامعة وسكونسن التي كانت تدرس فيها. فلم تكن مدينة ماديسون التي تقع فيها الجامعة من المدن الكبرى في أميركا رغم انها عاصمة الولاية. ولذلك أولت الجامعة

اهتماماً خصوصياً للنشاطات الثقافية، فكانت تقيم مثلاً، كل اسبوع معرضاً للرسم. وطفقت نازك تتردد على الندوات والمحاضرات والمعارض الفنية والحفلات الموسيقية. وكانت نازك بعواطفها الثَّرّة تتذكر أختها إحسان كلما روت غليلها الفني من هذه الحياة الثقافية الغنية، وتتذكرها خصوصاً وهي تقف أمام لوحات معارض الرسم. فقد كانت إحسان تهوى الرسم ودخلت معهد الفنون الجميلة لدراسته، وكان زوجها السيد علي شعلان رساماً تتبادل نازك وإياه الآراء حول الرسم الحديث وتكتب له عن الكتب والمعارض الفنية. وتقول له في إحدى رسائلها له:

«إني أحب كثيراً ان أرى صورك الجديدة، ولا شك انني حين سأعود سأجد منها مجموعة جيدة في انتظاري. وأما التجريد فأنا لا أميل إليه كثيراً لأنه يبدو شخصياً جداً. وإذا استطاع الفنان ان يضع لتجريداته أطراً تدخلها في حدود الفهم العام كان هذا هو المنقذ الذي يحلّ الاشكال. ولعلك ستستطيع الاهتداء إلى هذا الحل تدريجياً. مهما يكن من الأمر، فإن علينا نحن الشعراء ان نشجع الاتجاه نحو التجريد في الرسم لأنه يقرّب الفن إلى الفِكر ويوسّع حدوده وأنا أحب ان أعرف الأفكار التي تستند إليها صورك المجردة. ولا شك في انني سأستمع كثيراً عندما أعود إلى العراق ونعود إلى الاجتماع والتحدث عن الفن والشعر كما كنا في الأيام الخالية».

وفي غمرة الدراسة وحضور النشاطات الثقافية، وصلها من الوطن خبر ملأ حناياها هناء وسروراً. فقد وضعت احسان مولوداً ذكراً، سمته (ملهماً) نزولاً عند رغبة نازك التي سبق لها ان اقترحت هذا الاسم على أبويه. خالجتها فرحة من نوع جديد وهي تشعر لأول مرة في حياتها انها صارت خالة. فقد أدخل هذا المولود الحبيب إلى قلبها والمجهول لديها تغييراً حلواً في أعوامها لم تحس بمثله من قبل. وهزّها شوق مبرح إلى أهلها في العراق وتمنت ان تراهم وتكون بينهم بعد ان وُلد هذا المخلوق الصغير في غيابها، فجدد حياتهم بابتساماته وحركاته وبكائه وإيماءاته. وأحست بالضجر في غربتها وبالحاجة إلى عواطف أهلها وأحاديثهم ومزاحهم ومماحكاتهم وغضبهم. وقد أرسلت لها إحسان

صورته وهو في الشهر الأول من عمره، وقالوا لها إنه يشبهك، غير انها لم توافقهم بالرأي، فلم تجد فيه شيئاً من ملامحها ورأته أشبه بأبيه.

أثارت لواعجها صورة ملهم، وأحست بالحنين يهزها إلى صغار عمتها عائشة التي تسكن جوارهم بيت بيت. فقد كانت نازك تحب الأطفال من صميم روحها وتفرحها ابتساماتهم وأحاديثهم البريئة وطلباتهم الساذجة. وشخصت أمام عينها ميسون ونسرين وعادل أطفال عمتها عائشة وكانت مولعة على الأخص بالحسناء الذكية ميسون. اعتادت ميسون ـ وكانت قد بلغت الحادية عشرة من عمرها عندما سافرت نازك في سنة ١٩٥٤ ـ ان تأتي إلى غرفة نازك وتمسك كتاباً بيدها وتقرأ ساعات إلى جوارها. وأحياناً توجه أسئلة إلى نازك أو تغني معها أو تمشط لها شعرها وهي مشغولة بالكتابة وتضحكان معاً. كانت هذه الذكريات تثيرها فيعتلج الشوق عارماً في نفسها. أما نسرين أخت ميسون الصغرى فكانت تجد فيها سحراً لا تستطيع إدراك كنهه، وصارت إحدى بطلات قصصها التي نشرتها في مجلة «الآداب» ولقيت استحساناً كبيراً.

كانت نازك تفتقد أطفال عمتها أحياناً حتى أكثر من أخواتها بسبب احساسها ان الصغار لا يستطيعون ان يعبّروا عن مشاعرهم وعواطفهم في رسائل يكتبونها كما يفعل الكبار. وكانت نازك بحاجة إلى تلك العواطف الصافية والحب العميق الذي يكنونه لها ولا يستطيعون الإفصاح عنه. وتصورت ان دموعها سوف تنساب من فرط السعادة عندما تلتقي بهم وتضمهم بين ذراعيها عندما تعود إلى العراق.

لم تحس نازك بالحاجة إلى عواطف أهلها وصديقاتها الدافئة فقط، بل وإلى حرارة جو العراق وهي تقاوم زمهرير الثلوج ودرجات البرودة المنخفضة تحت الصفر بأكثر من عشرين درجة أحياناً. وكان البرد يؤذيها، فمع بدء الشتاء بدأ ألم الحنجرة والزكام وأحياناً الحمى، بل وارتسمت آثاره على شكل خطوط داكنة تحت عينيها زادها عمقاً التعب والسهر اللذان تتعرض لهما باستمرار.

وصادف ذات مرة ان تراءى لها شبح الموت بين الثلوج، الموت

انجماداً! فيا للرهبة! كانت ذاهبة في رحلة إلى بحيرتي «كومو» و«جنيفا» اللتين تبعدان مدة ساعتين عن مدينة ماديسون. ضمت السيارة الكبيرة سياحاً من النساء والرجال والأطفال، وبينما هم يمتعون أنظارهم بمرأى الثلوج المتراكمة فوق الأرض وما عليها وإذا بهم فجأة يسمعون أن أحد إطارات السيارات مثقوب وفرغ من الهواء المضغوط في داخله، وينبغي تبديله. نزل الجميع من السيارة، وكانت درجة البرودة تبلغ حوالى الثلاثة والعشرين تحت الصفر! لم تجرب نازك البقاء مدة طويلة في مثل هذا الزمهرير من قبل. أحست بجسمها يلتهب وبدموعها تنساب تلقائياً من شدة البرد، واحمر أنفها وخداها وجبهتها لدرجة مؤذية. مضت حوالي ثلاثة أرباع الساعة على هذه الحال وشعرت ان أطرافها بدأت تتجمد. وأخيراً قرر الجميع ان يتوجهوا إلى أقرب مكان ويطلبوا النجدة. ساروا في الطريق الذي بدا كالسهل الثلجي المترامي النهايات ووصلوا إلى محطة بنزين وهبّ من فيها لنجدتهم. ارتعبت نازك من فكرة الموت بفعل الثلوج وأدركت فظاعة حال من يموتون في الصحاري الثلجية وهم في عزلة تامة عن الناس وينطمرون تحت الثلوج، فيا لها من ميتة شنيعة، ولكن الجميع بقوا لحسن الحظ أحياء بعد ان حصلوا على معونة الغير. وظلت نازك تحس لسعات البرد تلاحق بدنها وتؤذيه، وخشيت من الإصابة بالزكام والتهاب الحنجرة والرشح وهي تخاف منها جميعاً في فصل الشتاء.

عندما عادت إلى البيت أخذت تشرب أكواب الشاي الساخن مع الليمون وتتناول أقراص الاسبرين وتتغرغر بالماء المالح وبفضل ذلك كله استطاعت ان تفلت من أمراض البرد. حضّرت لها كل هذه السوائل الساخنة صاحباتها الأميركيات مثل مسز فوموسا ودولوريس وماركريت، وأعددن لها أكياساً من الماء الحار ليدفأ جسمها بشكل جيد، وقد اعتنين بها عناية فائقة لدرجة أحست معها بالخجل من لطفهن. ولم تكن نازك تظن ان الأميركيات يمكن ان يكن بمثل هذه العاطفة والاهتمام، غير انها اكتشفت انهن يسرعن لبذل مساعدتهن كلما وُجدت حاجة لذلك. فذات مرة أمضت صديقة لها نهاراً كاملاً

تطبع لها مقالاً على الآلة الكاتبة، ونازك تدرك قيمة الوقت عند الغربيين ومدى تقديرهم له، ومع ذلك كرست له كل تلك المدة.

اعتادت نازك على شتاء ماديسون، على مشهد الثلوج الهشة المتراكمة فوق العمارات والأشجار، على الطرق الزلقة بفعل الجليد المتصلب كالصخر المصقول، وندف الثلج المتساقطة بكثافة فوق الرؤوس عندما يتنقل الناس لأداء أعمالهم اليومية. وذات يوم هبت عاصفة ثلجية على ماديسون استمرت النهار بطوله. وعندما تصاحب الرياح الثلوج فإن البرد تتزايد حدته لدرجة يخيّل إلى المرء ان درجات البرودة أخفض مما هي عليه بكثير. وكان الناس يحمون أجسادهم منه بالملابس السميكة والأحذية المبطنة بالفرو والقفازات الصوفية، واستطاعت نازك ان تتكيف مع هذا الجو الغريب عليها.

أخذت نازك تنال شهرة كبيرة بين منتسبي جامعة ماديسون نتيجة كتاباتها النقدية التي كانت تنشرها باللغة الانكليزية. كانت تتصور انها تجيد الكتابة باللغة العربية فقط، غير انها اكتشفت هنا ان الابداع يكمن فيها، فروحها تنطوي على شاعرة وأديبة، وما اللغة إلاّ شكل من أشكال التعبير.

كانت نازك تثير دهشة البعض لاهتمامها بالحصول على شهادة الماجستير. فقد استغربت إحدى صاحباتها التي كانت معجبة بموهبتها من إقدام نازك على إكمال دراستها العليا. كانت تقول لها، أنت فتاة موهوبة والجامعة ليست للموهوبين. إن مقالك الذي ألقيته في القاعة رائع بأفكاره، غير انه لن ينال رضا الأساتذة، وأخشى على إبداعك ان تقتله الجامعة. فالمقالات العادية في مضامينها وأسلوبها هي التي يريدها الأساتذة هنا! كانت هذه الصديقة تدرك جيداً الأسس المحددة التي تقوم عليها الدراسة الجامعية عموماً، ولذلك ألحّت على نازك ان تكتفي بشهادة الماجستير ولا تقدم على الدكتوراه خوفاً على موهبتها من الضياع. وكانت نازك تدرك صحة رأيها، وتعرف انها خلقت للشعر والكتابة، وتتعذب من اضطرارها إلى خنق أبيات الشعر وهي تكاد

تطفر إلى شفتيها، تفعل كل ذلك من أجل الدروس وحاجتها الماسة للوقت الذي تكرسه لها.

ولم تكن نازك تدرك ان الأساتذة الجامعيين عموماً لا يرتاحون من الطلبة الموهوبين وان الموهبة وحدها لا تكفل لها بلوغ غايتها العلمية. ومما زاد الأمر سوءاً ان بعض الأساتذة كانوا ينزعجون من آرائها، ومن شرودها أحياناً لدرجة تبدو وكأنها ليست موجودة في الصف. وقد انزعجت مرة إحدى الاستاذات لدرجة كبيرة من موقفها، فنبهتها صديقتها إلى عواقب ونتائج ما يترتب على موقفها ذاك. وبيّنت لها ان الأساتذة يملكون زمام أمور الطلبة بأيديهم. فيمكن ان يعطي الاستاذ درجة رسوب على مقال رائع كالذي ألقته نازك إذا لم يرتح له. وأخبرتها ان عليها ان تدرك ان مصيرها العلمي متعلق بهم، ولا يسعها هنا ان تتصرف كأديبة مستقلة، فلا بد لها ان تتحاشى الآراء التي تضايق الاستاذ بدل ان تفصّل فيها القول كما فعلت مرة، فالابداع وحده غير كافٍ للحصول على شهادة الماجستير.

وجدت نازك ان صديقتها مخلصة في كلامها وانها تقول الحق، ووجدت نفسها في موقف محرج مع تلك الأستاذة التي عارضت آراءها. وقنعت برأي صديقتها بأن عليها ان تعتذر لها إذا كانت تظن بأن ما صدر عن نازك يثير سخطها. فتناولت جهاز الهاتف وكلّمت الاستاذة التي بدا على صوتها الارتياح العميق من مكالمة نازك لها لدرجة امتدحت مقالاتها وقالت لها انها لم تر نظيراً لها في الصفوف التي تدرسها، وبأنها مسرورة لأن تكون لها آراؤها وأفكارها الخاصة بها. تعجبت نازك من البساطة والسهولة التي زال بها غضبها! مجرد كلمات لطيفة بالهاتف لا غير! وأدركت ان عليها ان تكون أكثر مرونة وواقعية مع الأساتذة حتى لا تعقد الأمور على نفسها في المستقبل!

وفي الحقيقة ان أساتذة قسم الأدب المقارن في جامعة وسكونسن / ماديسون لم يشعروا بالارتياح لدراستها عندهم، وتألبوا عليها مسبقاً منذ تسلمهم تقرير السيد ديزموند ستيوارت عنها، الذي كان يدرس في المعهد البريطاني في العراق. فقد جاء في تقريره عنها، ان نازك الملائكة

تشرّف أية جامعة تدرس فيها وانها غنية عن التعريف لأن البلاد العربية كلها تعرفها. ولا شك ان وجود موهبة كبيرة بين الطلاب لا تطيقه الجامعات لأن فيه تجاوزاً على حدودها الثقافية المألوفة.

غير ان المشاكل الدراسية لم تقف عند هذا الحد. ففي مطلع شهر نيسان/ابريل ١٩٥٥ استدعاها المشرف على دراستها وأخبرها ان عليها ان تدرس (١٢) وحدة دراسية في الأدب الانكليزي، إضافة إلى (٢٤) وحدة مقررة في الأدب المقارن، استغربت ان يدرس طالب الماجستير (٣٦) وحدة بدل (٢٤) التي يخضع لها الجميع. وبيّن لها السبب في انها لم تحصل على درجة الليسانس في الأدب الانكليزي، وعليها ان تدرس سنة كاملة مكثفة للحصول على الليسانس في الأدب الانكليزي، ومن ثمة تبدأ بالماجستير في الأدب المقارن!

وقع هذا النبأ عليها كعاصفة ثلجية وهي تدور في دوامتها. كانت تحلم ان تنهي دراستها بأسرع ما تستطيع وتعود إلى الوطن. وكانت تنتظر ان تحصل على الماجستير في شباط/فبراير ١٩٥٦، وإذا بها تؤجل إلى آب/اغسطس من السنة نفسها. تمسكت بحبل الصبر ودعت الله ان يأخذ بيدها ويساعدها في هذه المحنة.

ومما زاد من حزنها، هذه الفوضى الدراسية التي وجدت نفسها فيها. فبعد ان قطعت شوطاً في دراسة الماجستير عليها ان تعود القهقرى إلى الدراسة الجامعية الأولية، وفي ذلك تعب إضافي وهدر للوقت. ولكن لا بد مما ليس منه بد! عليها ان تدرس ليل نهار وتقرأ آلاف الصفحات في الكتب التي ينبغي دراستها أو الاطلاع عليها. وضاقت ذرعاً بهذه الحال إلى درجة ان يساورها الندم أحياناً على مجيئها إلى أميركا. فقد كانت القيود الدراسية المفروضة على وقتها تؤذي روحها وميولها لأنها تحول بينها وبين ميولها الشعرية. وكما هو شأنها منذ عهد الطفولة، فقد فرّجت عن همها بالبكاء. فلمن تشكو وهي في غربتها من سوء الحظ الذي لحق بها؟ استلقت على سريرها وأطلقت لدموعها العنان. فالدموع تغسل أحزان الروح وتعيد إليها الهدوء والقدرة على التحمل والصبر وتعود إلى الانكباب على المواد الدراسية.

ومما خف العناء عنها ان نازك صارت في هذه الفترة من عمرها شديدة الايمان بالله، وكانت تلاوة القرآن تبعث الراحة في نفسها. وفي سورة بكائها الحار وهي تشعر بمعاكسة الزمان لها، وجدت بجانبها القرآن، ففتحته وأخذت تقرأ كيفما اتفق فوقع بصرها على الآية: ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم. كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقاً من المؤمنين لكارهون...﴾. شجّعتها هذه الآيات، فكفكفت دموعها وأوكلت أمرها لله، فهو القادر على كل شيء وبمشيئته حملتها الأقدار إلى أميركا. هكذا كانت نازك تفكر في عام ١٩٥٥ عندما تلم بها الملمات.

غير ان هذه العقبات والشعور بالوحدة والتوق إلى نظم الشعر وإلى رؤية الأحباء في العراق كانت من الأمور الزائلة التي تنسى مع مرور الوقت، أما الذي يبقى ويؤثر في الحياة فهو الثراء والخصب الفكري الذي تتركه الدراسة المتعمقة والحياة الثقافية الغنية. وتشير في (لمحات) بارتياح بالغ إلى تلك الفترة التي قضتها في أميركا فتقول:

«وخلال هذه الدراسة اكتسبت ثقافة غنية رائعة أخصبت ذهني وملأتني سعادة، وكنت أقضي أغلب الوقت في مكتبة الجامعة القريبة التي كان لها أعمق الأثر في حياتي في تلك الفترة. كما ان حياتي اغتنت بأفكار عذبة كثيرة منوعة، واكتسبت من التجارب أضعاف ما كسبته من حياتي السابقة كلها. وتغيرت مفاهيمي ومُثلي ومقاييسي وتبدلت شخصيتي كلها.

وقد كان النظام في هذه الجامعة رائعاً لأنه لا يتطلب كتابة أطروحة كبيرة بل يكلف الطالب بإعداد مجموعة كبيرة من الأبحاث في موضوعات أدبية منوعة، فكنت أجد متعة عظيمة في كتابة هذه المقالات التي مرّنت قابليتي في النقد الأدبي. وما زالت الأبحاث المكتوبة بالانكليزية تنتظر أن أترجمها إلى العربية وأنشرها»[1].

تلخص نازك في هذا المقطع الحصيلة الضخمة التي خرجت بها من دراستها في الغرب. ولم يفتها أن تدوّن انطباعاتها الغنية والغزيرة عن تلك

---

(١) نازك الملائكة. لمحات من سيرة حياتي وثقافتي. ص ١٠.

الرحلة الثقافية التي طالت سنتين. إن كتابة المذكرات عادة شبّت عليها منذ كانت في المدرسة الابتدائية. وكانت تنوي ان تنشر مذكراتها عن تلك الحقبة المثيرة من حياتها في أميركا. وبدأت فعلاً بكتابتها وأرسلت المقال الأول إلى جريدة «الأهرام» القاهرية في عام ١٩٦٦، ثم توقفت بسبب مشاغلها الكثيرة في التدريس والأمومة وإدارة شؤون البيت وكتابة المقالات، مما لم يترك لها وقتاً لاتمام مذكراتها. وتعطينا في «لمحات» فكرة عن مضمونها فتقول:

«...استغرق إعداد الماجستير في الأدب المقارن سنتين كتبت خلالها مذكرات أدبية كثيرة سجلت فيها ملاحظاتي على الكتب التي قرأتها والأشخاص الذين تعرفت إليهم وعشت بينهم في تلك الفترة كما احتوت على آرائي المفصلة المركزة في المرأة الأميركية. ومع هذا كله كنت في مذكراتي أغوص غوصاً عميقاً في تحليل نفسي، وقد اكتشفت انني لا أعبر عن ذهني وعواطفي كما يفعل كل انسان حولي وإنما ألوذ بالانطواء والصمت والخجل. واتخذت قراراً حاسماً ان أخرج على هذا الطبع السلبي، وشهدت مذكراتي صراعاً عظيماً مع نفسي من أجل تحقيق هذا الهدف، فكنت إذا تقدمت خطوة تراجعت عشر خطوات بحيث اقتضاني التغيير الكامل سنوات كثيرة طويلة. وأنا اليوم أدرك ان تغيير العادات النفسية من أصعب الأمور، ولذلك أعتبر كفاحي المتواصل لتعديل أعماقي النفسية ومسلكي الاجتماعي كفاحاً بطولياً...»(٢).

ووسط كل هذه المشاغل الدراسية تابعت نازك تطوير مؤهلاتها الموسيقية، فأخذت دروساً في الموسيقى السيمفونية، وعلّمهم الاستاذ كيفية قيادة الفرقة، وأحبت نازك هذه الدروس كثيراً. كانت أيضاً تشتري السيمفونيات وتصغي إليها في فترات الراحة. وفي مجال شراء الاسطوانات أثارت استغراب نازك طريقة الاعلان الأميركية. فذات مرة أرادت ان تقتني السيمفونيات الأولى والثامنة والتاسعة لبيتهوفن، فأرسلها لها نادي بيع الاسطوانات الكلاسيكية مجاناً! وعرفت ان السبب هو

(٢) المصدر نفسه ص ١٠ - ١١.

إغراؤها في الاشتراك في النادي، وبوسعها دون ريب ان لا تشترك! وأسعار الأسطوانات الكلاسيكية مرتفعة نسبياً مقارنة مع الأشياء الأخرى. فقد كانت السيمفونية التاسعة وحدها لبيتهوفن تباع في بغداد بخمسة دنانير، وهذا مبلغ غير قليل في الخمسينات. وتلقت هدايا مجانية من هذا القبيل كالسيمفونية الناقصة لشوبرت والخامسة لبيتوفهن وقطع موسيقية لباخ وموزارت وبرامز! أعجبتها هذه الطرافة في مظاهر الحياة الأميركية، هكذا يكون إذن الاعلان عن الأشياء!

كانت تغتني كل يوم علماً ودراية وتتزود بانطباعات جمة وهي التي تميل إلى الجد والتأمل في كل ما يحيطها من سلوك وقيم ومظاهر. وكانت تجد نفسها على المحك باستمرار للقيام بأشياء جديدة لم تقدم عليها من قبل. كان عليها ان تقدم بحثاً في الأدب الفرنسي باللغة الفرنسية! ورغم انها درست الفرنسية واللاتينية في بغداد غير انها لم تكن متأكدة من قدرتها على كتابة بحث. اعتادت على الذهاب إلى مكتبة الجامعة في الساعة التاسعة صباحاً والانكباب على العمل. وبدأت تقرأ الأشعار والروايات بالفرنسية، واكتشفت مقدرتها الكبيرة فيها. فقد قرأت ذات مرة رواية في ثلاثمائة صفحة في خمسة أيام! وكانت مترددة في قراءتها بالفرنسية، وبحثت عن ترجمة لها بالانكليزية، توفيراً للوقت، فلم تجدها. وهكذا وطّنت نفسها على خوض تجربة قراءتها بلغتها الأم، يساعدها في ذلك إرادتها القوية في إجبار نفسها على الجلوس ساعات طويلة متواصلة مع الكتاب دون الاستسلام للتعب أو حتى الملل عندما تشعر بهما. وأخذتها الدهشة عندما رأت انها تقرأ بلزاك وزولا وغيرهما من الروائيين الفرنسيين دون حاجة إلى استخدام القاموس. وشعرت بلذة فكرية وهي تكتب البحث المطلوب باللغة الفرنسية.

وهكذا تصرمت السنتان الدراسيتان اللتان قضتهما نازك في الولايات المتحدة بين مظاهر ثقافية غنية متنوعة وحنين إلى الوطن. حصلت على شهادة الماجستير في الأدب المقارن وبدأت تتهيأ لرحلة العودة إلى العراق، ولم تكن تزمع ان تعود مباشرة إلى الوطن وإنما ان يكون خاتمة سفرها إلى

دول أخرى. فقد مرت بإيطاليا وجنوب فرنسا، وأول بلد عربي نزلت فيه هو سوريا.

كانت قد تلقت دعوة، وهي ما زالت في الولايات المتحدة، لحضور مؤتمر الأدباء في بلودان عام ١٩٥٦. سرّها ان تحضر المؤتمر بعد هذا الغياب الطويل عن الأدب العربي والأدباء، غير انها أحست بشيء من الضيق في الوقت نفسه. فبعد ان قضت سنتين وهي تكتب وتقرأ باللغات الأجنبية، اكتشفت ان التعبير باللغة العربية لم يعد سهلاً ميسوراً كما عهدته في نفسها من قبل. فالعبارات الانكليزية كانت تطفر إلى شفتيها بدل العربية عندما تريد الافصاح عن رأي ما. وقد أزعجتها تلك الحالة التي ظلت ترافقها مدة طويلة بعد رجوعها إلى العراق.

صاحب الشوق والحنين إلى العودة شعور آخر كان مبعث كآبة وضيق لها. فبعد رحلتها الدراسية الأولى (١٩٥٠-١٩٥١) افتقدت عند رجوعها إلى ديارها أشياء كثيرة درجت عليها الحياة في أميركا، كالبيوت المريحة المجهزة بالماء الحار والتدفئة المركزية، الطعام الذي لا يحتاج إلاّ إلى اعداد بسيط، فهو شبه جاهز، والحياة الثقافية الغنية من محاضرات في مختلف الموضوعات ومعارض رسم وحفلات موسيقية وغنائية، الحرية التامة التي تحس بها والخالية من القيود المفروضة على حديثها، خروجها من البيت، قضاء وقتها، فلا أحد يتدخل في حياة الفرد ويملي عليه آراءه وتقاليده وأعرافه. ومع ان نازك كانت شديدة التمسك بالأخلاق الشرقية التي نشأت عليها، وظلت ملتزمة بها كل الالتزام في سلوكها في علاقتها مع العراقيين والأميركيين، غير انها كانت تشعر بالارتياح وصفاء الذهن من امتلاكها التام لزمام أمورها ومسلكها ووقتها وتصريفها شؤونها اليومية بالاعتماد على نفسها، دون ان يشعرها أحد بأنها فتاة وينبغي ان يرافقها أحد في تنقلها وسفرها لأن التقاليد العائلية والاجتماعية لا تسمح بغير ذلك.

لا يعني هذا ان نازك كانت معجبة بنمط الحياة الأميركية. ففي الحقيقة كانت متمردة عليها وترى التفاهة والسطحية تسيطر على حياة معظم الناس ولا تشعر بصلة حميمة تربطها بهم رغم انها تعيش بين

ظهرانيهم وتلتقي بهم بلا انقطاع. وكان يعجبها فيهم لطفهم وروح الود والمساعدة التي يبدونها للغير، غير انها لا تحس بالدفء إلاّ بين أهلها وصديقاتها ومعارفها. وكانت تتمنى ان تنام من جديد في غرفتها وتجلس خلف مكتبها وتحس بأنفاس أهلها قربها، بمزاحهم، بغنائهم بشجارهم.

هكذا ازدادت النوازع المتباينة في نفسها، فقد ازدادت التناقضات الفكرية تجاه الحياة التي تحياها والتي يحس بها كل من يعيش عدداً من السنين في الخارج، ويتعرف إلى عالم مغاير لعالمه في التفكير وإلى نمط جميل من التسهيلات المعاشية كالأكل والسكن والنشاطات الثقافية. لقد اعتادت على طبيعة الحياة في أميركا وعليها ان تتخلى عنها من جديد. وهكذا تجد نازك يبرحها الشوق لبلدها وتكره الفقر الروحي والسطحية وضيق الأفق التي يحياها الناس والعودة إلى الحياة الروتينية الرتيبة في التدريس والعمل. لقد تبدلت نازك تبدلاً عميقاً في هاتين السنتين بصورة أبعد غوراً من رحلتها الأولى ولهذا شابت الكآبة فرحة العودة.

العودة إلى الوطن

في يوم الأحد المصادف ٣٠ أيلول/سبتمبر ١٩٥٦ وصلت نازك إلى العراق تحمل معها شهادة الماجستير. وكانت فرحة كبرى وهي ترى وجوه قومها السمراء في المطار وتسمع اللهجة العراقية الدارجة من كل الرائحين والغادين فتبتسم لها في دخيلتها وكأنها تقول لها لقد انتهى زمن الغربة والثلوج والبرد. واستقبلها أهلها بأشواقهم الحارة وقبلاتهم، وأحست بالدفء يسري في جنباتها من هذه العواطف التي افتقدتها مدة طويلة.

رجعت إلى بيتها وجلست في غرفتها التي كانت تحلم بالجلوس بها وهي في أميركا وكأنها أمنية صعبة المنال. وبدأ الأهل والأصدقاء يتوافدون لزيارتها وسماع حديثها وانطباعاتها والبحث عن التغيير في مظهرها الذي يتوقعونه فيها. غير انهم وجدوا انها ما زالت تلك النازك نفسها التي عرفوها بوجهها الخالي من أصباغ الزينة البيضاء والحمراء والحذاء الواطيء الكعب والتسريحة العادية لشعرها، غير ان الملابس التي ترتديها جميلة ببساطتها وأناقتها أكثر من السابق وتنم عن ذوق متواضع، وأعجبتهم شخصيتها الواثقة البعيدة عن التكبر والغرور التي ألفوها فيها.

عادت نازك إلى حياة التدريس والعمل، وتعينت في ١٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٧ مدرسة معيدة في كلية التربية في بغداد التي كان يطلق عليها دار المعلمين العالية وتخرجت منها سنة ١٩٤٤. سرها ان تعود إلى أروقتها وكانت تلقي نظرات على الغرف التي درست فيها وتبتسم لذكرياتها ولتحقق أمنيتها في العودة إليها مدرّسة بعد ان تركتها طالبة.

وكان يسرها رؤية الأساتذة الذين درّسوها وكانوا يرحبون بها كزميلة جديدة في التدريس. وأخذت تدرس النقد الأدبي والعروض في قسم اللغة العربية.

وجدت أنها بحاجة إلى وسيلة نقل تكون تحت تصرفها من بيتها في الكرادة إلى الوزيرية حيث تقع دار المعلمين العالية وهي مسافة طويلة تحتاج إلى تغيير ثلاث مناطق للسيارات العامة مما يبدد وقتها ولا يخلو أحياناً من إقلاق راحتها. فبدأت تتعلم السياقة، وحصلت سريعاً على إجازة للسياقة، واشترت سيارة من نوع بيجو الفرنسية. كان عدد الفتيات اللواتي يقدن السيارات في الخمسينات قليلاً وتقتصر على بنات العوائل الغنية والميسورة الحال. ولم تكن السياقة شاقة آنذاك لأن شوارع بغداد لم تكن مكتظة بالسيارات كما هي حالها الآن، بل يمكن اعتبارها شبه خالية إذا قورنت بالازدحام الشديد الذي تشهده العاصمة الآن، ولذلك لم تجد نازك صعوبة تذكر في قيادتها. وصارت السيارة مصدراً للنزهة والترويح عن النفس وليس مجرد وسيلة نقل مريحة. فكانت نازك تأخذ أخواتها في السيارة وتتجول بهن في شوارع بغداد، وتتوقف أحياناً عند حلويات (جواد الشكرجي) في منطقة الكرخ، المشهور بصنع البقلاوة، فيشترون منه ما يطيب لهم ويأكلونه بلذة وسرور يختلفان عما هما عليه عندما يجدونه في البيت.

وفي مجرى هذه الحياة اليومية المألوفة كانت نازك تكتب وتنظم الشعر. ففي عام ١٩٥٧ صدر ديوانها الثالث (قرارة الموجة). وهو أول ديوان يصدر لها بعد وفاة أمها فأهدته لها: «إلى أمي... أول شاعرية خصبة تتلمذت فيها»، وقد نظمت قصائده في الفترة الواقعة بين (١٩٤٧-١٩٥٣) أي قبل رحلتها الثانية إلى أميركا التي غيرت مفاهيمها حيال كثير من الأمور وعمقت نظرتها إلى الحياة والثقافة والفكر وقد أشارت إلى ذلك التغير العميق الذي طرأ عليها في المقدمة التي كتبتها للديوان، غير انها أرجأت نشرها في الطبعة الأولى كيلا تؤثر تحليلاتها في القراء. ولم تصدر تلك المقدمة إلا في الطبعة الثالثة وتحدثت فيها عن نفسها بوصفها شخصاً ماضياً، صار جزءاً من تاريخ حياتها التي

لا تقر كثيراً من أسلوب تفكيرها الآن. تجادل هنا نازك الجديدة، الشاعرة القديمة وتطرح عليها سؤالاً حول عنوان الديوان فتقول: لماذا (قرارة الموجة) وليس (قمة الموجة)؟ وتجيب نازك الماضية:

«ما القمة بعد؟ انها بداية الانحدار. أما القرارة فليست إلاّ الاستجمام الذي ينطوي على بذرة التحفز إلى الانبثاق الحاد والصعود إلى القمة التالية... وهكذا ترين ان (قرارة الموجة) يرى الحياة على صورة تعاقب قمم وانحدارات لا نهاية لها. وإذا كان هذا الشعر قد نظم في منحدر الموجة فإنها محض صدفة لا أكثر»(١).

فالقرارة ليست حالة سكون واستقرار كما قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى، وإنما هي تهيؤ لحركة جديدة تؤدي بالمرء إلى الاستمرارية وعدم التوقف. وكانت نازك قد أوضحت هذا المعنى للسكون والحركة في مقال نشرته عام ١٩٥٤ تحت عنوان «التجزيئية في المجتمع العربي» جاء فيه:

«ان السكون ينبغي ان يكون فاصلاً بين حركتين، وهذا هو بالقياس البايولوجي. إنه كالنقطة المنخفضة في الموجة، فائدتها ان تهيىء لقمة جديدة. والموجة عندما تتريث في نقطة منخفضة انما تجمع طاقتها للحركة التالية»(٢).

ونازك لا تحب القمة لأنها تعني طريق العودة حيث الأشياء تفقد جدتها وتصير مكررة ومعروفة وتخلو من مفاجأة الغموض الذي كان يحيطها والمجهول الذي يكتنفها. وهذا ما تكرهه شاعرتنا. ومن (القرارة) كانت نازك تتحفز وتقوم بنظم قصائد ديوانها الرابع (شجرة القمر).

كانت الخمسينات فترة غنية لا بنظم الشعر وحده وإنما بكتابة دراسات كثيرة حول الشعر وتنظيره. فإلى هذه السنوات تعود معظم المقالات التي كتبتها في مجلتي «الآداب» و«الأديب» اللبنانيتين. فقد صدر لها «بداية الشعر الحر وظروفه» و«الجذور الاجتماعية لحركة الشعر

---

(١) نازك الملائكة. **قرارة الموجة**. دار العودة. بيروت ١٩٧١. ص ١١ - ١٢.
(٢) نازك الملائكة. **التجزيئية في المجتمع العربي**. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٧٤.ص ١٥-١٦ .

الحر» و«أساليب التكرار في الشعر» وغيرها من المقالات التي ضمها فيما بعد كتاب «قضايا الشعر المعاصر» وصار هذا الكتاب مرجعاً مهماً لكل من يريد تتبع حركة الشعر الحر والبحث في أساليبه.

لم تقصر نازك نشاطها على دراسات في الشعر وطبيعته وإنما أبحاث في الرواية والمسرح ومارست كتابة القصة القصيرة. اهتمت إلى جانب ذلك بالمشاكل والتعقيدات التي يعاني منها المجتمع العربي، ووجدت عنصر التجزيئية عميقاً في حياتنا مما يجعل الفرد العربي يعاني من أزمات نفسية لا شفاء منها. وقد جمعت بعضاً من تلك المقالات وأصدرتها في كتاب عنوانه «التجزيئية في المجتمع العربي» صدر عام ١٩٧٤.

بعد غيابها عن الوطن سنتين انغمرت في الكتابة وفي حياتها اليومية المألوفة لها سابقاً بكل ما فيها من متناقضات ورضا ومتعة واستياء وضجر وحرية وقيود ومجاملات وعزلة. غير ان الذي استجد فيها ان إحسان كانت قد شاركتهم السكن مع زوجها وابنها لفترة من الزمن. وكانت نازك تسعد وتستمتع بابتسامات ملهم الصغير والحفيد الأول لصادق الملائكة. أحبت وداعته وهو متعب يريد ان ينام وشيطنته عندما يكون في نشاطه المعتاد وكانت تسحرها ضحكاته الطفولية العذبة، تناديه يا حبيبي وتضحك من صرخاته الحادة التي يطلقها عندما يريد شيئاً ولا يحصل عليه. كان ذلك الصراخ يزعج جده أحياناً لأنه يحرمه من الهدوء الذي اعتاد عليه، ونظمت له مرة أبياتاً عامية تلاطفه فيها فتقول:

ملهم حافظ غنّوه غيره ما بدّو
كل يوم يغني بيه ويضوّج جدو

كان وجودها بين أخواتها يشعرها بالسكينة الروحية والدفء، ويداخلها السرور من مشاكسات أختها سعاد التي ألفتها منذ الطفولة. وتضحك عندما تغسل سعاد ـ التي تولت إدارة المنزل ومسؤوليته بعد وفاة أمها ـ مجاز البيت والطارمة ودرجات العتبة وتمنعهم من السير عليها لمدة ساعة حتى تجف تماماً. وغالباً ما تفعل هذا في وقت القيلولة فتحرمهم من النوم وتتشاجر مع من يخرق تعليماتها، واعتاد الجميع ان ينصاعوا

لإرادتها. كانت تشعر بالبهجة عندما يجلسون جميعاً إلى المائدة لتناول وجبات طعامهم وتأكل مما تطهيه لهم يد حبيبة إليها، يد إحدى أخواتها اللواتي تشعر بفيض من الحب نحوهن. اعتادت ان تمزح معهن أحياناً، فبعد ان تصيب حاجتها من الطعام، تدفع صحنها إلى وسط المائدة وتقول «ليس طيباً» على سبيل النكتة. ويحلو لها ان تخلق جواً من البهجة والدعابة وهم إلى المائدة، فتتسابق مع زوج أختها، السيد علي الشعلان، في شرب خل الطرشي من الصحن العميق الذي فيه الطرشي، وكان علي الشعلان يغلبها ويضحكون من الفائز. ويجري سباق أحياناً في أكل باطن قشور (الرقي) البطيخ الأحمر، واعتادت نازك ان تفوز في هذه المسابقة. هذا إضافة إلى تبادل النكت والمزاح. وفي أوقات الفراغ كانت تجلس في غرفتها وتغلق دونها الباب وتظل فيها ساعات طويلة تكتب أو تنظم الشعر أو تقرأ دون ان يزعجها أحد.

ظل والدها يلازم غرفته منذ وفاة زوجه ويتناول فيها الطعام بمفرده ويكتب الموسوعة الموسومة (دائرة معارف الناس). وفي الأماسي كانت العائلة تجتمع عنده عادة، فقد اشترى جهاز تلفزيون حال دخوله إلى العراق، ووضعه في غرفته. وفي فترات الاستراحة كان يشاهد التلفزيون مع بناته ويتسلى بما يعرضه من أغان وأفلام أجنبية ومسابقات رياضية وغيرها.

ظلت نازك شغوفة بالرحلات في ربوع الوطن. وكان بها حنين إلى شمال العراق بجباله وشلالاته ومناظره الجميلة. وقامت في أول صيف قضته في العراق بعد عودتها من أميركا بزيارة الشمال في سنة ١٩٥٧ مع أختها لبنى وأخيها عصام وعمتها عائشة وصغارها الذين تحبهم حباً جماً. كانت تسمي الشمال (جنة العراق) بمناظره الخلابة وجباله الجليلة، فقد سبق لها أن زارته وافتتنت به وتحدثت عن روعته لكل من يحيطون بها. وها هي ذي من جديد تزور منطقة شلال (كلي علي بك). وكان الطريق إليه آنذاك ضيقاً يمر وسط جبال شاهقة لا يخلو من المخاطرة على من يقطعها. ففي مدخل الوادي تقوم صخرتان ضخمتان، وعندما وصلت السيارة إليهما كتم الجميع أنفاسهم إلى ان اجتازتهما. وأخذت نازك التي

حدثت صغار عمتها عن هذه المنطقة السحرية تراقب وقع هذا الجمال فيهم وكأنها تختبر تأثير وصفها السابق لهم عندما زارت هذه المنطقة. وأول ما لاحظته هو الصمت العميق الذي خيّم عليهم من توقع الخطر وإدراك المغامرة التي أقدموا عليها. وما ان لاح منظر شلال (كلي علي بك) ووقفوا أمام مياهه التي تتدفق بقوة وضجيج ورش رذاذ الماء على الناظرين إليه على مقربة منه، حتى بدا عليهم الانبهار بهذا الجمال الرائع المخيف، فأخذوا يملأون عيونهم من فتنته وآذانهم من هدير مياهه. وهتفت الصغيرة ميسون التي راعها حسنه: هذا ما لا يمكن وصفه! ولم يقل انبهار نازك به عن الذين يرونه لأول مرة. فقد افتتنت به أيما افتتان وهزها جماله لدرجة أرادت ان تبكي من فرط الروعة التي أترعت أحاسيسها. إنها لم تر مثل هذا الجمال الآسر للطبيعة في أي بلد من بلدان العالم التي جالتها، وأحست انها تقف مسحورة أمام فتنته.

إن هذه الرحلة البهيجة لم تخل من مصادفة غريبة ظلت عالقة في ذهن الجميع. فعندما كانوا يتجولون في منطقة (حاج عمران) الشاهقة الجبال والواقعة قرب الحدود العراقية الايرانية، نادتها أختها باسمها. وكان هناك بعض الشبان، فسمعوا اسم نازك فخفوا إلى أخيها يسألونه ان كانت هي الشاعرة نازك الملائكة نفسها. ولم تكن نازك تريد ان تتقيد بنظرة الناس إليها كشاعرة، وإنما تريد ان تنطلق على سجيتها كأي فرد عاد يستمتع بحياته الفردية بحرية تامة. فقررت مع من معها ان يصعدوا الجبل ويبتعدوا عن الناس. وما ان وصلوا إلى مكان معين حتى قرروا ان يتناولوا غداءهم فيه. ففرشوا بساطاً على الأرض الصخرية تحت دوحة ضخمة من أشجار الجوز الوارفة الظلال، وبدأوا يصيبون مما حملوه معهم من دجاج وبيض ومقبلات. وقبل ان ينتهوا من تناول طعامهم قال الصغير عادل، ابن عمتها عائشة، ببرود ولا مبالاة: هذه قبور! تطلع الجميع فيما حولهم فاكتشفوا انهم يجلسون في مقبرة. فالقبر في الشمال عبارة عن صخرة صغيرة منتصبة! وإذا بهم يأكلون فوق القبور ويتكىء بعضهم بارتياح إليها! انزعجوا من الحال التي وجدوا أنفسهم فيها وأرادوا ان يلملموا مائدتهم وحاجاتهم ويغادروا المكان. غير ان بعضهم فضّل ان

ينتهوا من تناول طعامهم. وكانت المناظر تغري على البقاء. فالشمس طالعة تغمر بدفئها الخفيف أجسامهم والنسيم البارد العذب يداعبهم ومنظر المياه المتحدرة من الجبل إلى الوادي يحثهم على إطالة التطلع إليه، فما كان منهم إلاّ ان لزموا مكانهم ولم يبارحوه. وعلّقت نازك قائلة، في يوم من الأيام سيأتي أناس ويأكلون فوق قبورنا كما نفعل الآن!

ازداد الشعور بالضيق ومازجه شيء من الخوف عندما رأوا قبراً مفتوحاً، فأسرعوا عندئذٍ بمغادرة المنطقة. ظل عدم الارتياح يخالط نفوسهم من جلوسهم بين الأموات بعد ان غادروا المكان، ولا سيما عندما هبط الظلام وحلّ الليل. وزادت العتمة من مخاوفهم وأخيلتهم، فناموا قرب بعضهم البعض ليطردوا الرعب الذي هيمن على قلوبهم.

عادت إلى بغداد بعد ان استجمت وتخلصت من آب/أغسطس اللاهب. وسرعان ما انقضت العطلة وبدأ العام الدراسي بمشاغله. وهكذا مضى العام في جريانه اليومي المعهود وهمومه وأفراحه الصغيرة. غير ان صيف ١٩٥٨ شهد حدثاً هزّ العراق والعالم وهو قيام ثورة ١٤ تموز/يوليو التي قضت على النظام الملكي وحلف بغداد العسكري وأقامت الجمهورية.

استقبلت نازك الثورة بفرحة كبرى ونظمت قصيدة باركت فيها قيام الجمهورية وحذرت من مغبة التآمر عليها. وسرعان ما بدأت ملامح الثورة المشرقة تغيّم ولم تتحقق كل الآمال التي وضعها الشعب عليها. واتخذت نازك موقفاً حاداً منها فرأت ان:

> «...عبد الكريم قاسم سرعان ما انحرف واستهوته شهوة الحكم وسمح للشعوبية ان تطمس جمال الثورة وتقضي على مبادئها القومية التي كنت أحبها أشد الحب»(٣).

ولم تعد تطيق صبراً على ما يجري من أحداث، فغادرت العراق إلى لبنان وقضت هناك عاماً (١٩٥٩-١٩٦٠).

---

(٣) نازك الملائكة. **لمحات من سيرة حياتي وثقافتي**. ص ١٢.

مع أفراح الابداع وهمومه

مع حلول عام ١٩٧٠ كانت قد طرأت تغيرات كبيرة على حياة نازك التي تابعناها في الخمسينات. ففي يوم الخميس المصادف ١ حزيران/يونيو ١٩٦١ تمّ عقد قرانها على زميلها في الجامعة الدكتور عبدالهادي حبوبة المختص بالأدب العربي والذي كان يدرس معها في كلية التربية في جامعة بغداد. وفي يوم الثلاثاء ٢٣ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٦٢ ولدت أبنها البراق وهو الابن الوحيد لها. غمرت مشاعر الأمومة الفياضة حناياها، وأحست نازك الزوجة والأم بدفء حياتها البيتية رغم المشاغل والمتاعب الكثيرة التي فرضتها عليها، بعد ان صارت مسؤولة عن إدارة شؤون المنزل والتي لم تمارسها من قبل. لا شك انها وجدت مشقة في الجمع بين التدريس والأمومة ومشاغل البيت والشعر والكتابة. لم يعد وقتها ملك يديها كما كانت في السابق ولم يعد بوسعها ان تكرس الشطر الأكبر منه للقضايا الأدبية.

وفي عام ١٩٦٤ لم تعد تسكن حتى في مدينة واحدة مع أهلها، فقد انتقلت من بغداد إلى مدينة البصرة حيث صار زوجها رئيساً لجامعة البصرة التي تأسست في ذلك العام. وتكتب نازك في هذا الشأن:

«... وكنت أعمل في التدريس بقسم اللغة العربية، ثم انتخبت رئيسة للقسم، واستمر عملنا هناك أربع سنوات وغادرنا البصرة إلى بغداد عام ١٩٦٨ حيث عدنا إلى التدريس في كلية التربية سنة واحدة، غادرنا بعدها إلى الكويت للتدريس في جامعتها»[1].

وفي العام المذكور أعلاه، بدأت نازك بكتابة دراسات متتابعة عن

(١) نازك الملائكة ـ **لمحات من سيرة حياتي وثقافتي**. ص ١٢.

الشاعر علي محمود طه، الذي كانت تحفظ له قصائد كثيرة في صباها وتأثرت بشعره. وقد وضعت تلك الأبحاث تلبية لدعوة معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة لالقاء محاضرات في أي موضوع تختاره. وقد صدرت تلك المقالات في كتاب عنوانه: (شعر علي محمود طه) عام ١٩٦٥.

وفي عام ١٩٦٢ صدر لها أول كتاب في دراسة الشعر الحر والذي وضعت معظم أبحاثه في الخمسينات. وقد كان له صدى واسع في النقد العربي لما له من أهمية في دراسة الشعر الحر الوليد ودلالاته، والتي صارت نازك من أول منظّريه. وفي عام ١٩٦٨ صدر ديوانها الشعري الرابع الذي يحمل عنوان (شجرة القمر). وفي عام ١٩٧٠ صدرت مطولتها الشعرية: «مأساة الحياة وأغنية للانسان».

كان والد نازك يعاني من آلام الشيخوخة وأمراضها منذ سنتين وقد بلغ السادسة والسبعين من عمره. وقد أهمل نفسه بعد وفاة زوجه. وكان من الرجال الذين لا يتحملون العيش بدون امرأة تسهر على راحتهم وتقوم بأعباء الحياة الصغيرة معهم. وقد توفي في يوم الأربعاء ٧ أيار/مايو ١٩٦٩ وفي ٨ أيار/مايو نقل جثمانه إلى النجف ودفن فيه وأقيمت الفاتحة على روحه في حسينية التميمي واستمرت ثلاثة أيام.

وبوفاة الوالد انتهت الحياة القديمة، حياة الطفولة والشباب ومقتبل العمر التي عاشتها نازك في بيت والديها حتى زواجها وظلت تزوره وتتردد عليه كلما عادت من البصرة أو الكويت. ففي ٢٠ نيسان/ابريل ١٩٧٠ بيعت دار صادق الملائكة في شارع أبي قلام، بمبلغ أربعة آلاف دينار، وتسلمت مبلغ ٤٣٣ ديناراً وتسلم الولدان ضعف المبلغ وفق الشريعة الاسلامية. وببيعه ضاعت حكايات الشعر والأدب وضحكات الشباب وضجيجه وألحان أغانٍ رنت بين جدرانه وفي أجواء حديقته وأحلام وآمال تعالت في نفوس أناسه، وأحداث موت مفجعة مثقلة بالدموع والأحزان، وسفرات وزيارات، وأيام عيد ومباهج وتخرج من مدارس وكليات وأفراح أعراس واطلالة أطفال على الدنيا. إنها ذكريات

عمر بكامله وتاريخ أعوام زاخرة بالأحداث والنماء والعطاء رحلت عن ربعها وفارقته وظلت تحوم في الذاكرة وحدها.

في تلك السنوات كانت نازك في أواخر الأربعينات من عمرها. ولم تكن الكهولة تبعث فيها الغم أو الأسى كما هي حال الناس عادة، وإنما تجدها قد زادت من خبرتها الحياتية ونضجها الفكري والأدبي. فلا غرو ان تطمح في هذه الأعوام إلى التفرغ من مشاغل الوظيفة وتكريس وقتها للنتاج الأدبي لتجني قطاف ثقافتها العميقة الواسعة التي بلغت أوجها. كانت قد أمضت خمسة وعشرين عاماً في التدريس مما يمنحها حق إحالة نفسها على التقاعد واعتزال العمل الوظيفي. قدمت طلباً إلى جامعة بغداد بهذا الخصوص، غير ان الجامعة لم توافق على إحالتها على التقاعد. عندئذٍ طلبت تمديد مدة إيفادها للتدريس في جامعة الكويت التي كانت تعمل فيها مع زوجها وكان لها ما تريد، فبقيت تدرس في جامعة الكويت.

كان التدريس يلتهم شطراً كبيراً من وقتها، وكان عليها ان تقوم بتحضير المواد التدريسية كالبلاغة والعروض والنقد الأدبي والأدب المقارن، إضافة إلى تصحيح الدفاتر الامتحانية والاشراف على رسائل الماجستير التي يكتبها الطلاب. غير ان التدريس كانت له جوانبه الايجابية أيضاً، فكان يوفر لها مادة للكتابة نتيجة اطلاعها الواسع على العديد من الكتب المتعلقة بالمواد التدريسية مما أتاح لها وضع الكثير من الأبحاث والدراسات التي ألقتها كمحاضرات أو نشرتها في المجلات.

ومع تقدم العمر ظلت الأماني القديمة التي لم تتحقق تراود ذهنها. فالأماني لا تموت في نفس الانسان، بل تترك ظلالاً من الحسرة لأنها لم تتحول إلى واقع ملموس وإنما تصير ذكرى لطموحات مضت. فما زالت نازك تأمل منذ أن حصلت على شهادة الماجستير من جامعة وسكونسن في أميركا عام ١٩٥٦ ان تكمل تحصيلها العلمي وتأخذ شهادة الدكتوراه التي كان بمستطاعها ان تحصل عليها من جامعة الكويت نفسها التي تمنح شهادة الدكتوراه في قسم اللغة العربية. وقد سجلت اسمها عام ١٩٦٥ مع طلبة الدراسات العليا لنيل الدكتوراه. غير انها لم

تكرس جهودها لها بسبب مشاغلها الكثيرة في التدريس ومسؤوليتها عن إدارة المنزل والشؤون البيتية. ولا شك ان المرء يجد نفسه في موقف محرج ان يعود طالباً تحت اشراف استاذ من الأساتذة الذين يدرّس معهم، فكيف إذا كان له مكانة نازك الأدبية وهي الشاعرة والناقدة الذائعة الصيت في العالم العربي. فمن يمكن ان يشرف على ما تكتبه نازك الملائكة وهي التي صدر لها كتاب «قضايا الشعر المعاصر» عام ١٩٦٢، وصار مرجعاً أساسياً في دراسة الشعر الحر يعود إليه الباحث والطالب والقارىء! فكيف يمكن ان يوجه لها دكتور - مهما كانت مكانته العلمية - ملاحظات وارشادات وتصحيحات حول رسالتها! لقد فات الأوان وأسفاه. كان ذلك ممكناً في الخمسينات عندما كانت تدرس في أميركا وأبعدت من ذهنها فكرة البقاء وإكمال تحصيلها العلمي. فقد أمضّها الشوق آنئذٍ لكتابة الشعر وهي مقيدة بمنهج دراسي محدد وواسع عليها تنفيذه. وأمضّها الشوق لأهلها ووطنها وكبحت تلك الرغبة في حناياها وغلّبت عليها تفكيرها الواعي. فهي تدرك ان الكتّاب العرب والأجانب الذين أبدعوا وغذوا الفكر الانساني لا يملكون في أغلبيتهم شهادة الدكتوراه. فهذا العقاد والمازني والرافعي، وشكسبير واليوت وبروك وغيرهم لا يحملون مثل هذه الشهادة، فهي لا تقدم ولا تؤخر شيئاً بالنسبة للمبدعين. غير ان الحصول عليها لم يكن سوى طموح من طموحات الشباب الأثيرة عندها والتي راودتها هي وأختها إحسان وشقيقها نزار وهو الوحيد الذي حصل على الدكتوراه في العائلة.

عاشت نازك مرة أخرى بعيدة عن أهلها في الكويت. لا شك انها كانت تزورهم وتراهم في أيام العطلة الصيفية أو الشتوية وعندما تدعى إلى مهرجان المربد الشعري في العراق، غير انها ظلت لا تستطيع ان تحيا قريباً منهم. ومع انشغالها بشؤون عائلتها فقد بقيت عواطفها فياضة حارة تجاه أهلها تكتب لهم عشرات الرسائل وتتابع أخبار كل أخت وأخ بعد ان تزوجوا جميعاً وصارت لكل منهم عائلته. فنجدها وقد غمرتها الفرحة عندما سمعت أن أختها سعاد ولدت طفلاً بعد ان مرت عليها سنوات وهي بلا أطفال. وما ان تسلمت صورة الطفل وأمه حتى وضعتها في غرفة الجلوس ليتجدد سرورها مع كل نظرة تلقيها عليها.

دأبت نازك على متابعة الهموم والأفراح الصغيرة لأهلها وصغارهم كمرض أحدهم أو نجاحه أو فشله. كانت تتألم وتفرح من صميم قلبها وتنفعل بأحداث حياتهم اليومية. لقد شعرت بسرور كبير لنجاح ملهم، ابن أختها إحسان، في المدرسة سنة ١٩٧٠ ووعدته بإهداء ساعة له. غير ان الظروف حالت دون ان تبر بوعدها إلاّ في مستهل ١٩٧١ لكثرة المشاغل. غير انها لم تنس وعدها وشعرت براحة نفسية عندما استطاعت ان ترسل الساعة مع خالها الشاعر عبدالوهاب الملائكة الذي توجه من الكويت إلى بغداد آنذاك. وأحست بالألم بعد أشهر معدودة لأنه اضطر إلى تأجيل امتحانات ذلك العام بسبب مرضه.

اهتمت نازك أيضاً بمتابعة أعمال الرسم لأبي ملهم الذي كان يشعر أحياناً بالاجهاد العصبي نتيجة التركيز الكبير الذي يتطلبه رسم اللوحات، مما يضطره إلى التوقف عن الرسم لمدة معينة، فتتألم نازك لتوقفه وتفرح عندما يعود إلى عمله الفني الأثير عنده. وداخلها السرور عندما عرض لوحاته في معرض (جماعة بغداد) وقد أهداها منها لوحة (الدلاّت) فاعتزت بحيازتها على هذه اللوحة التي أعجبتها.

كان يشغل بالها عدم ارتياح أخيها نزار في غربته في ألمانيا وصار يشعر بالكراهية لذلك البلد بعد ان قضى فيه زهاء سبعة عشر عاماً، ولم تستطع ان تفهم سر تلك الكراهية التي جعلته يفكر بالعودة نهائياً إلى العراق. ولنزار مكانة خاصة عند نازك، فهو وهي وإحسان يمثلون الثالوث الأدبي والفكري المنتج بين أبناء وبنات صادق الملائكة، وقد قطع كل منهم في مجاله شوطاً يتناسب مع أمانيه أو يبقى دونها. كان نزار ضليعاً في لغات كثيرة، وهو يعرف ويلم بسبع وعشرين لغة قديمة وحديثة، شرقية وغربية، وله أبحاث كثيرة في حقل اللغات وكان يدعى إلى كل مؤتمر لغوي يعقد في أميركا أو أوروبا منذ ان غادر العراق في بداية الخمسينات وعاش في الغربة. وكان يضع في هذه الأعوام قاموساً في سبع لغات لمصطلحات الفن المعماري وهي اللغات الانكليزية والفرنسية والالمانية والاسبانية والايطالية والروسية والسويدية وخامره الشعور بالأسف لأنه استثنى لغته العربية من هذا المعجم لعدم توفر الاصطلاحات المعمارية فيها.

شاركت نازك أختها إحسان في همومها الأدبية ولا سيما قضية النشر في المجلات. وكانت الاختان تنشران في مجلة «الآداب» اللبنانية بعض نتاجهما. وأحياناً يجري توارد خواطر غريب بينهما. فقد ألقت نازك محاضرة عامة في الكويت تحت عنوان: (الشاعر واللغة) ولقيت صدى جيداً في الأوساط الثقافية، وأرسلته إلى مجلة «الآداب» فصدر في عدد تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧١. وكانت إحسان قد أرسلت في هذا الوقت نفسه مقالاً مترجماً إلى (الآداب) تحت عنوان (الشعر واللغة) وتعجبت نازك من هذه المصادفة بأن تكتب هي وتترجم أختها في الموضوع عينه دون علم مسبق لهما بذلك. وكانت نازك تنوي ان تكتب عن المتنبي، فقد كونت أفكاراً عنه ودت ان تضعها على الورق. وإذا بإحسان تبعث لها مقالاً عن غربة المتنبي لتقرأه وكان موضع إعجابها ورأت فيه آراء ممتعة كثيرة. وكانت نازك تريد تناوله من جوانب أخرى لم تلتفت لها إحسان أو الذين كتبوا عنه. وحب المتنبي ودراسته مشترك بين الأختين الأديبتين. وقد نشرت إحسان مقالين عنه في مجلة (الآداب) ١٩٧٠ هما: (المتنبي في مرآة العصر) و(الحقيقة عند المتنبي وابن الفارض).

أحياناً تقدم نازك بعض النصائح لأختها بخصوص النشر في المجلات والتي استقتها من تجاربها في النشر. فعند صدور المقال الأول لإحسان في (الآداب) فكرت بإرسال المقال الثاني عنه إلى مجلة الأديب فطلبت منها نازك ان تتريث رغم ان (الأديب) لها سمعتها الأدبية الثابتة أيضاً. ومرجع ذلك هو الصراع القائم بين (الأديب) و(الآداب) والذي ينعكس بدوره على من يكتب في هاتين المجلتين. فمن ينشر في احداهما عليه ان يكف عن النشر في الأخرى. وهذا ما شعرت به نازك حين بدأت تنشر في (الآداب) إذ جافاها محرر (الأديب) رغم علاقتها القديمة بالمجلة فاضطرت ان تتوقف عن النشر عنده، ولم تكن إحسان تعرف هذه الحقيقة عن أسلوب النشر في المجلات والجرائد.

كانت نازك تنزعج من الهجمات التي تتعرض لها على صفحات المجلات ومعظمها يتعلق بريادتها للشعر الحر وموقفها منه فيما بعد حتى

صارت تتصور ان الدنيا كلها ضدها. وكان هجوم عبدالوهاب البياتي، على الأخص، قوياً رغم انها لم تتعرض له بالنقد في كتاباتها. ومرجع ذلك ان البياتي كان يظن نفسه انه هو الرائد الحقيقي للشعر الحر في العالم العربي وليست نازك الملائكة أو السياب. غير ان نقاداً كباراً لهم منزلة مرموقة في النقد الأدبي وقفوا إلى جانبها واعتبروها الرائدة الأولى للشعر الحر مما خفف عنها وقع ذلك الهجوم الحاد عليها. ويقف على رأس أولئك النقاد الدكتور إحسان عباس الذي أعلن في كتابه (بدر شاكر السياب: دراسة في حياته وشعره) والذي صدر في بيروت عام ١٩٦٩ عن رأيه القاطع في هذه المسألة وهو ان نازك الملائكة هي الرائدة الأولى للشعر الحر في العالم العربي. ونقتبس مقطعاً من هذا الكتاب يغنينا عن الكلام بالتفصيل في هذا الموضوع المتنازع عليه. فقد جاء فيه تعقيباً على ان قصيدة السياب (هل كان حباً) في ديوانه (ازهار ذابلة) تضعه وحدها رائداً للشعر الحر فيقول:

«ذلك ان للسياب قصيدة واحدة نظمها قبل عام ١٩٤٨ يزعم فيها انه اهتدى إلى شكل جديد، ولكنها قصيدة لم تنشق عن الشكل القديم إلاّ انشقاقاً جزئياً طفيفاً، لا يوحي لأحد من الناس بالجدة، بينما أصدرت نازك (عام ١٩٤٩) ديواناً يجري أكثره على هذا الشكل الجديد، وفيه محاولات عامدة لابتكارات وتنويعات في داخل هذا الشكل الجديد، وفيه مقدمة نقدية تدل على وعي بأبعاد طريقة جديدة، بينما تمثل مقدمة السياب لديوانه أساطير (١٩٥٠) خلطاً صبيانياً وسطحية في الفهم للشعر الانكليزي. وليست نازك أقل ثقافة واطلاعاً على الشعر الأجنبي من السياب، فمن الغرور ان يزعم السياب لنفسه انه هو الذي أوجد طريقة حاكاه فيها الآخرون. ومقطع القول إن الشعراء الشبان في العراق كانوا يتململون سأماً من الشكل القديم، وان السياب عثر عفواً على قالب صب فيه قصيدته «هل كان حباً» وان نازك وضعت مخططاً عامداً للخروج بالقصيدة إلى شكل جديد، وان كلاً منهما كان يعمل مستقلاً عن الآخر، متأثراً ببعض أشكال الشعر الأجنبي... وان السياب نفسه لم يكثر من النظم على الطريقة الجديدة إلاّ بعد ان تعرّف إلى محاولة نازك، واتضحت أمام عينيه أبعادها. بل أزيد

فأقول: ان قصيدة السياب «في ليالي الخريف» إنما نسجت على مثال قصيدة «الأفعوان» لنازك...»[٢].

في الحقيقة أصاب نازك الشعور بالملل، بل وحتى التقزز من كثرة الكلام على من تعود له ريادة الشعر الحر المعاصر من الشعراء. ووجدت أن أفضل شيء هو ترك هذه القضية للزمن. فلا بد ان يغربل التاريخ كل الآراء والمزاعم في هذا المجال ويفرز الزائف من الحقيقي.

زد على ذلك ان نازك كانت تنزعج من تأويل ما تكتبه عن الشعر الحر وتفسيره تفسيراً لا تقصد إليه. فقد أوضحت ان الشعر الحر:

«لا يصلح للمطولات لأن موسيقاه أقل من موسيقى الشطرين، والمطولات تحتاج إلى الغنائية وعلوّ الأنغام لتساعد القارىء على تقبل قصيدة طويلة فيها فلسفة ومشاعر معقدة متضاربة. إن الأوزان الحرة رتيبة ولذلك استعملها للقصائد القصيرة فحسب. أما المطولات فلا بد من شعر الشطرين الذي يحتمل الإطالة ويكسوها بالموسيقى والصور».

إن هذا الشرح الواضح حول طبيعة الشعر الحر ولماذا يصلح لنوع من الشعر دون غيره لم يأخذه العديد من النقاد بشكله المتسلسل وإنما فصلوا الجمل بعضها عن بعض وخرجوا بدلالات لا تعنيها الشاعرة. ففي مقابلة أجراها معها الدكتور محمد الحبيب مثلاً يطرح سؤالاً تعقيباً على النص الذي أوردته أعلاه: (... فهل يخلو الشعر الحر من الموسيقى والصور؟...) وتضطر ان توضح ما لم يرد في شرحها فتقول:

«إني لم أقل إن الشعر خال من الموسيقى والصور، ولا يمكن ان أقول هذا وإلاّ لما دعوت إليه ونظمت فيه. إن شعري الحر نفسه يزخر بالموسيقى والصور... غير ان للمطولات الشعرية منطلقاً آخر. إنها أكثر انتفاعاً بالوزن الخليلي الدارج المثقل بالانغام لطبيعة قيوده الوزنية التي ترفعه عن أن يكون رتيباً... أما الشعر الحر فقد بيّنت في الفصل الأول من كتابي: «قضايا الشعر المعاصر» انه يتعرض للرتابة بسبب وحدة التفعيلة وتكرارها، فهو يصلح لقصيدة قصيرة ولا يصلح

---

(٢) الدكتور إحسان عباس بدر شاكر السياب: دراسة في حياته وشعره. بيروت ١٩٦٩ ص ١٣٤-١٣٦.

لمطولة شعرية. وليس في هذا انتقاص للشعر الحر، وإنما أبني حكمي هذا على عين القواعد التي أبني عليها قولي ان شعر الشطرين الموحد القافية لا يصلح للموضوعات كلها، ولذلك نلجأ إلى الشعر الحر حين نعبّر عن بعض مشاعرنا وخلجاتنا...»[٣].

هذا كلام لا لبس فيه لمن يقرأه بشيء من الامعان، ولكنه ظل موضع تساؤلات وتأويلات لا تصلها صلة بالمعنى الذي قصدت إليه الشاعرة.

ومما يزيد من ألم نازك في حديث الشعر والشعراء هو هروب الشعر منها وإحساسها ان ينابيعه التي انبجست مبكراً في حياتها أخذت تنضب لأشهر طويلة تتجاوز السنة أحياناً، وهذا ما يؤرق عليها عيشها. ولا شك ان ذلك يعود للحبوب المهدئة التي كانت تتناولها وتبعث الخمول في أوصالها فتميل إلى الرقاد وتجعل مشاعرها فاترة هادئة لا تنفعل وتهتز بـ«أشواق وأحزان» و«خواطر مسائية» «وعلى وقع المطر» مما كان يثيرها في الماضي، والشعر بحاجة إلى الاثارة والانفعال لكي تتدفق كلماته: ولعلها تنبأت قبل أكثر من عقدين من السنين نبوءة لاشعورية حزينة حين قالت في قصيدة «قلب ميت» عام ١٩٤٦:

وكان صباح... وأستفقت فلم أجد
من المعبد الشعري إلاّ رسومه
تحطّم تمثالي الجميل على الثرى
وألقى على قلبي النقي همومه[٤].

نعم... مر عامان وربة الشعر صامتة لا تنبس بسطر. فمنذ ١٩٦٩ لم تنظم نازك قصيدة واحدة. وكان ذلك مكدراً، بل وموجعاً لقلب يتغذى على الشعر ويحيا به ويمثل له فرحة عظمى إذا لاحت بشائره. وكانت تخشى ان تطول هذه الحال ولكن نازك لم تستسلم طويلاً لذلك الوضع الذي وجدت نفسها فيه. فأخذت تشحذ قوى الابداع في نفسها وتحاول تحريكها بإعادة قراءة روائع الشعر العالمي وعلى الأخص شكسبير الذي

---

(٣) مجلة الآداب اللبنانية. عدد آب/أغسطس ١٩٧١. ص ٣٠.
(٤) نازك الملائكة. عاشقة الليل. بيروت ١٩٧١. ص ١٥٣.

كانت قد قرأته ودرسته منذ ان كانت تحضر لشهادة الماجستير في جامعة وسكونسن، أي منذ خمسة عشر عاماً تقريباً. ولا شك انها كانت بحاجة لتذكر كثير من التفاصيل المهمة والجميلة في أعماله فبدأت تستعيدها. فقرأت خلال العطلة الصيفية لعام ١٩٧١ (الملك لير) و(تاجر البندقية) و(انتوني وكيلوبترا) وكادت تنتهي من قراءة (عطيل). ورغم اتقانها التام للغة الانكليزية فقد كانت ترى مدى صعوبة لغة شكسبير بالنسبة للقارىء العربي حتى في حالة امتلاكه لناصية اللغة الانكليزية. ساعدتها القراءة الجديدة لهذا الشاعر والمسرحي العالمي في إعداد محاضرة في الأدب المقارن، وكان الموضوع على وجه التحديد هو إقامة موازنة بين (أنتوني وكيلوبترا) لشكسبير و(مصرع كيلوبترا) لشوقي. وكانت تعتقد ان حصيلتها ستكون ما يقارب من ثلاث مقالات في هذا الموضوع.

قضت نازك صيف ١٩٧١ في لبنان، وقد اعتادت ان تنزل مع زوجها في فندق (قبة الصخرة) في بحمدون. وأخذت في هذا الوقت تترجم وتعد العدة لإصدار ديوان مترجم عن الشعراء الانكليز الاثيرين عندها، مثل فرانسس تومسون وروبرت بروك، والشاعر الفرنسي بول جيرالدي الذي كانت تعجبها بساطته وصفاء عاطفته. وليس هذا بجديد على نازك الملائكة، فقد دأبت على ترجمة الشعر الأجنبي منذ صدور ديوانها الأول «عاشقة الليل» فترجمت لبايرون قصيدة «البحر» ولتوماس غري قصيدته المشهورة «مرثية في مقبرة ريفية» وذلك في عامي ١٩٤٥ و١٩٤٦.

بدأت في هذه الفترة تميل إلى ان تقلّ من النشر في المجلات وان تكرس وقتها لوضع الكتب وتتمنى ان تتاح لها فرصة التفرغ للتأليف وحده. اتفقت في صيف ١٩٧١ مع دار العودة في بيروت على طبع كتابها «التجزيئية في المجتمع العربي» مع إعادة طبع دواوينها في مجلدين كبيرين كما هو دأب دار العودة في اصدار الأعمال الشعرية للشعراء العرب الكبار كالسياب وصلاح عبدالصبور وعمر أبي ريشة وغيرهم. وقد صدرت دواوينها الشعرية في مجلّدين في شهر أيلول/سبتمبر. غير

(٥) عبدالجبار داود البصري. **نازك الملائكة ـ الشعر والنظرية**. دار الحرية للطباعة. بغداد ١٩٧١. ص ٤٠.

انها اختلفت مع الدار بشأن نشر (التجزيئية) مما كدر عليها صفو عطلة ذلك الصيف ولم يصدر هذا الكتاب ألا في عام ١٩٧٤ عن دار العلم للملايين في بيروت.

صدر في هذه الأثناء - ١٩٧١ - عن وزارة الاعلام العراقية كتاب عبدالجبار البصري وعنوانه (نازك الملائكة - الشعر والنظرية) وتحدث فيه عن شعراء وشاعرات آل الملائكة، ومنهم خالها عبدالصاحب الملائكة وجميل الملائكة. ووردت فيه أخطاء بعضها في تواريخ أحداث حياتها وبعضها في أشياء أخرى كظنه ان أختها إحسان شاعرة أيضاً. فقد وضع تاريخ زواج نازك عام ١٩٦٢ بدل ١٩٦١ وكتابته عن والدتها:

«وفي حزيران/يونيو ١٩٥٣ ظهرت عليها عوارض كبر السن فضعف بصرها، وثقل سمعها ولسانها...».

بينما توفيت أمها عن عمر لا يتجاوز الخامسة والأربعين سنة وكانت أعراض مرض سرطان الدماغ هي التي بدت عليها وليس كبر السن. وكان في نية نازك ان ترد على تحليلاته وتسجل الأخطاء التي وردت فيه وتحفظها وقد قامت بذلك في الأشهر التالية.

السفر وتدفّق الشعر

ظلت تلح على نازك فكرة العودة إلى الوطن والاستقرار في ربوعه وممارسة عملها في جامعة بغداد. وما ان انتهى العام الدراسي في ١٩٧٢ حتى بدأت تستعد للسفر إلى العراق، والذي يمثل متاعب كثيرة بالنسبة لها: فعليها ان تستأجر منزلاً وتقوم بتأثيثه وترزم مكتبتها العامرة في الكويت وترسلها إلى بغداد وتشحن ما تملك من أشياء وتشتري أخرى جديدة تحتاجها في بغداد. عرضت عليها إحسان مساعدتها وطلبت منها ان تنزل عندها في الصيف حتى ترتب جميع هذه الأمور على مهل ودون ضرورة للاستعجال. وأعربت نازك عن ارتياحها وسرورها باقتراح أختها. غير انها أرجأت السفر بعد موافقة جامعة بغداد على تمديد فترة عملها في جامعة الكويت.

وضعت ابنها البراق البالغ من العمر عشر سنوات في مدرسة داخلية في الكويت كي يتاح لها وقت الفراغ اللازم والتي كانت بحاجة ماسة إليه. غير ان غيابه عن البيت أشعرها بخواء في حياتها، فوجوده قربها يبعث فيها الهناء والبهجة ويسمح لعواطف الأمومة الجياشة بين حناياها ان تظهر وتغمر وحيدها. ولم تمض سوى مدة قصيرة على بقائه في المدرسة الداخلية حتى أعادته إليها في البيت مرة أخرى.

انهمكت في مشاغل التدريس في جامعة الكويت وإعداد المحاضرات وتصحيح الأوراق الامتحانية والدفاتر. ووسط هذه الأعمال اليومية المتعاقبة بسرعة ورتابة كانت تفكر دوماً بأهلها وتنتظر رسائلهم التي تنقل لها أخبارهم وتقلق وتتكدر إذا تأخرت عنها وتساورها الشكوك والمخاوف. كانت تنحى باللوم على إحسان إذا تلكأت في إجاباتها

على خطاباتها. فذات مرة لم تكتب لها مدة شهرين، فتملكتها الوساوس وخشيت ان يكون قد وقع لهم مكروه لا يريدون إخبارها به. ولم ترض بعذر أختها من قلة الوقت وانشغالها في تصحيح أوراق الطالبات في المدرسة. كانت تتابع أمورهم اليومية باهتمام ورعاية خصوصية. فعندما أخذ ملهم - ابن إحسان وأول حفيد لصادق الملائكة - يدرس بشكل جيد أعربت نازك عن فرحتها لتقدمه الحثيث وكانت تراسله وتعرب عن إعجابها برسائله وتطلب منه ان يستمر في مراسلتها حتى إذا لم تجد الوقت الكافي للكتابة له. فقد كانت تعجبها شخصيته وتفكيره وهو ينتقل من طور إلى آخر، وارتاحت من تحرره من نفوذ كولن ويلسن والبير كامو والبرتو مورافيا ولأنه استطاع ان يكوّن آراءه المستقلة ويبتعد عن مجال تأثيرهم فيه.

كتبت في هذه الفترة رداً على كتاب الناقد عبدالجبار البصري (نازك الملائكة - الشعر والنظرية) ولم ترتح نازك للكثير من الأفكار التي وردت فيه عنها. ساءها كثيراً رأيه في انها تراجعت عن الشعر الحر واعتبرت ذلك قولاً لا أساس له من الصحة. ودفعها هذا وغيره من الآراء والتحليلات التي وردت في الكتاب إلى كتابة رد مفصل حوله وزعته على خمسة من النقاد الثقات العرب مع نسخة من كتاب الناقد عبدالجبار البصري، ليكون في حوزتهم في المستقبل، وينشروا ما يريدون منه بعد وفاتها وان لا يعتبر الكتاب مرجعاً عنها، وقد رفضت عملية التحليل السايكولوجي لشعرها واعتبرتها مقحمة عليه.

تابعت في هذه الفترة كتابة المقالات النقدية، فصدر لها في عدد نيسان ١٩٧٢ في مجلة «الآداب» اللبنانية مقال حول مسرحية توفيق الحكيم «يا طالع الشجرة». وكانت قد تلقت دعوة من وزارة الثقافة والاعلام في تونس لإلقاء محاضرات وقراءات شعرية من قصائدها. وفكرت في كتابة ثلاث محاضرات تلبية لهذه الدعوة، تتناول في الأولى حال الشعر الحر العربي، وفي الثانية تبحث في شعر ابن الفارض، أما الثالثة فكانت محاضرة عن فلسطين كتبتها في وقت مضى ولم تنشرها.

تلقت آنئذٍ دعوة من العراق لحضور مهرجان المربد الذي كان يعقد كل عامين لقراءة القصائد الجديدة لدى الشعراء العرب. اعتذرت نازك عن تلبية الدعوة لأنها لم تنظم شعراً جديداً منذ مدة طويلة تتجاوز العامين. كان يحز في نفسها هروب الشعر منها، وتتمنى ان تشعر بجيشانه في حناياها وان تهتز عواطفها في فترة قريبة تتطلع إليها بشوق فيتدفق ينبوع الشعر في داخلها من جديد.

صار البحث عن الوقت والظفر به يشكل معاناة مقيمة في حياتها. إنه ينفلت كالماء من بين الأصابع ويتبدد في الشؤون البيتية الصغيرة التي تتكرر مع صباح كل يوم وتبتلع مهام التدريس الجامعية جزءاً آخر منه ولا يبقى لديها إلاّ النزر القليل منه لانجاز مشاريعها الأدبية المتشعبة التي تتمنى ان تكرس معظم وقتها لها وهي تشعر ان نضجها الفكري والأدبي قد بلغ ذروته وعليها ان تنغمر في الكتابة. ولكن واأسفاه... ان الوقت الثمين يتحول يومياً إلى كِسرٍ وفُتات ويضيع معظمه هباء.

إلى جانب نتاجها الأدبي كانت نازك مهتمة بطبع نتاجات والدها صادق الملائكة، التي لم يطبع منها خلال حياته سوى كتاب واحد هو (ذوو الفكاهة في التاريخ). وكان يعزّ عليها ان ينطوي نتاجه الضخم في زوايا التاريخ ويندرس هناك. لم تفكر حالياً في نشر موسوعته الثقافية (دائرة معارف الناس) لضخامتها ولأنها تحتاج إلى مجهود كبير منها لمراجعتها وتنقيحها وإعدادها للنشر. كانت تتطلع إلى طبع أرجوزته في هذه الفترة لأن الظروف مؤاتية لذلك كما تعتقد، وقد نظم صادق الملائكة أبياتاً في أرجوزته يشتم فيها الشاه والحكومة الايرانية على بغيها وحقدها. غير ان والدها كتب أبياتها بخط ناعم صغير تصعب قراءته وصار من اللازم عليها ان تعيد نسخه بخط يدها من جديد. وهذا عمل إضافة إلى انه متعب وشاق، فإنه يحتاج إلى وقت طويل تتفرغ به لانجازه. وعبثاً حاولت ان تجد هذا الوقت الضروري للقيام به، فاضطرت إلى ارجائه رغم شعورها الملح بأن الفرصة مؤاتية لطبعه، ولكن ما في اليد حيلة!

في صيف هذه السنة سافرت نازك مع زوجها إلى انكلترا. وصلا

بالطائرة إلى لندن ومنها استقلا القطار إلى كمبردج. لفت انتباه نازك، طول النهار الذي بلغ تسع عشرة ساعة، انها لحالة غريبة يشعر بها المرء عندما يسافر من الشرق إلى الغرب. فهو يكسب في ناحيتين هما زيادة الوقت من جهة وغروب الشمس في وقت متأخر صيفاً في انكلترا من جهة أخرى. يبدو النهار عجيباً في واقع الأمر عندما يعمل الانسان فكره فيه، وهذا ما أمعنت نازك التفكير فيه وهي تعيش ذلك النهار الفريد بطوله وشمسه في حياتها.

كانت السفرة متعبة، طالت أكثر من الوقت المحدد لها بسبب اضراب العمال في مطار فرانكفورت في المانية (الغربية آنذاك) الذي تمر به الطائرة في طريقها إلى لندن. ولكن ما ان وصلت إلى كمبردج وحصلت على شقة جميلة ونظيفة ومؤثثة بأثاث من الطراز الحديث وذات إيجار معتدل، حتى زايلها التعب وأحست بالسرور. أعجبها التلفزيون الملوّن بألوانه المتنوعة الجميلة التي يدخل مجرد تأملها البهجة إلى النفس ويدفع المرء إلى النظر إليها حتى إذا لم يطب له ما يعرض على الشاشة من أفلام. لم يكن التلفزيون الملوّن قد وصل إلى بلادنا بعد، ولذلك شعرت نازك بروعة ألوانه المتميزة التي تختلف عن التلفزيون الأبيض والأسود. غير انها رغم اعجابها به لم يكن يهمها كثيراً ان يصل ألى أوطاننا. إن الشيء الجوهري في نظرها ليس هذه المظاهر الحضارية التي يستمتع بها الانسان الأوروبي وإنما تقديره للوقت وحرصه عليه واحترامه للنظام ولراحة الناس ولطفه مع الغرباء. إن سبب تفوقهم علينا ـ كما ترى شاعرتنا ـ يكمن في أخلاقهم وتفكيرهم وتقدمهم العلمي. وهذه هي الأمور التي ينبغي ان نتعلمها منهم. أما الأشياء التي لم ترتح لها فهي وضعية الشباب بشعورهم المهدلة على أكتافهم بحيث يصعب تمييز الفتى من الفتاة، وكذلك لحاهم القبيحة ومخاصرتهم للبنات في الشوارع والحدائق.

زارت في أثناء إقامتها في انكلترا مسكن روبرت بروك الشاعر الأثير عندها وذهبت إلى المقهى الذي كان يتردد عليه ليشرب فيه الشاي وقد علّق صاحب المقهى صوراً لبروك وقصاصات من الصحف التي تتناول شعره وحياته. وبروك من أحب الشعراء الانكليز إلى روح شاعرتنا، وقد

ترجمت له قصيدتين ترجمة حرة تضمنهما ديوانها «شجرة القمر» وهما «أسفار» ١٩٦٥ و«لكنها ستكون الأخيرة» وهي غفل من التاريخ. ومما يبعث الأسف في نفس نازك ان معظم الشعراء العرب الحديثين يجهلون هذا الشاعر الشاب الذي قتل في الحرب العالمية الأولى وهو يعمل ضابطاً في الجيش البريطاني وكانت قد نشرت عنه في فترة مبكرة من حياتها مقالاً في «الآداب» اللبنانية في تموز/يوليو ١٩٥٤ تحت عنوان: «الشعر والموت» ودخل هذا البحث ضمن محتويات كتابها «قضايا الشعر المعاصر» ١٩٦٢. درست في تلك المقالة مفهوم الموت عند الشابي وكيتس ومحمد الهمشري وبروك ووجدت:

«أن بروك لا يرى في الموت غرابة تجعله يبالغ في حبه، وإنما هو شيء اعتيادي له ما للحياة من جمال وفيه ما فيها من ازعاج لا أكثر»[١].

في أواخر عام ١٩٧٢ عادت إلى نظم الشعر من جديد. فقد أحست بالتدفق الشعري في فؤادها وذهنها وكانت مسرورة لرجوعه بعد غيابه الطويل الثقيل عليها. وبدأت تنشر تلك القصائد، فصدر لها في مطلع عام ١٩٧٣ في مجلة «البيان» الكويتية قصيدة «فلسطين في الضباب» وكان في نيتها أن تنظم قصيدة «شموع ودموع» ومنبع الدموع هي مأساة فلسطين التي تحس بها كغمد سكين في روحها يبعث فيها ألماً دفيناً متصلاً يزداد مع مضي السنين ويترك فيها ما تتركه الأوجاع المزمنة في الانسان من آلام.

كانت نازك المرهفة النفس شديدة التأثر بالمصائب التي تصيب ذويها وكل من حولها. وقد حمل لها عام ١٩٧٣ أنباء الفجيعة والأسى فحزّت في فؤادها وأبكتها. توفيت أم زوجها الدكتور عبدالهادي محبوبة في مطلع السنة، وكان زوجها عطوفاً شغوفاً على والدته فتأثر كثيراً لوفاتها وشاركته نازك ألمه وحزنه. وفي بداية النصف الثاني من العام نفسه توفي عمها ناظم، فبكت عليه كثيراً، ولقد عرفته منذ طفولتها إنساناً حنوناً طيب القلب. ومع هذه الأحزان التي هزتها، حلّت الذكرى العشرون

---

(١) نازك الملائكة. قضايا الشعر المعاصر. بغداد. ١٩٦٥. ص ٢٧٤.

لوفاة والدتها في ١٩٧٣/٢/٢٦ وكانت لنازك أماً ومرشدة ورفيقة فكر وشعر، فلا غرو ان يكون حزنها عميقاً عليها وان يجيش الألم والفجيعة في نفسها لهذه الذكرى وان تعاود ذهنها يد الموت الغادرة التي خطفتها من أسرتها في وقت مبكر وخلفت اللوعة والحرقة في قلب زوجها وبناتها. وما انفكت نازك حتى بعد مضي هذه السنوات الطوال تقوم بتوزيع العطايا للفقراء على روحها. وما زالت تشعر بالسرور إذا ما رأت في مجلة أو جريدة مقالاً عن شاعريتها أو ذكراً لها. لقد غمرتها الفرحة عندما نشرت مجلة «الهلال» المصرية في عدد شباط/فبراير ١٩٧٣ مقالاً عن الشعر النسوي تعرض فيه إلى شعر أمها. والأهم من ذلك ان المجلة نشرت لأمها صورة لم يسبق لنازك ان رأتها ففرحت بها فرحاً عظيماً. وبعد فترة قامت بنسخها من المجلة وكانت فيها ما تزال شابة جميلة رقيقة. وطلبت من المصور ان يكبرها لها ويصنع لها إطاراً جميلاً. وقد وضعتها نازك في مكتبتها في الكويت لتمتع بها ناظريها صباح مساء. وكانت إلى ذلك تعتز بحيازتها قصيدتين مسجلتين بصوت أمها. وصارت تجد ان جزءاً من الحياة دبّ في جسدها الفاني: فعندها صوتها وصورتها. وأحست بالسعادة تغمرها لأن أمها عادت في سمعها وبصرها إلى الوجود.

مع انتهاء العام الدراسي لسنة ١٩٧٣ أخذت نازك تستعد للسفر إلى القاهرة بصحبة زوجها وأرسلت ابنها البراق إلى أختها إحسان في بغداد ليظل في رعايتها ويلعب مع أولادها. وقبيل ان تغادر الكويت تسلمت من إحسان رسالة هزت كيانها وأبكتها. فقد عرفت ان الزائدة الدودية قد هاجت فجأة عند البرّاق ولا محيد من إجراء عملية مستعجلة له لاستئصالها. اضطرت إحسان إلى الموافقة على ذلك وأخذ المسؤولية على عاتقها بغياب والديه وما يحمله ذلك من قلق وخوف على صحة الولد البالغ من العمر إحدى عشرة سنة. أجريت العملية له قبيل أواخر حزيران/يونيو ١٩٧٣ ومكث في المستشفى أربعة أيام وبعد ان اطمأنت إحسان إلى نجاح العملية وسلامة البراق كتبت إلى نازك تخبرها بما حدث وبتفاصيل حاله الصحية. كان النبأ مفاجأة مؤلمة لنازك أجج عواطف

الأمومة الفياضة فيها وألهبها. تملكها الحزن والخوف على وحيدها، فالبراق هو سعادتها ونور حياتها، ولا بد ان تكون إلى جانبه في اللحظات الحرجة من حياته ولم تستطع ان تتخيله يرقد في المستشفى وهي بعيدة عنه. قررت ان تسافر في الحال على متن أول طائرة تغادر الكويت إلى بغداد. وبعد ساعات من وقع الصدمة العنيف عليها استطاعت ان تفكر من جديد بهدوء خال من الانفعالات المتأججة. نصحها عندئذٍ زوجها ان تصرف النظر عن السفر ما دام الولد بخير وصحة جيدة ولم يعد هناك ما يبرر ذهابها، فقد سارت الأمور على ما يرام وعليها ان تحمد الله على لطفه بابنها. كان زوجها يعرف انها عاطفية ومندفعة في مشاعرها، ويحاول ان يكبح من اندفاعها بتفكيره المتأني ومنطقه الهادىء، وتوافقه نازك الرأي أحياناً. أدركت سلامة المنطق الذي يتحدث به زوجها عندما كتمت صوت العاطفة، ووجدت من الصعب ان تترك زوجها وحيداً يأكل في المطاعم ولا يجد من يعنى بأموره اليومية. وعرفت ان عدم السفر إلى بغداد هو الرأي الصواب، فعملت به وصرفت النظر عنه. غير انها كتبت إلى أختها وصايا حول البرّاق تضمن سلامة فترة النقاهة، كأن لا يلعب بالكرة عندما يتماثل إلى الشفاء وان لا يرفع أشياء ثقيلة، إنها تدرك أهمية فترة النقاهة في الشفاء الناجح، فقد أجرت هي نفسها عملية الزائدة الدودية عندما كانت في أميركا عام ١٩٥٠.

ظلت الصدمات الآتية من أماكن بعيدة تؤثر في مشاعر نازك وتهزها، حتى عندما لا تتعلق بعائلتها وذويها. فقد وقعت حادثة سقوط طائرة في أثناء مغادرتها عمان متوجهة إلى بيروت. أخاف نازك سقوط الطائرة لحد الفزع ومما زاد من فزعها ان صديق العائلة الدكتور عبدالعزيز الدوري كان على متنها. حدث ذلك قبيل أسابيع من عزمها على السفر إلى القاهرة في صيف ١٩٧٣. أذاعت نشرات الأخبار النبأ ونشرت الصحف صوراً لحطام الطائرة التي سقطت على بيت فيه أسرة من ثمانية أفراد، فقضت عليهم جميعاً. أشعرها هذا الحادث ان الحياة غير أمينة الجانب ومفاجآتها كثيرة وعليها ان تحترس منها سلفاً ولا سيما ان وحيدها الصغير لم يبلغ رشده بعد ولن يكون برفقتها عند سفرها. ففكرت بكتابة وصية رسمية

عند كاتب العدل حين تعود من القاهرة إلى الكويت. وشغل ذلك بالها إلى درجة انها كتبت إلى أختها إحسان رسالة كانت بمثابة وصية غير رسمية، وفعلت ذلك تحسباً من طوارىء الدنيا وتقلباتها.

في العطلة الصيفية سافرت مع زوجها إلى القاهرة ونزلت بفندق شبرد في غرفة لطيفة مرتبة تشرف على نهر النيل. كانت تملأ بصرها من النيل والمناظر الجميلة حوله. وفي الأيام الأولى من وصولها كانت تطوف في شوارع المدينة التي قضى فيها زوجها ما ينيف على سنوات عشر وكانت قريبة إلى نفسه ويحبها ويعرفها أكثر من كل المدن الأخرى وله في شوارعها وبنسيوناتها ذكريات جميلة. كانت تصغي إلى أحاديثه النابعة من أعماق الروح عن مدينة القاهرة، العاصمة الكبرى للعرب.

ومع ان نازك حزنت كثيراً لنبأ وفاة عمها ناظم الذي وصلها وهي في القاهرة وبكت عليه بكاء حاراً نابعاً من أعماق روحها المرهفة، غير انها وجدت نفسها وسط ظروف أدبية مثيرة فرضت عليها ان لا تستسلم لأساها. فقد تفجّر ينبوع الشعر قوياً في داخلها منذ شهور خلت ونظمت في شهر آب/أغسطس أربع قصائد، وكان بوسعها ان تنظم المزيد منها لولا خشيتها ان ترهق نفسها لأن نظم الشعر يستغرقها استغراقاً شديداً وبلغ عدد القصائد التي نظمتها ولم تنشر بعد إحدى عشرة قصيدة، وهكذا صار بوسعها الآن ان تفكر في إحياء أمسيات شعرية وتلبي الطلبات التي وُجهت إليها سابقاً من جمعية المؤلفين والكتّاب العراقيين ومن الكويت.

في القاهرة خفّ لمقابلتها صحفيون يطلبون منها إجراء مقابلات أدبية معها. دعاها اتحاد الأدباء في القاهرة وأدباء دمياط لإقامة أمسية شعرية. كان ممثلو الصحف والمجلات يتوافدون على مقرها طالبين مقابلتها، حتى ان مجلة «الصياد» اللبنانية أرسلت إليها مندوباً ليأخذ منها حديثاً عن الشعر والأدب. وأعطاها شاعر مصري ناشىء ديوانه وأراد منها ان تبدي ملاحظاتها حوله. دعتها، في الوقت نفسه، صديقتها (بنت الشاطىء) الدكتورة الأديبة عائشة عبدالرحمن لقضاء ليلة معها في مصيف رأس البر ثم العودة إلى القاهرة. ووجدت ان القاهرة بإمكاناتها

الثقافية الواسعة تحيطها وتستحثها للاسهام فيما تفتحه من مجالات رحبة، فانصرفت إليها وهي مسرورة للنشاط المتدفق فيها. وهكذا كانت العطلة الصيفية التي قضتها في مصر حافلة بالعمل والنتاج، واستطاعت ان تستجم في الوقت نفسه وتستعيد قواها التي استنزفها التدريس والمشاغل الجامعية والشؤون البيتية.

لقاء الشاعرة بموسيقار العرب

جاء عام ١٩٧٤ يحمل في مطاويه كثيراً من العطاء والبهجة والنتاج. فقد حفل بنظم القصائد واللقاءات الأدبية وطبع كتب وديوان شعر. ووقعت فيه مصادفة رائعة لها وهي الالتقاء بالموسيقار الكبير محمد عبدالوهاب على غير انتظار. كان ينبغي ان يصدر لها في صيف هذا العام عن دار العلم للملايين في بيروت ديوانها الجديد «للصلاة والثورة» ومعظم قصائده حول فلسطين، وقامت هذه الدار نفسها بطبع كتابها «التجزيئية في الوطن العربي» الذي كان مقدراً له ان ينشر في صيف ١٩٧١ عن دار العودة. بدأت نازك تكتب في مطلع هذه السنة مقدمة إضافية للطبعة الرابعة الجديدة من كتابها «قضايا الشعر المعاصر» لتوضح ما طرأ من تطور على أفكارها حول الشعر الحر، وكانت تستعد لحضور مهرجان المربد في البصرة وإلقاء قصيدتين فيه ولم تكن قد استقرت على اختيارها بعد، بينما اقترح عليها خالها الشاعر عبدالصاحب الملائكة ان تلقي «الملكة والبستان» ويدور موضوعها حول فلسطين والثانية «الأميرة النائمة» تتناول القاموس العربي.

حفلت حياتها بالمشاغل الأدبية الكثيرة التي تحتاج إلى تكريس معظم وقتها لها. ولكن أين المفر من متطلبات العيش اليومية التي تبتلع ساعاتها بشكل لا يكل ويتجدد مع صباح كل نهار! كان ضياع وقتها وتبدده في الشؤون الصغيرة يؤذي روحها وفكرها ويبعث فيها الاضطراب والتوتر أحياناً ولا تدري كيف تمسك بشتات الوقت الهارب لتكرسه للنتاج الأدبي الذي تتوق إليه. أدرك زوجها حاجتها إلى الراحة والهدوء والابتعاد عن مسؤوليات البيت والعيش على هواها

ومزاجها ولو لفترة قصيرة من الزمن. فاقترح عليها ان تسكن لبضعة أيام في فندق موتيل المشرف على الخليج في الكويت. ارتاحت نازك للفكرة ولو انها كانت تجربة جديدة في حياتها لا تخلو من الغرابة. استأجر لها غرفة في بداية آذار/مارس ونزلت فيها مع كتبها، وكان يزورها كل مساء مع ابنها البراق ولا ترى أحداً غيرهما بتاتاً. صارت تقضي وقتها في الكتابة والقراءة ونظم الشعر. وحين تشعر بالتعب من كل ذلك تأخذ قسطاً من الراحة، فتعزف خلاله على العود وتصاحب العزف بالغناء أحياناً. فالأنغام الموسيقية تبعث البهجة في نفسها وتحلق بها في أجواء جميلة سامية تنسيها التعب وكل الهموم الأرضية الصغيرة التي تستنزف حياتها وتمتص وقتها. كان البحر يمتد رائعاً وهاجاً أمام حدائق الفندق فيثير فيها الرغبة لتغني له، لعظمته المترامية التي تطغى على الوجود وتتبختر بزهو وإغراء أمام ناظريها. ويعلو صوت نازك مهتزاً بالعاطفة: «شايف البحر شو كبير؟ كبر البحر باحبك!». وتتلو الألحان والأغاني بعضها الآخر وتنتشي لها روحها وحواسها وترتسم ابتسامة حالمة على وجهها ويتوارى التعب من أوصالها وتُقبل على الكتابة من جديد بنشاط وغبطة. في هذا الفندق كتبت مسودة المقدمة لكتابها «قضايا الشعر المعاصر» ونظمت قصيدة «التوأمان» وتعني بهما الحب والعذاب:

الحب والعذاب جثماني
إلى بلاد الشعر رحّلاني

أحست بالخصب الشعري يظهر عندها قوياً بعد نضوب دام مدة تكاد تقرب من ثلاث سنوات، فأشعرها انبعاثه بتلك القدرات الكامنة للعطاء والنتاج التي رقدت طويلاً وعذبتها واستقبلت عودتها بفرحة الفنان الملهم الخلاق الذي ينظر بسرور غامر إلى وليده الذي أطل على دنياه بعد توتر وألم وقلق ضاقت بها نفسه، فإذا بكل ذلك يزول ولا يبقى منه سوى متعة الخلق والابداع الرائعة. كانت نازك قد نظمت قبل نزولها في الفندق أربع قصائد طويلة هي: «الماء أو البارود» و«صور وتهويمات أمام أضواء المرور» و«خريطة فلسطين» و«النار ودوائر الحب»، وظلت القصائد يعقب بعضها بعضاً، والارهاق الكبير والتوتر الهائل الذي تسببه عملية ولادة القصيدة تتبعها فرحة عظيمة وطمأنينة روحية رضية.

في بداية تموز/يوليو ١٩٧٤ سافرت نازك إلى بلودان. ونظمت قصيدة جديدة عنوانها «السفر في المرايا الدامية» عن القنيطرة. كانت إقامتها في بلودان حافلة باللقاءات والدعوات، غير ان حادثة مفاجئة جميلة أترعت فؤادها بروعتها وتركت فيها سعادة لا تنسى. كانت تمشي في ممر الفندق وإذا بها ترى على مقربة منها الموسيقار محمد عبدالوهاب وزوجه نهلة القدسي، غمر الفرح نازك لهذا اللقاء الذي جاء على غير موعد والذي كان حلماً من أحلام الطفولة امتد عبر السنين الطوال وتجسد أمامها حياً مفعماً بالسعادة والهناء. خفت خطواتها عفوياً نحوه وقدمت نفسها بتواضع ومدت يدها مصافحة إياه. انتقل البشر والسعادة منها إلى وجه موسيقارنا الكبير، فأمامه تقف شاعرة العرب المشهورة بابتسامتها الهادئة وعينيها الحالمتين الذكيتين وهو لا يكاد يصدق بصره. أعرب لها عن سعادته الغامرة لالتقائه بها، بالشاعرة التي هي أشهر من نار على علم، على حد تعبيره وأجابته بتواضعها المعهود وابتسامتها الهادئة، انها مهما بلغت من الشهرة فسيظل أشهر منها لأن اسمه يملأ أجواء العالم العربي وبيوته منذ عقود من السنين. غير ان محمد عبدالوهاب أصرّ على ان نازك أكثر منه شهرة.

كان الموسيقار الكبير قد وصل إلى بلودان قبيل يوم واحد من التقائها به. رأته بعد ذلك مرات عديدة وجلست مرة معه ساعة بكاملها وأخذا يتحدثان في موضوع أثير عليهما، يحمل معنى البقاء والوجود نفسه في فكرهما، انه موضوع الشعر والموسيقى والغناء والتمثيل. فنازك تحب أغانيَ محمد عبدالوهاب منذ طفولتها، تحفظها وتعزف موسيقاها وتغنيها أمام أهلها والناس المقربين منهم أو تترنم بها بمفردها. فالغناء والموسيقى كالماء والهواء والشعر لا تستطيع نازك ان تعيش بدونهما. وكانت تحمل العود معها في تجوالها وترحالها. وها هي الآن قد حملته معها من الكويت إلى بلودان لتعزف عليه كل صباح وتغني بعضاً من أغاني محمد عبدالوهاب أو فيروز أو عبدالحليم حافظ.

تحدثت نازك مع محمد عبدالوهاب عن عشرات من أغانيه القديمة

والجديدة، عن ألحانها وتأليفها وموسيقاها. أبدت ملاحظاتها عنها وكانت تتلو أشطراً منها أحياناً، فيصاحبها محمد عبدالوهاب في التلاوة ويبتسم أو يضحك. كان يصغي إلى نازك باهتمام شديد وفرح غامر وهو يراها تحيط إحاطة شاملة بأغانيه وتستوعبها وتتذوقها وتحفظها، ولها آراؤها المتفردة فيها. بدت عليه السعادة التي تغمر الفنان عندما يرى مستعماً عميق التذوق والفهم والحب لأغانيه، فلا أحب لنفس الفنان من مستمع متضلع بمعرفة فنه. بدا عليه انه يعيش ساعة رائعة من الساعات النادرة المشهودة في عمره. لقد طاب له ان يتحدث إلى شاعرة رقيقة الحس، واسعة الاطلاع على فنه في زمن اتجهت فيه الموسيقى والأغنية العربية إلى التدهور والهبوط حسب رأيه. قال لها صار المستمع يتذوق الموسيقى بيده لا بسمعه، ويقصد بها الهوسات والتصفيق والصخب المصاحب للأغاني. إضافة إلى ذلك، كان يعاني من مسألة أخرى ترتبط بالغناء والموسيقى، فقد كان يفتقد وجود ناظمين جيدين للأغنية مثل أحمد شوقي الذي غنى كثيراً من قصائده وكانت تربطه به رابطة فنية وروحية قوية.

بعد تناولها أغانيه بالتعليق وابداء ملاحظاتها عنها، حدثته نازك عن المكانة الفنية الرفيعة التي يشغلها في منزلهم وعن مشاعر الحب والاعجاب التي يكنها له أفراد أسرتها ولا سيما أختها إحسان. حدثته عن انتظارهما أغانيه في الراديو في السنوات البعيدة الماضية وكيف كانتا تسهران معاً حتى الساعة الثانية صباحاً لتسمعاه وهو يغني «حياتي أنت» أو «أغنية الفن» أو «ليالي كيلوبترا» وغيرها من أغانيه الجميلة. طاب له ان يعرف بوجود مستمعة ثانية شغوفة بأغانيه ومقدرة لفنه، فسألها عما تعمل إحسان. أخبرته انها مدرسة للغة العربية وانها أديبة لها أبحاث كثيرة في الأدب العربي. صمت المغني الكبير لحظة وكأنه يُعمل التفكير فيما حدثته به، ثم قال لها فجأة، أرجو ان تبلغيها تحياتي. أضاف وقد بدا عليه السرور والرضا وارتسمت ابتسامة عذبة على وجهه: أنتم مستمعون ممتازون. لم تكن فرحة نازك الكبيرة برؤية محمد عبدالوهاب مكتملة، كانت في أعماقها تتنغص لإحسان لعدم مشاركتها لها فرحة اللقا الذي يمثل أمنية

عزيزة من أماني العمر. إن إحسان أقرب أخواتها إلى نفسها منذ الطفولة ورفيقتها في درب الأدب والفن، وقد مر أمام ناظريها شخص أختها عندما كانت تتحدث مع الموسيقار الكبير.

جرى لقاء ثانٍ بينهما أثناء وجودها في بلودان. أمسك عبدالوهاب بخيط الحديث هذه المرة، بعد ان كانت قد فصّلت الحديث عن فنه في جلستهما الأولى. تكلم عبدالوهاب على نازك، وكان شديد الاعجاب باسمها. قال لها إنه أجمل اسم سمعه في حياته ولا يمكن ان يوجد أجمل منه. تغزل بجمالية لفظه وشاعريته حوالى خمس دقائق وبعدها أخذ يتساءل كيف يمكن ان يجتمع هذان الاسمان معاً: نازك والملائكة! نطقهما مرة أخرى ببطء وتؤدة كأنه يستمتع بموسيقى حروفهما وروعتهما ويتأمل حقيقتهما، فربما يكونان من ابتكار نازك وإبداعها! وبعد ان لفظهما بتمهل أعرب عن شكه بأن يكون هذا اسمها الحقيقي. وسألها، أحقاً انه اسمك أم هو الاسم الأدبي المستعار الذي تحبين ان يعرفك الناس به؟ وضحكت نازك، وردت وهي ما تزال تضحك: انه اسمي الحقيقي. فقال، عجباً! مرة واحدة نازك والملائكة معاً! هلاّ أخبرتني لماذا سمّاك أبواك بنازك؟ روت له حكاية الثائرة السورية نازك العابد التي كان والدها معجباً بها. قال، طيب، ومن أين أتت الملائكة، يا له من اسم جميل! هل هو اسم العائلة أم اسم الأب؟ أجابته ان جارهم الشاعر عبدالباقي العمري هو الذي أطلق عليهم هذا اللقب لأن أجدادها كانوا بهدوئهم شبيهين بالملائكة.

تحدث الدكتور عبدالهادي عن موهبة نازك الغنائية فقال للموسيقار محمد عبدالوهاب: استاذنا، ان نازك تجيد تقليد أغانيك، وتغنيها بإتقان مثلك تماماً، ولكن لا تتصور انها فنانة مبدعة في مجال الأغنية، فهي تقدر على التقليد الجيد ليس إلاّ. أجاب عبدالوهاب، تريد ان تقول إنها لا تضيف شيئاً جديداً من عندها إلى الأغنية. قال الدكتور عبدالهادي، هذا ما قصدت إليه تماماً. اعترض عبدالوهاب قائلاً: هل تريد ان تكون نازك هانم كل شيء في الشعر وفي الموسيقي والغناء! لتبق لنا شيئاً! أخذ يسألها عن الطريقة التي تضبط بها عزف ألحانه على العود، وهل هناك من

يعلمها. قالت إنها تعتمد على نفسها فقط ولا تستعين بالغير. فهي تستمع إلى الأغنية بضع مرات وتحفظها، ولديها قابلية على الحفظ السريع. بعد ذلك تقوم بعزفها كاملة مع موسيقاها. قال، إنك تعتمدين على أذنك وحدها؟ فردّت بالايجاب وأوضحت ان بوسعها ان تعزف أية أغنية تسمعها مهما بلغت من الصعوبة، وان آخر أغنية عزفتها كاملة هي «أنت عمري» لأم كلثوم.

كان عبدالوهاب يتكلم بصوت واطىء، وكان يلذ لنازك ان تصغي إلى كلامه وتتطلع إلى حركاته فكأنها تراه أمامها في فيلم «رصاصة في القلب» وهو يقوم بدور محسن. داخلها السرور وأحست بالغبطة وهي ترى محسناً وتتحدث معه. غير ان محسناً الشاب المعافى بدا الآن مريضاً ومتعباً. التقت به مرة عند المصعد الكهربائي، وكان المصعد عاطلاً ولا محيد من الصعود على السلم. وجد عبدالوهاب مشقة في صعوده، بدا وكأنه يتسلقه، إذ يصعد درجة درجة واحدة ويقف قليلاً ليأخذ شيئاً من الراحة. كانت نازك وزوجته نهلة القدسي يصعدان خلفه احتراماً له. بيد انهما وجدتا مشقة في الاستمرار على هذا النحو من البطء في الصعود، وما ان وصل الدرجة الثالثة حتى تجاوزتاه. علّق عبدالوهاب على ذلك قائلاً: أنتم الشباب تصعدون ركضاً. أجابت نازك، استاذ عبدالوهاب، لقد تجاوزنا نحن عمر الشباب. أجاب: لا والله، أنا صرت شيخاً، وأنتم شباب. ظل الدكتور عبدالهادي يرافقه خطوة خطوة، مجاملة وتقديراً له.

في ختام تلك اللقاءات الجميلة بين مبدعين أغنيا الموسيقى والأغنية والشعر والنقد العربي وتركا آثارهما بحروف محفورة عميقاً على صفحة تاريخه، أهدت نازك له نسخة من ديوانها الذي صدر بمجلدين عن دار العودة في لبنان. أعجبت موسيقارنا الصورة المرسومة على غلافه رغم ان نازك اعتبرتها صورة رديئة أخذتها على عجلة من أمرها بناء على طلب دار العودة لها بشكل مفاجىء فاضطرت إلى أخذها دون ان تستعد لها. ظنت الشاعرة ان عبدالوهاب كان يجاملها في امتداحه الصورة، غير انه كان في حقيقة الأمر صادقاً فيما يقوله. كان ذهنه قد رسم لها صورة جميلة، صورة الشاعرة المرهفة الأحاسيس، ذات الذوق الفني الرفيع التي

تجيد العزف والغناء وتتمتع بثقافة عميقة ومشاعر دافئة صافية، امرأة قل نظيرها، وقد منّ القدر عليه بلقائها. رأى الموسيقار على صورة غلاف ديوانها كل هذه السمات التي ارتسمت في ذهنه واستقرت فيه إلى الأبد، فظهرت أمامه جميلة رائعة.

في تلك الأثناء تسامع الناس والصحفيون والعاملون في الاذاعة والتلفزيون بوجود نازك وعبدالوهاب في فندق بلودان، فأخذوا يتوافدون على الفندق طالبين لقاءات صحفية وإذاعية وتلفزيونية. كان عبدالوهاب يشعر بالسقم ولا طاقة له على هذا النشاط الذي يتطلبه ممثلو الصحافة والتلفزيون. ومع ذلك وافق على إجراء مقابلة تلفزيونية معه، غير انه وضع شروطه المسبقة في الوقت نفسه والتي من دونها لن يوافق على اللقاء به. كانت عيناه تؤذيانه وإحداهما تحت العلاج، فطلب ان لا يسلطوا الأضواء على عينيه، وطلب أيضاً ان يحموا صلعته من حرارة الأضواء لأنها تسبب له الصداع، وان يعود إلى الفندق قبل العاشرة مساء ليتناول عشاءه في موعده المحدد. وافق التلفزيون على هذه الشروط الثلاثة ونفذها كما أراد الموسيقار الكبير وسجل لقاءً معه استمر ساعة كاملة.

ألح مندوبو التلفزيون على إقامة ندوة مماثلة لنازك، غير انها رفضت ذلك بإصرار واكتفت بمقابلة إذاعية أجراها معها مدير الاذاعة. غير ان التلفزيون لم يرضخ للأمر، واستغل فرصة مؤاتية لاظهارها على شاشة التلفزيون. فقد وجهت لها وزارة الثقافة والارشاد السورية دعوة لقضاء يومين في ضيافتها في دمشق، ووضعت برنامجاً لهذه الدعوة، ومن ضمنه إقامة أمسية شعرية لها على قاعة المركز الثقافي العربي في دمشق. فاستغل التلفزيون هذه المناسبة وأرسل أجهزته لتصوير أمسيتها الشعرية.

كان برنامج الدعوة مليئاً بنشاطات عديدة، غير ان أجمل ما رأته فيه نازك هي الأمسية الشعرية. ما ان دخلت القاعة حتى ألفتها تغص بالمستعمين المعجبين بشاعريتها الذين يتوقون ان يسمعوها وهي تقرأ قصائدها ماثلة بشخصها أمامهم بعد ان كانوا يعرفونها من الصور التي تنشر لها في الصحف والمجلات وعلى أغلفة كتبها. إنها لمتعة فكرية ان يلتقي القارىء بالشعراء والأدباء الذين يعرفهم ويشعر بالقربى معهم عن

طريق الكتب ووسائل الإعلام، ولذلك كان جو التطلع والترقب والابتهاج يسيطر على الحاضرين. حضرت أيضاً شخصيات اجتماعية مرموقة كالسيد وزير الإعلام فوزي الكيالي، وقد دعيت للجلوس معه في غرفة جانبية مع شخصيات مهمة أخرى انتظاراً لبدء الأمسية. جاء كذلك كتّاب وشعراء لامعون كالشاعر سليمان العيسي والدكتور شكري فيصل والدكتور عبدالسلام العجيلي. وحين أزف موعد الدخول إلى القاعة قام الوزير ودعاها بنفسه إلى التوجه إليها. وما كادت تدخل ويراها الجمهور حتى دوّت الأيدي بالتصفيق العالي وارتسمت الابتسامات والحماسة والفرح على الوجوه. حيّت الجمهور وابتسمت له وسرّها ان تجد كثيراً من المعجبين بها في سوريا. وقد تأكدت من ذلك لا في داخل القاعة وحدها وإنما في خارجها. كان الناس يغمرونها بمشاعر المودة عندما يرونها، ولم تلمس مثل هذه العواطف في مصر.

استمرت الأمسية ساعة كاملة، ألقت خلالها سبع قصائد وطنية وغزلية. كانت القصائد الوطنية تدور بالدرجة الأولى حول فلسطين التي لا تبرح مأساتها تلهب عواطف نازك وفكرها دون انقطاع. استهلت الحفل بتلاوة قصيدة عن تحرير القنيطرة وهي (السفر في المرايا الدامية)، وتلتها (عناوين وإعلانات في جريدة عربية) تشير فيها إلى الموقف السلبي الذي يقفه العرب إزاء قضية فلسطين، وقد أثارت صورها الفنية ابتسامات الحاضرين. وكان قد سبق لها ان ألقتها في مصر والكويت وقوبلت أيضاً بالابتسامات نفسها لأنها ترسم صورة مضحكة مبكية لحال الوطن العربي.

بعد ان انتهت من تلاوتها، قالت: الآن سألقي قصيدة حب (ويبقى لنا البحر) فتعالى التصفيق في القاعة وارتسمت البهجة على الوجوه وطافت الابتسامات على الشفاه. ابتسمت نازك بدورها أيضاً، فقد أدركت ان الجمهور يهتم بالحب والعواطف أكثر من اهتمامه بقضية فلسطين، تماماً كما ورد في قصيدتها المذكورة أعلاه (أعني، عناوين وإعلانات في جريدة عربية). تلتها قصائد أخرى: (الملكة والبستان)

و(رحلة على أوتار العود) وهي من قصائدها الجميلة التي تحبها وتجمع فيها بين الموسيقى والله والقرآن. أحب الجمهور قصيدة (الأميرة النائمة) التي تتحدث عن جمال اللغة العربية في القاموس العربي. كانت آخر قصيدة لها (دكان القرائين الصغيرة) وفيها تسير الشاعرة في جو من الحلم في أحد الأسواق الشرقية تبحث عن قرآن صغير لتشتريه وتهديه إلى حبيبها المسافر جواً. كانت تسأل العابرين عن مكان الدكان الذي تباع فيه القرائين الصغيرة، وأرشدوها إلى دكان اسمه مندلي، وظلت تبحث عنه دون جدوى ولم تستطع ان تهتدي إليه أبداً. ويسافر حبيبها دون ان تقدم القرآن الصغير هدية له. حين انتهت نازك من تلاوة القصيدة حدثت لها مفاجأة جميلة. فما ان نزلت عن خشبة المسرح ومشت على السلم حتى تقدم منها الشاعر أحمد سليمان الأحمد، ومد يده لها وقال تفضلي. نظرت إلى ما في يده فرأت قرآناً صغيراً يقدمه لها. شعرت بفرحة غامرة وهي تأخذه في يدها، شكرته وقالت له: ما أروع هذا، لقد عثرت على دكان مندلي أخيراً.

بعد ان أمضت شاعرتنا تلك الأيام الجميلة في ربوع سوريا، توجهت إلى لبنان لقضاء الصيف في مصيف بحمدون. كانت تأمل ان تجد رسالة في انتظارها من أهلها في بغداد حالما تصل إلى فندق الصخرة الذي اعتادت ان تنزل فيه. غير انها لم تجد شيئاً وقد آلمها ذلك. كانت نازك تنطوي على عاطفة جياشة نحو اخوتها وتساورها الشكوك ويتملكها القلق إذا لم يكتبوا لها بمواظبة. وقد أبقت هذه السنة ابنها البراق عند إحسان. ومع علمها ان البراق يرتاح عند أختها ويلعب مع أولادها ويحبهم فقد كانت تتحرق لتسلم رسالة منه ومعرفة أخباره من إحسان. ظلت توطن نفسها على الصبر وتتجالد، وساعدها إيمانها القوي العميق بالله على مضض الانتظار ولوعته، وكانت تعتقد ان الله لن يتخلى عنها ولا يمكن ان يتركها طويلاً فريسة للقلق والخوف والحزن.

في أواخر شهر تموز/يوليو صدر إلى الأسواق كتابها (التجزيئية في المجتمع العربي)، وانشغلت في تصحيح مسودات الطبعة الرابعة من

(قضايا الشعر المعاصر) الذي كانت تأمل ان يصدر في آب/أغسطس قبيل ان تغادر لبنان.

مع بدء العام الدراسي انغمرت نازك من جديد في التدريس وإعداد المحاضرات ومشاغل البيت. كان نمط العيش هذا يحجب عن عالمها الروحي أموراً عزيزة على نفسها كالشعر والأدب ذاتهما، وفي مقدمة هذه الأمور تأتي الموسيقى والأغاني. كانت تحس بخلل في حياتها إذا لم تعزف على العود وتغن وتسمع الأغاني القديمة والجديدة، ولم يعد يتأتى لها هذا دائماً وصارت تفتقد العود. وما ان تتاح لها فسحة من الوقت حتى تتناول العود وتأخذ في عزف شيء مما حفظته من المقطوعات الموسيقية والأغاني التي لا تحصى. واكتشفت انها نسيت الكثير مما كانت تجيد عزفه، ومع هذا ظلت على يقين من انها ستقدر على عزفها مجدداً إذا تمرنت عليها لمدة لا تزيد على نصف ساعة. كان يعز عليها عدم توفر الوقت اللازم لديها لتطلّع على الأغاني الجديدة في مصر ولبنان وغيرهما من البلاد وهي التي كانت تحفظ كل أغنية تظهر لمحمد عبدالوهاب وفيروز وفريد الأطرش وأم كلثوم وعبدالحليم حافظ. لم تكن ترضى لنفسها ان تظل جاهلة بما يستجد في الغناء العربي ولو ان كثيراً من الأغاني الجديدة كانت لا تروق لها، وبعضها لمغنين تحبهم. لم تعجبها أغنية عبدالحليم حافظ «مداح القمر» ووجدتها قبيحة تشبه زفة عامية تقوم على خلط الموسيقى الراقصة بالموسيقى العربية الأندلسية وشيء من تقليد الغربيين. غير ان هذا لا يحول دون توقها إلى متابعة الجديد في عالم الأغنية العربية وحفظ الجميل منه.

ويستمر إيقاع الزمن اليومي

بدأت نازك تتجه نحو كتابة النثر الإبداعي. وكانت قد نشرت في مجلة «الآداب» اللبنانية عام ١٩٥٨ قصة عنوانها (ياسمين) نالت شهرة واسعة وكانت أول قصة لها مما شجّعها على التوجه الجدي نحو كتابة القصة. وفي صيف ١٩٧٧ كانت تنوي إصدار أول مجموعة قصصية لها وأن يكون عنوانها هو عنوان القصة الأولى نفسه (ياسمين) ولكن هذه المجموعة ظلت قصصها متناثرة في بطون المجلات ولم يقيّض لها ان ترى النور.

وفي صيف عام ١٩٧٧ بدأت تكتب رواية، وكان بنيتها ان تطلق عليها اسم (ظل على القمر)، والرواية تحاول استبطان العالم الداخلي للبطلة (سناء أحمد) وتحلل نفسيتها فقد كانت مصابة منذ طفولتها بعقدة نفسية. وتبدأ أحداث الرواية في ايطاليا، عندما تركب سناء خطأً قطار الريف البطيء بدل القطار السريع المتوجه من روما إلى نابولي. وتحتوي على شخصية أخرى مستمدة من وسطهم العائلي وهي (ميسون عبدالحميد) ابنة عم البطلة سناء والتي تخرّجت من كلية ديرونت في يوركشاير بانكلترا، وتنتقل أحداث الرواية من روما إلى نابولي إلى القاهرة وتنتهي ببغداد. وموضوعها وشخوصها مستمدة من حياة نازك وتمثل البطلة الرئيسة صورة لشخصية نازك في جانب مهم من جوانبها. غير ان هذه الرواية التي تقع في ثمانين صفحة لم تنشر أيضاً. ولو ان هذه الأعمال القصصية صدرت في كتابين لنازك لكانت لها منزلة أخرى في القصة غير ما نعرفها عليها اليوم.

وتحدثت نازك لأختها إحسان عن مجموعة قصصية عنوانها (الشمس

التي وراء القمة) وأنها المجموعة نفسها التي كانت تنوي ان تصدرها تحت عنوان (ياسمين). وبدأت تضع كتاباً في النقد الأدبي ليكون تتمة لكتابها المشهور (قضايا الشعر المعاصر).

في تلك الأثناء كانت تنتظر صدور ديوانها (يغير ألوانه البحر). كانت قد انتهت من تصحيح مسوداته في تموز/يوليو ١٩٧٧ وانتهى العام دون ان يصدر عن وزارة الاعلام في الجمهورية العراقية ولو انه كان يحمل بعد صدوره سنة ١٩٧٧. وكانت مجموعتها الشعرية (للصلاة والثورة) على وشك الصدور عن دار العلم للملايين في لبنان، وقد ظهرت في عام ١٩٧٧ أيضاً.

كانت نازك تتمنى ان تحال على التقاعد بعد نهاية العام الدراسي ١٩٧٧. وقد أثار هذه الرغبة الكامنة عندها حصول أختها إحسان على التقاعد، فبعثت لها تهانيها الحارة بهذا الحدث وتمنت ان يسعدها الحظ مثلها بالحصول على الموافقة بإحالتها على التقاعد بعد ان خدمت في الدولة أكثر من ثلاثين عاماً. ونازك تحب الكهولة لأنها سن النضج الفكري والعطاء الأدبي وإدراك الحياة وفهم الناس، بينما يمثل الشباب فترة الاندفاع والحماسة والجهل بالحياة والناس.

ومع حصول إحسان على التقاعد فتح المجال أمامها لتحقيق رغبتها القديمة في الحصول على شهادة الماجستير. فالكهولة عندها ليست نهاية الأماني، وتشاطر أختها نازك في جمال الكهولة، فهي تختلف عن التصور السائد بأنها نهاية عمر العطاء. وبدأت تسعى في هذا المجال، فحصلت على قبول في جامعة أدنبرة ببريطانيا وتمت موافقة مديرية البعثات على سفرها مع زوجها في منتصف حزيران/يونيو ١٩٧٧.

كان والد نازك قد ترك لها مجموعة من كتبه تعتز بها رغم ان بعضها ممزق وفي حالة غير مرضية ولكنها تذكار من انسان حبيب إلى نفسها وفيها ذكريات الشباب. فقد قرأتها مرات في شبابها وتحت إشراف والدها الذي كان يوجهها ويرشدها في النحو وتخف إليه كلما واجهتها مشكلة في هذا الشأن. فكرت في البداية ان تهدي هذه

الكتب إلى مكتبة الخلاني في بغداد. ولكن عزّ عليها ان تفقد هذه الكتب الغالية عندها والتي تمثل جزءاً من تاريخ حياتها وحياة أسرتها ولذلك أبعدت فكرة الإهداء وقررت الابقاء عليها وخزنها في المشتمل الذي تملكه في حي المعتصم.

كانت تشغل بالها المخطوطات التي تركها والدها ولا سيما (دائرة معارف الناس) الضخمة. وقد وعدها أخوها نزار بطبعها في ألمانيا ولكنه لم يستطع القيام بذلك، وعندئذٍ طلبت ان يستلمها أخوها عصام ويحتفظ بها في بيته إلى ان تواتيها الظروف لطبعها. وقام المجمع العلمي العراقي بتصويرها على شريط بطلب من عضو رئاسة المجمع الدكتور جميل الملائكة.

كانت السنة الدراسية تقترب من نهايتها ومع اقترابها تكثر المشاغل والأعمال الجامعية كوضع الأسئلة ومناقشة رسائل الماجستير والإشراف على بعضها. وكان مكتبها في البيت مثقلاً بالكتب ومئات الأوراق التي عليها ان تقرأها وتعلق عليها. فهناك رسالة ماجستير عنوانها (ابن قتيبة الناقد) وكتبت عليها تعليقات للمناقشة بلغت أربعاً وثلاثين صفحة. وهناك رسالة أخرى تنتظر المناقشة على مكتبها وعنوانها (الثقافة العربية في البوسنة والهرسك) وضعها شاب يوغوسلافي مسلم ولا تجد الوقت لقراءتها حتى تنتهي من الأولى. وكانت مسرورة لهذا الموضوع الذي اختاره طالبها اليوغوسلافي وأثلج صدرها إخباره لها بوجود أربعة ملايين مسلم في يوغوسلافيا يقيمون الشعائر الدينية ويتمسكون بالثقافة العربية.

صادف شهر رمضان في هذه السنة في ذروة الحر أي في ١٥ آب/ أغسطس ١٩٧٧. واعتادت نازك ان تصوم رمضان وتصلي فقد كانت شديدة التدين في هذه الفترة من حياتها. وتتحدث عن هذا الجانب من حياتها رداً على سؤال طالب ماجستير سوري يستفسر فيه ان كانت تميل إلى التصوف فتقول:

«تسألني عن التصوف ولست متصوفة إلاّ إذا كان حب الله العلي القدير يكفي وحده لاعتبار المرء متصوفاً فأنا شديدة الحب له سبحانه

وأقضي أوقاتاً طويلة في بعض الليالي أناجيه وأمجده وأتغنى بجماله وروعة خلقه. ولكن لا بد لي من القول بأنني لم أكن متدينة في فترات حياتي كلها لا بل انني مررت بفترة إلحاد وتشكك فظيع ما بين ١٩٤٨ و١٩٥٥.

وإذا كان التصوف يعني الزهد في الحياة والناس، فأنا بعيدة عنه لأنني أحب الحياة والشعر والأغاني، وأحب الناس، وأحب عملي في التدريس بالجامعة، وأعزف على العود وأنصرف إلى التأليف وقرض الشعر في حماسة. وهذا كله لا يصرفني عن الدين، وإيماني بالله تعالى كامل عميق يؤثر في شخصيتي كلها»[١].

إن الإيمان بالله يشعرها بالراحة والهدوء النفسي ويخفف من حدة المشاكل والنكبات والأحزان التي تواجهها، فعين الله ترعاها وتسدد خطاها ولن يتخلى الله عنها في المحن التي تصادفها. وكانت تجد سكينة داخلية كبيرة عندما تقرأ القرآن والأدعية وتبتهل لله.

غير ان الصيام كان متعباً هذه السنة بالنسبة لنازك بسبب الجوع الشديد الذي كانت تشعر به. فقد سبقت حلول شهر رمضان عشرة أشهر من الحمية (الريجيم) البطيء كانت تفقد فيه كل شهر بمعدل كيلوغرام من وزنها. وداومت على ذلك أربعة عشر شهراً متصلة، وتركته في رمضان فقط حتى لا يتعب جسمها.

وجدت نازك نفسها بمفرَدها لمدة تقل عن عشرين يوماً في الكويت. فقد سافر زوجها إلى القاهرة ليرتاح ويجدد قواه الجسمية، وسافر ابنها الوحيد البراق إلى انكلترا وبقيت وحدها في الشقة الكبيرة حيث يسود السكون والصمت التامان. أرادت نازك ان تستغل وقت العطلة هذا في الانتاج الأدبي ولذلك لم ترافق زوجها في سفره إلى مصر. وخفف من وحدتها شراء تلفزيون ملوّن في هذا الشهر (آب/أغسطس) فكانت عندما تشعر بالتعب من الكتابة ومن النحول الجسمي الذي يسببه الصيام، تأخذ

---

(١) نازك الملائكة - لمحات من سيرة حياتي وثقافتي. الكويت في ١٩٧٤/٦/٣. ص ١٩.

قسطاً من الراحة فتنصرف إلى مشاهدة برامج التلفزيون المسلية أو تعزف على العود وتغني كعادتها دوماً.

أنهى ابنها البراق مرحلة الدراسة المتوسطة في هذا العام. وكان يشبه أمه في حبه للموسيقى والأغاني، فكان يجيد العزف على الأرغن، ويعزف كل ما يسمعه دون حاجة إلى اللجوء إلى النوتات. وكانت نازك تشرح له أهمية النوتة للفنان ولا يوافقها الرأي، فتسأل الله ان يهديه إلى سواء السبيل. وقد ساعده ولعه بالأغاني الغربية على حفظ المئات منها مما كان له تأثيره الكبير في ان يتكلم الانكليزية بطلاقة. وكانت نازك مرتاحة لعدم اندفاعه وراء مظاهر المدنية الأوروبية التي تبهر معظم الشباب العرب. وقد شعر بالنفور من فساد الشباب وإقبالهم على شرب الخمرة والعلاقات الجنسية التي لا تقوم على رابطة الزواج. وقد دفعه كل ذلك إلى التمسك بالدين وأداء الصلاة وأخبر أمه انه سيصوم شهر رمضان وهو في انكلترا ليترك انطباعاً طيباً عن المسلمين في المجتمع الانكليزي الذي يعيش فيه.

كانت نازك تتوق إلى حج بيت الله. فقد حجت في غير وقت الحج، غير انها لم تكن لتكتفي بالعمرة. وكانت تعرف ان الحج شاق بل ورهيب. فقد قال لها زوج أختها بعد ان حج انه نجا من الموت وكتبت له حياة جديدة. وقد سمعت مثل هذا الكلام من معظم الذين ذهبوا إلى الحج. وكان زوجها يختار العمرة وحدها ولا يقبل ان يذهب في وقت الحج بسبب شدة الزحام الذي لا يطاق. وبقيت نازك تتحرق إلى الحج، غير انه ظل أمنية من الأماني التي لم تتحقق لحد الآن.

في صيف عام ١٩٧٨ مع بدء العطلة سافرت نازك مع زوجها وابنها إلى يوغوسلافيا لغرض الاستجمام وإجراء بعض الفحوص الطبية. قضوا بضع ساعات في العاصمة بلغراد ومنها توجهوا إلى مدينة موستار بالقطار. وكان الطريق الذي يمر به القطار رائعاً بأشجاره الخضراء وأنهاره وجباله، ولكن ها هو ذا الظلام يهبط ويلف البسيطة بعتمته ويحجب جمال الطبيعة عن الناظرين ولذلك لم تستطع نازك ان تتمتع بطبيعة إقليم البوسنة التي اخترقه القطار في الليل.

أترع روحها جمال مدينة موستار (مركز ولاية الهرسك) فهي تقع في وادٍ يجري فيه نهر، ماؤه أزرق زرقة مياه البحار، خلافاً لما هو مألوف في الأنهار. وهو إلى ذلك يتدفق بقوة كبيرة وتتخلله الشلالات والصخور الكبيرة أحياناً، وتحف الجبال الشاهقة ذات الأشجار الخضراء بالمدينة التي وجدتها نازك كالمدن السحرية في روعتها. ونزلوا في فندق بريستول وهو من فنادق الدرجة الأولى، وكانت غرفتهم تطل على النهر وقد أسعدها جمال المناظر الخلابة التي تراها من النافذة.

لم تفتن الطبيعة وحدها نازك وإنما أعجبها الناس. فقد صادفت في القطار شخصين مسلمين كانا جالسين في المقصورة، وما ان تكلمت بالعربية حتى قال أحدهما بحماسة (السلام عليكم) وكانا ودودين وغاية في اللطف والرقة. سُرت نازك في موستار وهي تلتقي بالمسلمين الذين تتلقى منهم دعوات كثيرة لمجرد معرفتهم بأنها عربية. وعندما يلبون الدعوة إلى بيت من البيوت كان الجيران يأتون ويتجمعون حولهم وكأنهم ظاهرة جميلة فريدة من نوعها، معربين لهم عن عواطفهم وحبهم، وكانوا يكرمونهم أشد الكرم، وقد سعدت نازك بذلك وتأثرت تأثراً كبيراً لدرجة انها كادت تبكي.

مع حلول الثمانينات بدأت نازك تقل في كتابتها، فلم تعد حالتها الصحية تساعدها على الكتابة. فالحبوب المهدئة التي تتناولها كانت تؤثر على نشاطها الأدبي. صارت حتى كتابة الرسائل التي كانت تكتب العشرات منها إلى أخواتها تجد صعوبة منها وتؤجلها دائماً. كانت تكتب رسائل طويلة مفصلة وتراسل حتى أخوالها وصديقاتها، ناهيك عن أهلها، غير انها تجد نفسها الآن وقد فقدت تلك القدرة على المراسلة العزيزة المستمرة، وصارت تجد عنتاً في الرد على الرسائل التي تتلقاها من مريديها ومن الذين يكتبون عنها ويطلبون مساعدتها. وكانت المظاريف تتراكم على مكتبها ويمر العام وهي لا تكتب ردوداً.

كانت نازك تفكر في الاستقرار ببغداد بعد ان تنتهي من العمل في جامعة الكويت. ولم تكن تملك داراً تسكن فيها، في الوقت الذي أخذت ترتفع فيه أسعار الدور بوتائر سريعة مذهلة، مما بعث القلق فيها.

كان عندها قطعة أرض في حي (المعتصم) بنت فيها بيتاً صغيراً (مشتمل) ولكن جرى توسيع في مطار المثنى القريب من أرضهم واستملكت الدولة بيتهم وألحقت أرضه بالمطار. وقد تسلمت نازك تعويضاً مالياً جيداً عن البيت المستملك وأرادت ان تبني بيتاً في قطعة أرض تقع على شاطىء دجلة في حي الدورة.

وفي عام ١٩٨١ اشترت داراً واسعة في حي العامرية ذات حديقة جيدة الحجم في قطعة أرض تبلغ مساحتها ستمائة متر. لا شك ان هذا البناء واسع على عائلة صغيرة وخصوصاً ان ابنها البراق كان يدرس في أميركا. وقد سكنت فيه هي وزوجها عندما عادت إلى العراق في نهاية الثمانينات واستقرت في بغداد في منطقة العامرية.

تقضي معظم وقتها في البيت وتقوم بزيارات قليلة إلى أخواتها، غير انها تتردد أكثر على بيت أختها لبنى القريب من حيهم وتستأنس بحفيدي أختها الصغيرين وتداعبهما. وما زال العود أنيسها عندما تضجر فتعزف عليه وتغني. وتقضي شطراً من وقتها في المطالعة ومشاهدة التلفزيون.

عند عتبة السبعين

مع دنو الثمانينات أحست نازك بأن حالتها الصحية لم تعد تساعدها على الكتابة كما كانت في السابق. مرت فترة كانت تصاب فيها بنوبات من الصداع وخفقان القلب وتشعر بضيق في تنفسها. يضاف إلى ذلك انها كانت تتناول الحبوب المهدئة لمدة طويلة بين آونة وأخرى مما كان له تأثيره السلبي على نشاطها الأدبي والفكري.

اعتادت نازك ان تكتب عشرات الرسائل إلى أخواتها وأخوالها وأقاربها تخبرهم فيها عن أحوالها وحياتها وتتلقى خطابات تتعرف فيها على أخبارهم وشؤونهم اليومية. صارت الآن تجد صعوبة حتى في كتابة رسائل مفصلة. وأصبحت تجد عنتاً حتى في الرد على الرسائل التي يبعثها مريدوها والذين يكتبون عنها ويطلبون منها بعض المعلومات أو يحتاجون إلى مساعدتها. كانت هذه الحال تشعرها بالضيق الشديد وتتذكر قول استاذها الشريف محيي الدين حيدر الذي درست على يديه الموسيقى أيام شبابها، بأن المرض يأتي سريعاً ولكن الانسان لا يشفى منه إلاّ بعد فترة طويلة. أخذت المظاريف تتراكم على مكتبها ويمر العام وهي لا تكتب إلاّ ردوداً قليلة لأصحابها.

صارت تكتب رسائل قصيرة وبأعداد قليلة، فإن تعطشها لمعرفة أخبار أهلها وانتظار أجوبة منهم كان يستحث قواها في الكتابة إليهم. كان حبها لأطفالهم وصغارهم قوياً حاراً. واعتادت ان تكتب إليهم بلهفة وشوق وتحاول توجيههم. فقد كتبت إلى لبيد ابن أختها سعاد

ووحيدها ثلاثة أناشيد كانت قد نظمتها لابنها البراق في طفولته، ونثبت واحداً منها هنا:

نحن صغار الأمّة　　نضيءُ في المُلمّه
وكلنا حماسه　　لدرسنا وهِمه
نحن صغار الوادي　　نسعد بالانشاد
نعطي لماما باقة　　من أجمل الأوراد
صباحنا ملوّنٌ　　تمرح فيه النّسْمه
وليلنا منوّر　　بألف ألف نجمه
نحب بابا وله　　من قلبنا نغني
وأرضنا نحن لها　　في الغد خير حصن

وشفعت هذه الأناشيد ببضعة سطور ضمنتها بعض النصائح التي تقال للأطفال عادة:

«الصغير العزيز لبيد:

لك قبلاتي وأشواقي

وأرجو لك أجمل الأوقات وان تكون في صحة جيدة وان تكون عاقلاً في البيت وتحب ماما وبابا، وان تذهب إلى المدرسة كل يوم وتكتب دروسك وتطلع الأول بالصف».

في هذه الفترة من مطلع الثمانينات بدأت نازك تعاني من ازدياد وزنها المستمر. وكانت تكره القيام بتمارين رياضية أو الالتزام بالحمية (الريجيم) رغم ان البدانة تزعجها. وكان ابنها البراق يعاني أيضاً من بعض السمنة، غير انه استطاع ان يخفض من وزنه فاشترك بمعهد الصحة الدولية حيث كان يقوم بالتمارين الرياضية الكثيرة ويأخذ حمامات البخار التي تساعد على خفض الوزن.

وإلى جانب الهموم الحياتية اليومية كانت تتألم لقيام الحرب بين العراق وايران. وكانت تعتقد منذ اشتعالها إلى ان لهيبها سيمتد لفترة طويلة من الزمن لأن التاريخ ينطوي على دروس قاسية لقيام مثل هذه الحروب الساخنة بين البلدين التي تحمل في ثناياها الآلام والدمار والموت.

وكان حدسها صحيحاً فقد استمرت الحرب بين العراق وايران ثماني سنوات.

توالت الدعوات على نازك لحضور الندوات والمؤتمرات الثقافية. فقد تلقت رسالة من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لحضور ندوة حول قضايا الشعر العربي المعاصر تقام في تونس في شهر أيار/مايو ١٩٨١. ولزمت نازك الصمت حيال هذه الدعوة، ثم تلقت من المنظمة برقية يطلبون فيها رداً عاجلاً. فأجابت بالموافقة على حضورها. وتلقت في تلك الأثناء دعوة من وزارة الأوقاف ببغداد لحضور الاحتفال بالعام الخامس عشر الهجري، ودعوة إلى إربد في الأردن للاشتراك في ندوة حول الشعر، ودعوة أخرى إلى جامعة قطر لإلقاء محاضرة.

وتسلمت كذلك دعوة من جامعة كولومبيا لحضور ندوة حول الشعر العربي الحديث أقيمت في روما. كانت تود ان تحضر هذه الندوة غير انها وجدت نفسها مضطرة لرفضها بسبب وجود ممثلين عن اسرائيل فيها. وقد كتبت إلى المشرف على الندوة رسالة اعتذار عن الحضور وبيّنت فيها انها ترفض الجلوس مع الصهاينة حول طاولة واحدة. ردّ عليها البروفسور كاشيا برسالة يذكر فيها ان لا ضير في ذلك، فمن الممكن ان يجلس المرء مع أعدائه في مناقشات فكرية وأدبية. غير ان نازك أصرت على موقفها وكتبت له جواباً وضّحت فيه طبيعة هؤلاء الأعداء واغتصابهم لأرض فلسطين. ورغم انها لم تحضر هذه الندوة فقد كان مما يثلج فؤادها ان ترى هذا الاهتمام العالمي بالأدب العربي.

ومع الدعوات التي أخذت تتوالى عليها، كانت تقوم هي نفسها بالسفر في أوقات العطل الجامعية. وصادف في هذا الوقت ان أختها إحسان كانت تدرس في اسطنبول وأرادت نازك ان تزورها لتسعد برؤيتها ورؤية أطفالها وزوجها وتزور تركيا مرة أخرى. فقد سبق لها أن زارت اسطنبول عام ١٩٥٤ وأقامت فيها خمسة أيام وأحبت منظر البوسفور حباً عارماً وكان بودها ان تعود وتمتع بصرها بمرآه الرائع المهيب. وعقدت العزم ان تقضي شطراً من العطلة الصيفية لعام ١٩٨١ في تركيا.

كان السيد علي الشعلان زوج إحسان يريد ان يرسم لنازك صورة، ووعدته ان يقوم برسمها في هذه الزيارة رغم ان نضارة الشباب قد فارقتها، ومع ذلك فقد أكدت من جديد بأنها لا تضيق ذرعاً بالكهولة، بل تشعر بنوع من السعادة، مردها إلى تغلبها على جهلها بالحياة في أيام الشباب وقلة معرفتها بالناس وطباعهم. كانت تضفي من ذات نفسها وأخلاقها عليهم وتتصورهم مثلها، وقد أصيبت بالخيبة منهم مراراً وتكراراً، أما بعد ذهاب الشباب وابتعاده فقد اكتسبت خبرة ودراية بالحياة مما كان مبعث غبطة لها. ومما يقوّي هذا الاحساس فيها هو إيمانها العميق بالله الذي يهبها القدرة على تحمل الملمات والصبر على تعب الأعصاب الذي كان يعاودها بين آونة وآخرى ويعيقها عن الكتابة، فتتناول الحبوب المهدئة وهي مؤمنة بأن الله لن يتخلى عنها. كانت تحس بوجود الله معها صباح مساء انه يسمع دعاءها وابتهالها له وتنتظر ان يستجيب لها. وكان هذا الإيمان الحار بالله العلي القدير يمنح روحها الطمأنينة والدعة ويشعرها بالغبطة ويخفف من الأزمات النفسية التي تمر بها أحياناً.

ومع انها صارت تجد صعوبة في كتابة رسائل مفصلة فإنها كانت تجمع أحياناً قواها وترد على آراء أحبائها بخصوص كتاباتها. فقد كتب لها السيد علي الشعلان عن رأيه في كتابها (الصومعة والشرفة الحمراء)، وأشار إلى ان علي محمود طه لا يمتلك ثقافة عميقة في اللغة والنحو والعروض. وافقته نازك الرأي وكانت هي نفسها قد أشارت إلى بعض تلك الأخطاء في ثنايا كتابها. غير ان تلك الأخطاء لا تقلل من موهبته الشعرية اللامعة. فقد رأت انه يمتلك ذوقاً فنياً مرهفاً في اللغة لدرجة انه يستطيع ان يضع الكلمة الشعرية في مكانها الذي خلق لها، فيبهر الباحث الذي يدرس شعره بدقته ورهافة حسه اللغوي. وقد شرحت ذلك بالتفصيل في الكتاب وأوردت أمثلة كثيرة. وكررت في رسالتها له رأيها في ان:

«علي محمود طه شاعر ملهم وشاعريته أغزر مما وصل إليه في انتاجه، ويرجع ذلك إلى انجرافه مع الإباحيين الذين حوّلوه إلى

السطحية والميوعة العاطفية ولعلك تتذكر انني حكمت في كتابي على ان هذا الشاعر كان موهوباً وخصباً في فترته الأولى ثم انزلق إلى الشعر السطحي المائع فكانت مجموعاته الشعرية التالية كلها هبوط وانحدار. وهذا محزن وفيه خسارة لشاعريته ولكن ذلك هو الأمر الواقع».

وتوضح بعد ذلك مفهومها عن الروحانية وتعني بها كل ما يبتعد عن المشاعر الحسية وكل ما له صلة بعالم الشاعر الروحي فتقول:

«وقد رمزت إليه بالصومعة التي يفيء بها إلى العزلة الروحية والتأمل في الأجواء الميتافيزيكية. والصومعة طريق آخر غير طريق الحب الحسي الجنسي لأنه حب الجانب الفكري والروحي من الحياة الانسانية. والروحانية هي الاتجاه إلى التصوف والفلسفة والانغماس فيهما. هي صلة روحية بالله تعالى تزيد عن مجرد العبادة وإنما تتمثل في موقف خاشع من الحياة نفسها لأنها هبة من الله العلي القدير للبشر».

وكانت نازك تأمل ان تجد فرصة أكبر لتتناقش معه حول شاعرها الأثير وعن الفن والأدب. فقد حجزت هي وزوجها مقعدين لهما على متن الخطوط الجوية الكويتية في ٣٠ حزيران/يونيو ١٩٨١ للسفر إلى اسطنبول والالتقاء بعائلة أختها إحسان التي تكن لها عميق الحب. أما ابنها البراق الذي كان قد دخل الجامعة فقد قرر ان يسافر إلى فرنسا في رحلة الطلبة الجامعية التي تستغرق شهراً وذلك لغرض رؤية باريس وتقوية لغته الفرنسية.

بدأت نازك تفكر في الاستقرار في بغداد بعد ان تنهي عملها في جامعة الكويت. ومما كان يشغل بالها انها لا تملك داراً للسكن في بغداد. وزاد من قلقها في هذا الشأن ان أسعار البيوت أخذت ترتفع سريعاً وبشكل لم تكن تتوقعه ولا تتصوره. وكان زوجها يملك قطعة أرض في حي المعتصم تحتوي على بيت صغير (مشتمل) وعندما جرى توسيع مطار المثنى القريب من أرضه استملكتها الدولة وألحقتها بالمطار. غير أن زوجها الدكتور عبدالهادي حصل على تعويض مالي كبير

وفكرت ان تبني بيتاً وفق ذوقها. وكانت قد كتبت إلى خالها المرحوم عبدالصاحب تقول له:

«إن بناء البيت يشغل بالي وبال عبدالهادي إلى أقصى حد وأنا أحلم ان يكون لنا بيت فهل يتحقق هذا؟».

وأخذت نازك ترسم في ذهنها صورة ذلك البيت الذي تحلم ببنائه وكتبت إلى خالها عبدالصاحب الذي كلفته ان يشرف على بناء البيت وان يختار لها مقاولاً أميناً ومخلصاً في عمله للقيام بهذه المهمة وتعطيه المواصفات التي تريدها ان تتوفر في البناء. فالأبواب الخارجية والداخلية ينبغي ان تكون من الخشب الصاج، والنوافذ من الألمنيوم وأسلاك الكهرباء من النوع المخفي والحمام من النوع الغربي بكامل أجزائه كالحوض والمغسلة وغيرها. أما المطبخ فتريده مجهزاً بخزانات بارتفاع متر واحد وسقوف البيت عالية بحيث يبلغ ارتفاع الجدران ثلاثة أمتار ونصفاً، وان تكون الأرضية من الموزاييك الممتاز بدلاً من المرمر، وتبريد البيت ينبغي ان يكون مركزياً وان توضع فتحات التبريد في الجدران وتكون غير ظاهرة للعيان وان يحتوي البيت على طابق ثانٍ من غرفتين ومرافقهما.

غير ان حلم نازك في بناء بيت على ذوقها لم يتحقق. فاضطرت ان تسافر وزوجها إلى بغداد في العطلة الربيعية من عام ١٩٨١ وان ترى البيوت المعروضة للبيع وتختار واحداً منها. لا شك في ان هذا العمل كان مرهقاً لأن عليها ان تطوف في مناطق شتى من بغداد المترامية الأطراف وان تتردد على مختلف الدلالين لاختيار البيت المناسب. وقد راعها الارتفاع المذهل في أسعار البيوت الذي لم تتوقعه أبداً. كانت تعرف ان القطر يعيش في حالة حرب ولكن مع ذلك لم تتصور ان تصل أثمان البيوت إلى هذا الحد. كانت تأمل ان تجد بيتاً مناسباً بكلفة ستين ألف دينار، غير انها لم تجد شيئاً من هذا فتمّ شراء بيت ب(٨٨) ألف دينار وبلغت كلفته النهائية بعد دفع الرسوم والضرائب (٩٢) ألف دينار. وهكذا ابتلعت قيمة الدار ما كان مخصصاً من نقود لشراء سيارة وأثاث. وتقع الدار في منطقة العامرية القريبة من مطار بغداد الدولي.

اطمأنت نازك في الوقت نفسه في هذه الزيارة لبغداد على وضع أهلها وذويها وهم يعيشون حالة الحرب. وكان ملهم، ابن أختها إحسان، يخدم في الجيش بعد ان أنهى دراسته الجامعية. وارتاحت نفسها لأن مكانه العسكري يقع في منطقة قصر شيرين لا علاقة له بالقتال المباشر ولو انه لا يخلو من الخطر لأن المنطقة متاخمة للحدود الايرانية. وكان إيمانها العميق بالله يخفف من مخاوفها، وقد نصحت أختها ان توكل أمر ابنها إلى الله العلي القدير ليحميه من النكبات. وسألتها ان تقرأ هذا الدعاء الذي يبدد همومها كلما شعرت ان الدنيا تضيق بها:

«بسم الله، ربي الله، حسبي الله توكلت على الله، اعتصمت بالله، فوّضت أمري إلى الله ما شاء الله، لا قوة إلاّ بالله».

كانت نازك تشعر بالضيق في هذه الفترة بسبب ركود حياتها الأدبية التي تجد العيش صعباً بدونها. فقد ردت على رسالة السيد علي الشعلان التي كتبها في أواخر عام ١٩٨٠ وفيها قصيدة من نظمه وبأنه ينطوي على شاعر في داخله. وأخبرته ان آخر قصيدة نظمتها تحمل عنوان: «ثلاثية عروس النيل» وفيها تشتم أنور السادات ومواقفه. وكانت تشعر بالتيه لأنها تعيش بلا شعر، رغم انها انتقت مجموعة شعرية من قصائدها عنوانها: «دم على الزنابق» غير انها ظلت غير مطبوعة. وأعدت في الوقت نفسه كتاباً يحمل عنوان: «سايكولوجية الشعر» لتصدره دار العلم للملايين. وكانت الطلبات تتوالى عليها لإجراء مقابلات أدبية في الصحف والمجلات، غير انها صارت تشعر بالضيق والملل من هذه المقابلات.

وذات صباح في آذار/مارس ١٩٨١ كانت نازك تستعد للذهاب إلى عملها في الجامعة عندما علمت فجأة ان قطتهم (قمر) قد دهستها سيارة منذ يومين ولم تكن تعرف بذلك. وإذا بها تنفجر في بكاء حار احمرت له عيناها. أحست بألم شديد وكأنها فقدت مخلوقاً عزيزاً عليها. وكان ابنها البراق قد قرر في يوم من الأيام ان يشتري كلباً، فخرج إلى الشارع ووجد قطة سائبة جائعة فالتقطها وعاد بها إلى البيت وأطلق عليها اسم قمر. وعاشت عندهم بضعة شهور واعتادوا عليها وكانت ألوانها الثلاثة

الأبيض والأسود والبني جميلة. تولّع بها البراق خصوصاً، فكان يلاطفها ويرقدها أحياناً معه، وقد حزن الجميع لفقدانها.

* * * * *

صارت نازك بعد ان اشترت داراً في بغداد تحلم ان تحيل نفسها على التقاعد وان تعود إلى بغداد وتستقر بالقرب من أخواتها اللواتي تزوجن جميعاً ومن أخوالها وذويها. لقد قضت شطراً كبيراً من حياتها بعيدة عنهم، لا تراهم إلاّ في المناسبات عندما تزور بغداد لأيام أو أسابيع معدودة. صار العمل في الجامعة مرهقاً لها، وتعب الأعصاب يعاودها بين فترة وأخرى، وإنتاجها الأدبي يقل بسبب وضعها الصحي. كانت هذه الحال تؤلمها لأن الكتابة جزء لا يتجزأ من كيانها وهي التي تمنح وجودها معناه وتكسبه الغزارة والثراء.

قدمت نازك استقالتها من جامعة الكويت عام ١٩٨٢ بعد ان منحت إجازة خاصة وبراتب تام لمدة سنة كاملة تقديراً لجهودها ولمكانتها العلمية والشعرية. وتألفت بعد ١٩٨٢ لجنة في جامعة الكويت لوضع كتاب عنها ودراسة تراثها الشعري والنقدي. وقد صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٥ بعنوان: «نازك الملائكة ـ دراسات في الشعر والشاعرة» بقلم نخبة من أساتذة الجامعات العربية. وقام بالإشراف عليه وتقديمه الدكتور عبدالله أحمد المهنا ويقع في (٩٠٠) صفحة.

عادت نازك إلى العراق بعد بضع سنوات ووصلت إلى بغداد في ١٩٨٧/٢/١٥ وكانت مريضة مرهقة الأعصاب، تتناول الحبوب المهدئة التي تخفف من وطأة المرض عليها وتجعلها تنام شطراً كبيراً من النهار أو تكون في حالة ركود واسترخاء. زارتها أخواتها وأخذن يدبرن لها شؤون المنزل ويشرفن عليها حتى استعادت صحتها بعض الشيء.

استقرت في بيتها الذي لم يكن تماماً كالذي حلمت به طويلاً، ولكنه بيتها وفي بغداد الحبيبة التي فارقتها ثمانية عشر عاماً قضتها في التدريس في جامعة الكويت. تقع هذه الدار في حي الجهاد في منطقة العامرية وهو مخصص لسكنى الأطباء والصيادلة. وقد تم شراء هذه الدار من طبيب،

وتبلغ مساحتها (٦٠٠) متر مربع ومساحة البناء (٤٠٠) متر. وتتكون الدار من طابق واحد، وتحتوي على مطبخ واسع تحيطه خزانات بارتفاع متر تقريباً لوضع الأواني والقدور والمؤونة وغيرها من لوازم الطبخ. وفيه غرفة استقبال، غالباً ما تكون مغلقة لأن الضيوف القلائل الذين هم في أغلب الأحيان من الأقارب اعتادوا ان يجلسوا في غرفة الجلوس الواسعة والجيدة التنظيم والأثاث، والتي تجلس فيها نازك عندما تريد ان تشاهد التلفزيون أو تعزف على العود أو تقرأ كتاباً. خصصت إحدى الغرف للمكتبة التي تضيق عن استيعاب الكتب التي تعود لنازك وزوجها، فكل منهما يمتلك ألوفاً من الكتب. وما زالت الصناديق التي تحتوي على مكتبتها التي نقلتها معها من الكويت ومكتبة زوجها مرصوفة فوق بعضها البعض عند جدار كبير قرب السلم. وهناك صناديق أخرى مصفوفة بعضها إلى جانب الآخر في أعلى السلم، تنتظر ان يأتي اليوم الذي تفتح فيه وتوضع في الحجرة المخصصة لها، ولكن كاد عام ١٩٩٢ ان يشرف على نهايته وهي ما زالت في هذا المكان الذي وضعت فيه موقتاً.

يحتوي البيت على غرفتين للنوم، تشغل هي وزوجها واحدة منهما، أما الأخرى فما زالت خالية تنتظر عودة ابنها البراق الذي سافر للدراسة في أميركا للحصول على شهادة الدكتوراه؛ وبلغ الآن من العمر ثلاثين عاماً.

تفكر نازك دائماً بوحيدها البراق وتتمنى ان تراه يعيش معها تحت سقف بيت واحد؛ وان يتزوج ويكون له بنات وبنون وان تسمع صوته الحبيب وان تنعم بمشاكساته القديمة التي كانت تضجر منها ومن نشره الفوضى في البيت، فكل ما كانت تراه مزعجاً صار حلواً حبيباً إلى نفسها وهي تعاني من حرقة فراقه وتنتظر عودته.

وفي البيت غرفة مع مرافقها يعيش فيها الخادم الذي يقوم بشؤون المنزل جميعها. فهو السائق والطباخ والمنظّف والذي يؤدي جميع الخدمات الأخرى التي تتطلبها الأمور المنزلية. وقد تناوب عدة خدم على العمل عندهم منذ عودتهم إلى العراق. وكانت نازك وزوجها

يجدان صعوبة في توفر مثل هذه المواصفات الكثيرة في شخص واحد ولذلك كان الحصول على الخادم من الأمور غير السهلة.

وذات يوم من عام ١٩٩٢ خرج زوج نازك الدكتور عبدالهادي مع السائق لشراء بعض الحاجيات من المخزن الذي اعتاد الشراء منه. وكان يركب سيارة (التويوتا السوبر) اليابانية والتي جلبها معه من الكويت يقودها له السائق ـ الخادم. تركا السيارة في موقف السيارات الخاص، وعند عودتهما لم يجدا السيارة. ويبدو ان السائق السابق الذي كان يعرف المخزن الذي يتبضع منه الدكتور عبدالهادي، كان يترصد ويخطط لسرقة السيارة، إذ لم يعثر له ولا للسيارة على أثر حتى اليوم. ويقدر ثمن مثل هذه السيارة اليوم في بغداد بمائة وخمسين ألف دينار.

علم السيد رئيس الجمهورية صدام حسين بهذا الخبر الذي نشرته الجرائد في حينه، فأهدى لها سيارة جديدة من نوع (أولدز موبيل) موديل ١٩٩٠. وقد خصص لشاعرتنا راتباً تقاعدياً مقداره ألف دينار تقديراً منه لشاعريتها ولدورها الأدبي الكبير في العالم العربي. وقد أتاح لها هذا الراتب التقاعدي تلبية النفقات المعاشية الضرورية في حياتها اليومية.

تقضي شاعرتنا حالياً معظم وقتها في البيت، وتقوم بزيارات قليلة لأخواتها وأخوالها وعدد محدود جداً من الأصدقاء. غير انها تتردد أكثر ما يكون على بيت أختها لبنى القريب من حيهم، وتستأنس بحفيدي أختها الصغيرين وتداعبهما، فما زالت نازك تحب الأطفال كما كانت سابقاً. ولبنى أولى أخواتها التي رزقت بحفيدين. وما زال العود أنيسها عندما تشعر بالضجر، فتعزف عليه وتغني. وتقضي شطراً من وقتها في المطالعة ومشاهدة التلفزيون. ويحلو لها أحياناً ان تكتب أو تنظم الشعر وتفكر في الأيام القادمة وما يمكن ان تحمله لها من أنباء وأحداث مجهولة.

وقد حمل لها شهر حزيران/يونيو ١٩٩٢ خبر قيام جامعة البصرة بمنحها شهادة الدكتوراه الفخرية تقديراً منها لمكانتها الشعرية ولعملها

في جامعة البصرة لبضع سنوات عند بداية تأسيسها في الستينات. وقررت الجامعة ان تقدم لها شهادة الدكتوراه الفخرية في حفلة تخرج الطلبة لعام ١٩٩٢. غير ان نازك لم تستطع السفر إلى البصرة وحضور الاحتفال بسبب وضعها الصحي.

٤ تموز/يوليو ١٩٩٢

صفحات من حياة

نازك الملائكة

صرفت المؤلفة حياة شرارة فترة طويلة في جمع المعلومات عن حياة نازك الملائكة من خلال لقاءات مكثفة مع أهلها وذويها، حيث تلقي أضواء جديدة على حياة الشاعرة العراقية كما تعكس في الوقت نفسه صورة نابضة عن الحياة الاجتماعية والظروف الحياتية التي نشأت فيها نازك الملائكة والتي تختلف الى حد كبير عن حياتنا في هذا العصر.

1855132826